الحوزة

مجلة فصلية علمية

تعنى بشؤون حوزتي النجف الأشرف

وقم المقدسة

المشرف العام

السيد قاسم هاشم مولى

رئيس التحرير

السيد عبد الله الهاشمي

المتابعة الفنية

أحمد الهاشمي

مركز الهدى للدراسات الحوزوية

مركز الهدى

- مركز علمي مستقل يعنى بالقضايا والشؤون الحوزوية.
- يعنى بانجاز البحوث والدراسات العلمية التي تهم الحوزة العلمية وسبل إسنادها وتطويرها والدفاع عنها.

المراسلات:

رئيس التحرير السيد عبدالله الهاشمي

Email:Hashemi94 @gmail.com

Mobile:+٩٦٤-٧٧١٠٥٥٨١٢٣

لا تمثل بالضرورة آراء الباحثين والكتاب رأي مجلة الحوزة

بسم الله الرحمن الرحيم

مجلة فصلية علمية

تعنى بشؤون حوزتي النجف الأشرف وقم المقدسة

شروط النشر في مجلة الحوزة

تود هيئة تحرير مجلة الحوزة ان ترحب بالأخوة والأخوات الباحثين والمتخصصين في الدراسات الدينية الحوزوية والذين يرغبون بنشر بحوثهم ودراساتهم العلمية والاكاديمية في مجلة المنائر وفق المعايير التالية:

- أن تتناول البحوث والدراسات الشؤون الحوزوية المعاصرة وكل ما له علاقة بتطوير الحوزة والدفاع عنها وعكس صورتها المثلى
- تعتمد المجلة الأساليب العملية الراهنة في الكتابة والتوثيق والحيادية والموضوعية والدقة والإشارة إلى المصادر حسب القواعد العلمية المتعارف عليها.
- أن لا تكون البحوث قد نشرت في مجلات أخرى
- تقدم البحوث إلى المجلة مطبوعة وعلى (CD) مع موجز خالي من الأخطاء الطباعية.
- تخضع البحوث والدراسات إلى التحكيم العلمي المتعارف عليه أكاديميا ولا تعاد البحوث إلى أصحابها في حالة الاعتذار عن نشرها
- تنشر البحوث والدراسات وفق خطة هيئة التحرير والنشر

الحوزة

مجلة فصلية علمية

تعنى بشؤون حوزتي النجف الأشرف وقم المقدسة

المرجعية الدينية في النجف الأشرف "تحليل لما بعد فتوى الجهاد الكفائي"

محمد باقر الهاشمي ٥

دور الفكر الإسلاميّ في منع الفتنة المذهبية

أ . د علي الشيخ عمار.....١٥

أساطين الحوزة ووحدة الأمّة

محمد جعفر النوري ٣٧

دور ثقافة الحوار في نبذ الطائفية

لاله افتخاري ٩٣

التجديد في الفكر الإسلامي وعنصر المرونة في الشريعة

آية الله الشيخ محمد على التسخيري ١١٣

الأسس الفقهية لنظام الحكم عند السيد الشهيد محمد باقر الصدر

قاسم المعدل الإبراهيمي..... ١٣٥

خـــط الثـــورة

آية الله محمد مهدي الآصفي..... ١٦١

الدولة الاسلامية، دولة عالمية

عبد لكريم آل نجف..... ١٦١

الأنبياء والبشرية في القرآن الكريم

محمد علي الريحاني ٢٢٩

المجتمع والتاريخ

الأستاذ الشهيد مرتضى المطهري ٢٥٣

المرجعية الدينية في النجف

تحليل لما بعد فتوى الجهاد الكفائي

"قـــراءة أولـــية"

❐ محمد باقر الهاشمي

تمهيد

تاريخ الحوزة مليٌء بالأحداث المهمّة الوطنية التي تعبّر عن تلاحم الحوزة وقياداتها مع المجتمع وقضاياه، إلا أن هناك ثلاث مراحل مفصلية في التاريخ كان للحوزة دور كبير عبر إعلان الجهاد وقيادة المجتمع بشكل مباشر:

المرحلة الأولى: الحوزة وثورة العشرين: كان دور الحوزة كبيراً أبان الحكم البريطاني وسيطرة الملك الوهمية على مقدّرات العراق، آنذاك الحوزة كانت تضمُّ رموزاً مثل الشيخ الأصفهاني والنائيني وغيرهم، ناهيك عن الطبقة الثانية من العلماء كالسيد محسن الحكيم والسيد الحبوبي وغيرهم، هذا التاريخ شهد دوراً كبيراً للمرجعية عبر تحشيدها لكافة طبقات المجتمع العراقي، ومشاركة العلماء بشكل فعلي فيها، كالسيد الحبوبي والمجدد الشيرازي وغيرهم.

وكانت ثورة العشرين ثورة أتت أوكلها كحراكٍ على الأرض، إلّا أنه سرعان ما التف البريطانيون والملك على القبائل وضاعت على الحوزة حصد نتائج حراكها.

و تعتبر هذه المرحلة من تاريخ الحوزة مهمّا وذلك لإعلانها حالة الجهاد العام ضد البريطانيين، والمعروف عن الحوزة النجفيّة تخوّفها ولزوم الحذر إزاء صدور فتاوى الجهاد، ولذا شكّل تاريخ ١٩٢٠م، مرحلة جديدة في تاريخ النجف وهي إقدامها على الجهاد والنفير العام في الناس، وهو ما لاقى في الوقت نفسه صداه بين الأوساط ونتج عنه ثورة العشرين، وغير خاف آنذاك دور المرجعية فيها، بل لولا تحرّكها لما أمكن أن تكون الثورة بهذا الشكل الذي يذكر في مطاوي الكتب.

إلّا أن ثورة العشرين رقم ما قدمته الحوزة لها، لم تكن فأل خير على الحوزة، بل حورب علمائها وهجّر فيما بعد، ومع هذا فقد أوصلت المرجعية رسالتها بأنها قادرة على أخذ زمام المبادرة والاتجاه نحو قيادة المجتمع في أي وقت تشاء مع توفّر الظروف الميدانية والنفسية، ناهيك عن الشرعية.

المرحلة الثانية: يمكن اعتبار هذه المرحلة أهم مراحل الحوزة العلمية في النجف، وأخذ موقعها بشكل حقيقي، وتأثيرها في الحراك السياسي والاجتماعي أعلى التأثير، إنها المرحلة الممتدة بين ٢٠٠٣م إلى ٢٠١٤م، أي في الوقت الحاضر.

تعتبر مرجعية السيد السيستاني مرجعية هادئة لا يمكن أن تتنبأ بما يمكن صدروه منها، إلا أن المميّز فيها صدور فتاوى وأحكام في أوقات لا يتصّور أحدٌ صدورها.

إلّا أنَّ مرجعية النجف مع السيد السيستاني في هذه المرحلة استطاعت أن تكون مكوناً وسلطة رابعة فرضت نفسها على كل اللاعبين الداخليين والخارجين عن المكوّن الشيعي، سواء اتفقنا مع كل ما قامت به أو مع الاختلاف.

يمكن تقسيم هذه المرحلة حسب أحداثها دور حوزة النجف فيها:

١ـ المطالبة بكتابة دستور وإجراء انتخابات: وهو ما حشّدت الجماهير من أجله، وما اعتبرته أمريكا ضربةً قاسمةً لها، ويعتبر كثير أنَّ ما قامت به المرجعية بالمطالبة بالانتخابات وكتابة دستور بأسرع وقت والتصويت عليه اختصرت مراحل كثيرة، لم يكن يمكن تحقيقها لو بقي الأمر تحت طائلة الأحزاب والتحالفات.

٢ـ أزمة النجف: اعتبرت أزمة النجف من أخطر الأزمات التي خشي أن تودي

بتاريخ المرجعية وقوتها، فالمعارك عطّلت الحياة والقرارات بشكل واضح في النجف عبر الصراع الطويل مع المحتل الأمريكي، إلا أن استمرار المعارك كان يعني الدخول في مأزق أكبر من المواجهة مع المحتل، والملاحظ دخول كثير من الأطراف لحل الأزمة إلا أن جميعا باءت بالفشل، ولم يكن بالإمكان حلّها إلّا عبر المرجعية وهو ما حصل بالفعل، وهو ما أكّد ثلاث نقاط أساسية:

أ ـ قدرة المرجعية وحدها على حل النزاعات الداخلية الشيعية.

بـ ـ رغم الاختلافات بين الأحزاب الشيعية في رؤاها وتوجهاتها السياسية، إلّا أنّها تنصاع آخر الأمر لقرار المرجعية، خصوصاً إذا أبدت المرجعية إمتعاظها أو سخطها.

ج ـ تأكّد كافة المكوّنات والأحزاب السياسية في العراق أن المرجعية قادرة على تحريك مؤيديها ولجمهم في الوقت المناسب، وأن دور المرجعية لا يقتصر على البعد العبادي الروحي، وهو ما بدا واضحاً على الدوام من خلال سعي كافة المسؤولين لكسب ودِّ المرجعية.

٣ـ فتنة سامراء: يعتبر تفجير مرقد الإماميين العسكريين لحظة أوشك العراق فيها أن ينغمس بالطائفية بأجلى صورها، وصحيح أنَّ العراق شهد اقتتالاً إبان هذه الحادثة، إلا أن المخطط الذي يهدف إليه كان أكبر من ذلك.

وهنا كان للمرجعية دور كبير، وهي المرّة الأولى التي يشاهد فيها العالم اجتماعاً مباشراً لمراجع النجف، وكان ما صدر أنْ خرجت المرجعية بفتوى تحرّم الدم العراقي على بعضه، وتستنكر بقوة العمل الإجرامي.

إنَّ فتنة سامراء أكّدت على مطلب مهمٍّ أن المرجعية قادرة على تهدئة الشعب الثائر المستشعر بالإهانة للمساس بكرامته، واستطاعت آنذاك المرجعية من إقحام

آلاف الشباب في حرب غير معروفة الملامح، ورغم عدم إيمان كثير من فئات الشعب وعدم قناعتهم دون الحرب، إلا أن موقف المرجعية كان حاسماً وهو ما أنقذ حياة الآلاف.

تتمة: خلال هذه الفترة ووصولاً إلى ٢٠١٤م كان المرجعية داعمة للعمل السياسي وممتعضة في بعض الأحيان ولكن اقتصر دورها على بعض المسائل العامّة، ورغم دورها الكبير إلّا أنّه تشّكل عند البعض رؤية مفادها إن المرجعية تعاني من عُقدٍ لازمتها خلال سنين طوال ومنها:

أ ـ الخوف من فتوى الجهاد، وهو مابدا واضحاً أن المرجعية تبتعد عنه، مما ولّد نظرة أن حوزة النجف لا تحاول أن تزجَّ نفسها في فتوى جهاد قد تخسر من خلالها موقعها، أو دورها المعروف بأنّها الأب الروحي لكافة المكوّن العراقي.

رغم إنَّ المنطقة شهدت أحداثاً كثيرة وبروز للحركات الأصولية المتشددة وهو ما دعا في أكثر من مناسبة لإعلان الجهاد ضدّها، إلا أن المرجعية كانت تكتفي بالتهدئة والشد على أيدي قوّات الجيش، ناهيك عن الساحة السورية التي وردت من أجلها آلاف الرسائل تستفتي للذهاب فلم يجد أكثرها جواباً، وهو ما شكّل عند البعض خيبة واعتقاداً بخوف وخنوع المرجعية.

ب ـ فقدان دورها في العملية السياسية: غالباً ما غابت المرجعية أو غيّبت عن العمل السياسي في الأزمنة السابقة لمرحلة ٢٠٠٣م، إلا أنّها بعد هذه المرحلة شهدت إقحاماً قوياً للمرجعية في طبيعة الجو السياسي، غير إنَّ التلكؤ الكبير في العملية السياسة ومطالبة الناس أن تأخذ المرجعية دوراً أكبر دون وجود نتائج فعلية على الأرض خلق عند البعض رؤية أن المرجعية عادت لتعاني من عقدتها القديمة، ولم تستطع التغلب عليها، وهي تهميشها، والاكتفاء بتمجيدها روحياً

وإعلاء دورها فقط إعلامياً أما الدور الحقيقي الذي تعيشه فهو التهميش الممنهج، وهي قانعة بهذا التهميش، تلازماً لعقدة قديمة تعرفها وتدرك ضروراتها!!!.

إلى غير ذلك من الأسباب التي اعتقد الجميع خلالها أنَّ دور المرجعية في النجف دور ثانوي وأنها لم تعد تلبّي حاجات المجتمع، وهو ما انكشف خطأه لاحقاً، وبان لجميع الأطراف أن المرجعية دورها حكيم وتدرك الضرورات وتتقن دراستها بشكل واعي وليس على أساس الأماني والاندفاع الشعبي.

المرحلة الثالثة: ما بعد ١٣ يونيو/ ٢٠١٤م" فتوى الجهاد الكفائي":

سقوط الموصل أنذر بمرحلة جديدة في تاريخ العراق والمرجعية، كان الحدث مهولاً إعلامياً بتهاوي أركان الدولة، والحرب الواضحة ضد التشيع في العالم والعراق بشكل خاص، باعتباره الحاضنة الإستراتيجية للشيعة وقوتهم في الشق العربي.

كان العقل الجمعي المربك والمتخوّف ينذر بكارثة كبيرة نفسية قبيل المواجهة، وهو ما يمكن اعتباره انهزاماً نفسياً يحسم المعركة لصالح الطرف الآخر بنسبة ٩٠%.

كانت الأنظار متجهة باتجاه المرجعية، وما الذي يمكن أن يصدر منها، لم يكن أكثر المتأملين أنْ تخرج المرجعية بأكثر من تأييد للجيش واستنكاراً كبيراً لما يجري، أمّا المتشائمين من الدور المرجعي فإنّه لم يأمل شيئاً إلا وريقة فيها بعض الكلمات لا تغني ولا تسمن من جوع.

إلّا أنَّ ما صدر فتوى بالجهاد الكفائي!!، لم تستطع وسائل الإعلام ولا الجمهور الشيعي ولا كافّة مكوّنات الشعب العراقي تصديق ما يجري، فهي

الفتوى الثانية للجهاد في تاريخ المرجعية الحديثة الممتدة من عام ١٩٢٠م إلى ٢٠١٤م، وهو ما لا يتوقعه أحد، إلّا أن أسباب صدور هذه الفتوى لابدَّ أنّه يعود لاعتبارات شرعية، وظروف زمانية ومكانية، تدرك ضرورتها المرجعية، إلا أنَّ هذه الفتوى تعلن مرحلة جديدة في تاريخ المرجعية لها محدداتها وشخوصها تختلف عن مرحلة ما قبل هذه الفتوى ويمكن تلخيص وتحليل ذلك في عدّة نقاط:

١: قدرة المرجعية على حشد الجمهور الشيعي والعراقي دون غيرها.

٢: إدراك الحكومة جيداً أن دور المرجعية أكبر مما تتصور، ولا يمكن تهميشها أو اعتبار صمتها ضعفاً، وهو ما أكّده المالكي وكافة الأطراف السياسية بشكره الكبير للمرجعية، ما يكشف عن حاجته لمثل هذه الفتوى.

٣: البعد النفسي الإيجابي الذي أوجدته المرجعية في شرائح المجتمع العراقي من خلال هذه الفتوى.

٤: دخول المرجعية مرحلة جديدة، بفرض متطلّبات على أيِّ حكومة تشكّل لاحقاً، وأنَّ دورها لا يقتصر على الاستنكار والتأييد، بل المطالبة والرفض، وهو ما يمكن أن يجلب مكاسب كبيرة للمكون الشيعي وكافة أطياف العراق.

٥: إعادة تشكيل الخارطة السياسية الشيعية وبناء تلاحمها من خلال فتوى الجهاد، وهو ما بدا واضحاً باستجابة الأحزاب السياسية الشيعية ورجال الدين المختلفين في النظر حول قضية واحدة، وهو ما يمكن استغلاله لاحقاً في بناء توجّهات جديدة تحاكي خطورة الموقف، ويضاف إلى ذلك استجابة عقلاء السنة وعشائرهم لهذه الفتوى وهو أيضاً يدخل ضمن إطار تشكيل بنية سياسية وطنية جديدة.

٦: الدخول في مرحلة جديدة من التصريحات تعتمد على القوّة والاستنكار

الحركي، وإسماع الأطراف الأخرى بقوة.

٧: اعتماد سياسة المفاجئة الذي تعتمده المرجعية في التصريحات والفتاوى أكّد على حكمة المرجعية وقراءتها للواقع سواءً أكانت قراءة متأخرة أو في وقتها.

٨: فتوى الجهاد الكفائي أعقبتها عدّة فتاوى أخرى خصوصاً مع فتح باب التطوّع وظهور الجمهرة الكبيرة المستجيبة وهو ما يكشف مدى استجابة الناس للفتاوى، والحاجة إلى بعدٍ تنظيمي، وهو ما سيكون تباعاً مع الحاجة إليها.

دور الفكر الإسلاميّ

في منع الفتنة المذهبية

❐ أ. د علي الشيخ عمار

قبل الحديث عن دور الفكر الإسلاميّ في منع الفتنة المذهبية لابدَّ من تسليط الضوء على عدد من الأمور المرتبطة بمفهوم الفتنة المؤثرة، ومسألة الاختلاف التي يمكن أن تعتبر أحد أسباب المؤدية إلى أنواع من الفتن داخل المجتمع الواحد أو بين بعض المجتمعات الإنسانيّة المتجاورة أو ربما المتباعدة.

أولاً: مفهوم الفتنة:

فالفتنة، بحسب ما هو شائع، هي حالة مأساوية يشدها مجتمع إنساني ما تعبر عن ذاتها وطبيعتها من خلال إقتتال وحروب تطيح بوحدة هذا المجتمع، وتتسبب بالآلام وتترك أثاراً يصعب إزالتها، تُبقي على حالات من التخبط والضياع وتربص البعض بالبعض الآخر... وتكون عاملاً إضافياً من عوامل الضعف والتخلف والجهل والفقر إضافة إلى الظلم والإستبداد والإعتداء على الحقوق وقمح الحريات ونهب الثروات.....

و بناء علي ما سبق، فإنه يمكن التمييز بين أشكال من الفتن التي يمكن أن تسقط فيها المجتمعات الإنسانيّة المعاصرة، وفق التالي:

الفتنة بين أبناء المجتمع الواحد:

إن الدافع الأساس في هذه الحالة هو مجرد مخاوف أو أوهام يستحضرها أطراف المجتمع المنتمون إلى ديانات مختلفة أو أحزاب مختلفة أو ربما أعراق وثقافات متباينة....

الفتنة بين أبناء الدين الواحد:

هذا النوع من الفتن تتسبب بها تيارات وجماعات يرى كل واحد منها أنه

المعبر الأوحد عن حقيقة هذا الدين وأن الآخرين، بمخالفتهم لمنهاجه، قد ضلوا الطريق والواجب الشرعي يدعوه إلى مقاتلتهم وإرغامهم على مغادرة ما أوقعوا أنفسهم فيه من البدع والإنحرافات والأباطيل....

الفتنة بين أبناء الجماعة الواحدة:

و هذا ما يمكن ملاحظته في مجتمعنا المعاصرة حيث يؤدي الاختلاف في وجهات النظر داخل الحزب الواحد أو الجماعة أو السلطة الواحدة، إلى أن يشهر كل طرف سلاحه مفصحاً عن نيته في استئصال مخالفيه والإستفراد بمقدرات السلطة أو الجماعة أو الحزب.

الفتنة بين أبناء المذاهب المختلفة:

مثل هذه الحالة قد أُشيعت في فترات مختلفة من تاريخ البشرية، داخل العديد من المجتمعات الإنسانيّة التي عانت طويلاً وما تزال تستذكر بعض المحطات الأليمة والموجوعة التي تتحول عاملاً مستمراً من عوامل الفرقة والتقاتل والإنقسام وفي العالم الإسلاميّ كما في الغرب.

ثانياً: أما العوامل المساعدة في إثارة الفتن داخل المجتمعات الإنسانيّة فيمكن تصنيفها ما بين عوامل داخلية نابعة من قلب المجتمع وأخرى خارجية يسهم في إنتاجها بعض الخارج لأكثر من غاية وأكثر من هدف.

١ـ أما العوامل الداخلية فيمكن حصرها بالتالي:

أ ـ عدم تقبل الآخر

هذه مسألة مرتبطة بثقافة المجتمع حيث يتم تبرير الصراعات والحروب الأهلية والفتن الداخلية وإرجاعها إلى الاختلافات الدينية أو السياسية أو العرقية أو الثقافية.... فالمجتمعات الإنسانيّة بطليعتها متنوعة يسودها شيء من الاختلاف

بين أبنائها، وعدم الإعتراف بمثل هذا التنوع أو هذا الاختلاف وعدم تقبل الآخر من شأنه أن يتحول عنصراً مؤثراً إلى عناصر أخري قادرة على إنتاج حالة من الإضطراب والفوضى أو ربما من الصراع والإقتتال والحروب المتنقلة.

ب- المخاوف المتبادلة.

وهذه تعتبر من العوامل المؤثرة على العلاقة الأخوية التي من المفترض أنها هي السائدة داخل المجتمع الواحد، وبالتالي على إستقرار هذا المجتمع ووحدته، فالثقة المفقودة لا تعوضها محاولات التهدئة وإجتراح الحلول المؤقته، ومجتمع هذه حالته لن يكون قادراً على الصمود طويلاً وهو منساق حتماً إلى ما لا يحبذه العقلاء من أبنائه أو المستنيرين من قادته.

ت- إستحضار التاريخ.

إذ يطيب للبعض إستعراض بعض المشاهد التي تستدعي العصيبات أهمية التصدي لمشكلات وهموم الحاضر والبحث عما يمكن مستقبلاً مختلفاً تتطلع إله الأجيال مبدية قلقها وإشمئزازها من الطريقة المعتمدة في معالجة الأمور. فالتاريخ إنْ لم يكن مجالاً للعبرة والإستفادة وتحصين المجتمع، فمن الأفضل عندها طمس وتغييب ما يمكن أن يتحول منه سبباً لألام ومآس متجددة.

ث- الرغبة في السيطرة:

قد تتولد لدى أطراف أو قوي معينة أوهام مفدها أن ظروفاً مؤاتية قد تهيأت أمامها وعليها إستغلالها إلى أقصى الحدود من أجل إخضاع الآخرين والسيطرة على المجتمع، مما يستدعي ردود فعل طبيعية تكون بمثابة عملية انخراط في ما يعتبر كارثة لا يستطيع مجتمع إنساني تحمل أوزارها أو نتائجها.

ج- غياب الرؤية الإصلاحية.

إن رغبة الأطراف في الإستفادة من الواقع المتردي الذي يشهده المجتمع والإستئثار بما تبقي من مقدرات وخيرات والإستقالة من مهمات الإصلاح والتطوير الملقاة على عاتق أي مجتمع إنساني يحرص على الإستقرار، مثل هذه الرغبة وهذه الإستقالة تعتبر في نظرنا، من العوامل المقلقة التي تسهم في إنتاج وصناعة الفتن التي يمكن أن تُثار كل مرة يشعر فيها بعض الفاسدين أنه مهدد بفقدان بعض أشكال هيمنته أو خسارة جزء من مكتسباته غير المشروعة.

٢ـ أما العوامل الخارجية فأهمها:

أ ـ قوي خارجية لديها الرغبة في خلخلة المجتمع بهدف تحقيق مكاسب معينة

هذا ما نشاهده في مجتمعات معاصرة؛ حيث تعمل بعض الحكومات على إثارة الفتن داخل مجتمعات تعتقد بأنها بهذه الطريقة تتمكن من المحافظة على مصالحها، كما تدعي مثل هذه الحكومات، التي ترى أن مصالحها لا تتحقق إلا عبر تخريب المجتمعات الأخرى، التي ينبغي أن تبقي تحت سيطرتها ورهن إشارتها.

ب- قوى خارجية لديها الرغبة في السيطرة على المجتمع

فإثارة الفتن في مجتمع ما تهدف في النهاية إلى السيطرة على هذا المجتمع وإخضاعه نهائياً لإرادة هذه القوى التي تتبني مشروعاً لا إنسانياً عنوانه السيطرة لمجرد السيطرة إشباعاً لغريزة جامحة لا تعترف بمكانة الإنسان وتتنكر لكل القيم والمعايير الأخلاقية المعروفة.

ت- قوى عدوة تستخدم قوى محلية

إن الذين لديهم الإستعداد ليكونوا في خدمة أعداء مجتمع ما، سيكون من السهل تحويلهم إلى أداة تستخدم في الوقت المناسب لإثارة الفتن والإنخراط في صراعات داخلية إستجابة لرغبة الأعداء في ذلك، إسهاماً منهم في إضعاف المجتمع تمهيداً لإسقاطه نهائياً.

ثالثاً: الاختلاف، هل هو طريق الى الفتنة؟!

هذا سؤال ينبغي الإجابة عنه بكل مسؤولية، ذلك أن مثيري الفتن في المجتمعات الإنسانيّة المختلفة يستفيدون من مثل هذه الحقيقة ويمعنون في تصوير هذا الإختلاف سبباً كافياً لتعميق الخلاف داخل المجتمع الواحد، وفي تقديمه عاملاً أساسياً لإدخال المجتمع في حالة صراع لا تنتهي:

١ـ فالإختلاف السياسي ليس مقبولاً وينبغي أن لا يستمر.

٢ـ والإختلاف الديني داخل المجتمع الواحد سبب جوهري للإقتتال الداخلي والحروب الدينية المتواصلة.

٣ـ والإختلاف الفكري والثقافي مصيبة كبرى تمهد لصراعات مدمرة.

٤ـ وكذلك الإختلاف العرقي ينبغي أن يحذر من خطورته باعتباره عامل تفجير من السذاجة تجاهله أو إهماله.

٥ـ أما الإختلاف المذهبي فمسألة ليس بالمقدور تجاوزها بل يجب على الدوام تسليط الضوء على مقولة أنها كانت عبر التاريخ سبباً للصراعات والحروب الطويلة.

مثل هذه الأمور تفرض نفسها، بطريقة أو أخري، عند الحديث عن الصراعات وعن الفتن مما يستدعي موقفاً واضحاً وتوافقاً مسؤولاً يزيل كل

غموض ويؤدي إلى حسم المسألة لطريقة تتلاءم وتنسجم مع ما نعلنه ونصرح به في جميع المناسبات.

رابعاً: الفتنة المذهبية دوافعها ونتائجها:

إن مما يثير المخاوف لدى المسلمين في هذا العصر هو ما بات يعرف بمسألة إستثمار الأقليات في المجتمعات الإسلامية لإشاعة أجواء الإضطرابات وزجّ هذه المجتمعات في صراعات الغاية منها قطع الطريق على عمليات الإصلاح التي يسعى إلى تنفيذها تيارات وحركات وقوى إسلامية يسوؤها ما يعانيه المسلمون من ظلم واستبداد ونهب للثروات وحالات تخلف وضعف وفقر وجهل....

إن الدافع الأساس لما يمكن أن يُسمي فتنة مذهبية هو ما ذكرت من رغبة لدى بعض القوي الدولية، ومشروع عمره مئات السنين عنوانه السيطرة على العالم الإسلاميّ والإستيلاء على المجتمعات الإسلامية عبر تجزئتها واحتضان ودعم حكومات أو سلطات مجرمة تعبث في البلاد فساداً، وإثارة الفتنة الطائفية أو حتى المذهبية وضرب القوي الإسلامية الممثلة الحقيقة للشعوب المسلمة، وصولاً إلى احتلال عدد من البلاد الإسلامية بطريقة مباشرة.

فما يسمي فتنة مذهبية إنما هي مسألة خطيرة جداً إلى الدرجة التي ينبغي أن تفرض على أولئك الذين يسعون، بوعي منهم أو من غير وعي، إلى إثارتها داخل المجتمعات الإسلامية مراجعة حساباتهم والتنبه إلى خطورة النتائج التي يمكن أن تخلفها، والعمل على التخلص من بعض الأوهام التي تبقى مجرد أوهام يستفيد منها من لا يريد خيراً لهذه الأمة وللعالم أجمع.

و إذا أردنا أن نحدد أكثر فإنه يمكن الحديث عن النتائج التالية:

١ـ الإستجابة لرغبة بعض القوى الدولية في سعيها الدؤوب من أجل السيطرة

على العالم الإسلامي.

٢ـ إضافة جديدة إلى جراحات الأمة وآلامها ومعاناتها.

٣ـ تدمير القدرات المتواضعة التي تتمتع بها هذه الأمة الإسلامية.

٤ـ المزيد من الظلم والإستبداد والقمع.

٥ـ تمزيق المجتمعات الإسلامية.

٦ـ قطع الطريق على مشاريع الإصلاح داخل بعض المجتمعات الإسلامية.

٧ـ العجز عن دعم وتأييد عدد من قضايا الأمة.

٨ـ إستعادة أجواء العداوة بين أبناء الأمة الإسلامية وإشاعة الفرقة بين أبناء المجتمع الواحد، وإستثارة الكراهية والأحقاد.

هذا باختصار بعض ما يمكن أن ينتج عن أية محاولات جديدة لإثارة الغرائز داخل المجتمعات الإسلامية مع التشديد على أن من يسعون في الأرض فساداً وإفساداً من المستفيدين من دعم وتأييد من هنا وهنالك، وملبين للرغبة المكشوفة لدى بعض القوي في الإساءة إلى المسلمين، وتعطيل أية إمكانية للخروج من الحالة الصعبة جداً التي تمر بها المجتمعات المسلمة، هؤلاء أول من سيدفع ثمن تآمره وجنونه وضلاله وحقده وجهله وغبائه...

إن الذي يعتمد التحريض أسلوباً والتآمر منهاجاً ولقتل وإثارة الفتن سبيلاً إلى السلطة أو الحكم لن ينجو أبداً، فالإسلام أقوى والمجتمعات الإسلامية أقدر على الصمود، وهي عصيّة على السقوط، والإنسان بإيمانه وقيمه هو الذي سينتصر في النهاية.

خامساً: الفكر الإسلامي

و يقصد به مجموعة الأفكار والآراء المستوحاة من القرآن الكريم والسنة النبوية، والتي تحدد المفاهيم المتداولة والتي تتناول مناحي الحياة الإنسانيّة في ارتباطها بالله سبحانه وتعالى وبالكون وفي تفاصيلها المتعلقة بالإنسان الفرد والأسرة والمجتمع...

مع هذا التعريف المقتضب، فإنه يمكن للفكر الإسلاميّ أن يقدم ما يُعتبر حلولاً للمشكلات التي يصادفها الإنسان كما أنه في اعتقادنا يمتلك القدرة على توجيه الأنظار نحو ما يصلح للإنسان والمجتمع وما يُصلح الحياة بتفاصيلها.

و من هنا يمكننا التأكيد بأن الدور الذي يؤديه الفكر الإسلاميّ هو دور كبير إلى الدرجة التي يصبح معها حضوره في كل مرة تواجهنا فيه مشكلة أكثر من حاجة وأكثر من ضرورة.

من أجل ذلك وقبل تحديد الدور الأساسي والذي يمكن أن يقوم به الفكر الإسلاميّ في منع الفتنة المذهبية، يصبح لزاماً علينا الإشارة الى ما تظن أنه يمثل مكونات هذا الفكر أو المقومات الأساسية للفكر الإسلاميّ التي ينبغي إستحضارها في طريقتنا إلى معالجة المشكلة التي ذكرنا.

سادساً: بعض مكونات الفكر الإسلامي:

في هذا المجال، فإننا سنذكر بعض الأفكار أو المعتقدات الأساسية والتي تعتبر قواسم مشتركة بين المسلمين والتي من أهمها:

١ـ توحيد الخالق سبحانه وتعالى

هذا هو الأصل الأول من أصول العقيدة الإسلامية، فالله الذي نعبده والذي نتوجه إلى ه بالدعاء ونطلب منه الهداية ونرجو رحمته ونسأله المغفرة هو إله واحد،

هو الرحمن الرحيم الذي بيده ملكوت كل شيء وهو على كل شيء قدير: ﴿ **وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ** ﴾ [البقرة/١٦٣]، ﴿.... **فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ** ﴾ [الحج/٣٤]. فالمسلمون الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر هم إخوة بنص القرآن الكريم: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾ [الحجرات/١٠]. وكل المؤمن على المؤمن حرام: دمه وماله وعرضه.

٢ـ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم

القرآن كتاب الله تعالى، وحي الله وكلامه الذي جعله هدي للناس وبينات من الهدى والفرقان، هو دليلنا في جميع الظروف والمناسبات، وهو مرشدنا في طريقنا إلى الله تعالى، فمن جعله إمامه ومرجعه في كل قضاياه فلن يضل ولن يكون ممن يتبع الهوى تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبداً: كتاب الله وعترتي. وكذلك ﴿**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا**﴾ [الإسراء/٩].

٣ـ الإسلام هو الدين الذي رضيه الله لعباده.

هذا الدين الذي قال الله تعالى فيه: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ...**﴾ [المائدة/٣].

هذا الدين الذي ذكره الله سبحانه وتعالى، معتبراً إياه هو الدين دون سواه: ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [آل عمران/٨٥].

هذا الدين هو الذي يعلمنا كيف نفكر وكيف نتصرف وكيف نواجه الأمور بالطريقة التي تجعلنا أناساً جديرين برحمة الله تعالى وبقيادة مجتمعاتنا الإنسانيّة وجلب الخير لهذا الإنسان الذي يعني الكثير.

٤ـ النبي محمد ﷺ، الرحمة المهداة، هو الرسول القدوة

إنه النبي الذي قال الله سبحانه وتعالى واصفاً إياه: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنبياء/١٠٧]. وقال أيضا: ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى** ﴾ [النجم/٣ ـ ٤]. وقال في مكان آخر: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا** ﴾ [الأحزاب/٤٥ ـ ٤٦].

و قال ﷺ محدثاً عن رسالته: الدين المعاملة، وقال في مجال آخر: إنما بُعثت لأتَمِمَ مكارم الأخلاق. وقال ﷺ لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

و قال صلوات الله وتسلياته عليه: « المُسلمُ أخُو المُسلم لا يظلمُهُ ة لا يخذله وَلا يُحقرُهُ، التقوى هَا هُنا ويشير إلى صدره ثلاث مرّات، بحسب امرئ من الشّرّ أن يَحقرَ أخاهُ المسلم كلُّ المسلم على المسلم حرامٌ دَمَه ومالُهُ وعرضُهُ ».

هذا هنا باختصار نبي الرحمة الذي وصف نفسه بقوله: إنما أنا رحمة مهداة، الرسول القدوة الذي يتحتم علينا جميعاً استيعاب رسالته وفهم الدين والدعوة التي أُمرَ بتبليغها، والاهتداء بهديه والإقتداء بسيرته والتمسك بسنته. ولا أعتقد أن أحداً منا إذا ما فعل ذلك يمكن أن يوصف بغير صفة الإيمان أو أن يتهم أنه من أهل الضلال أو أنه يمكن أن يكون في غير مصلحة الإنسانيّة ووحدة الأمة والحرص على المجتمع واحتضان الإنسان صيانة حقوقه والحفاظ على كونه وُلدَ حراً وينبغي أن يبقى كذلك.

٥ـ وحدة الأمة المسلمة

هذه قضية القضايا، أو هي ينبغي كذلك. إذ أن الله سبحانه وتعالى حين تكلم عن الأمة المسلمة، وصفها بقوله: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...** ﴾ [آل عمران/١١٠]. ثم أكد وحدتها

بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء/٩٢]. وكذلك فعل النبي ﷺ حين تحدث عن جماعة المؤمنين فقال عنهم: مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى. في تأكيد منه لا يقبل الجدل أو التأويل، على وحدة الأمة. وحدة المسلمين ووحدة المؤمنين.

إنها مسألة جديرة بأن تستعيد مكانتها في فكر الأمة، في فكر المسلمين، في مشروعنا الذي نجاهر به، والذي يعرّف الآخرين برؤيتنا حول ما ينبغي أن يكون عليه المجتمع الذي نتحمل مسؤولية شرعية وأخلاقية وإنسانية حياله، أو حول ما ينبغي أن تكون عليه الأمة المسلمة أو حتى ما ينبغي أن تكون عليه الإنسانيّة بكاملها.

هل يمكن أن يكون بعد ذلك مجال للإجتهاد أو التردد أو الحيرة: المسلمون أمه واحدة وكفى.

٦ـ الإسلام دعوة عالمية.

هو كذلك مهما تقوّل المتقولون، ومهما ادّعى زوراً وبهتاناً بعض المبطلين. فالإسلام دين الإنسان، رسالة هداية ورحمة وإصلاح. يحتاجها الفرد كما يحتاجها المجتمع الإنساني، كما تتوق إلى ها الإنسانيّة في جميع العصور وجميع الظروف وجميع الأمكنة. إنه دليل الإنسانيّة في طريقها إلى العدل والمساواة، إلى الوحدة، إلى المحبة، الى الصلاح إلى الخلاص.....

فالأمة المسلمة التي هذه دعوتها والتي هذه رسالتها، هي أمة العدل والمساواة والوحدة والمحبة والمؤاخاة والصلاح. وأمة هذا هو شأنها لا يمكن إلا أن تكون في مقدمة الأمم تقود وترشد وتهدي، وإلا أن تكون مصدر كل خير ورعاية ومحبة.

إنما أردت أن يقتصر كلامي بخصوص مقومات الفكر الإسلاميّ على بعض الثوابت التي تُصنف في خانة الأفكار الأساسية التي ينبغي أن نذكرها عند الكلام عن الوحدة والشقاق، عن التعاون والتصارع، عن الأوضاع السوية والمستقرة والمواتية داخل المجتمعات الإسلامية أو عن الاضطرابات والقلاقل والفتن التي يمكن أن تضرب هذه المجتمعات فتدميها وتشكل أخطاراً حقيقية تتهدد الكيان والوجود والوحدة. ذلك أنه ومن دون ذكر مثل هذه الثوابت الأصول لن يكون بالإمكان التحدث عن دور للفكر الإسلاميّ في إشاعة الإستقرار داخل المجتمع والحض على التواصل والتضامن، ومنع الفتن بجميع ألوانها والتي منها ما بات يطلق عليه اسم الفتنة المذهبية وهي تعني بالمفهوم العصري، الإقتتال بين المسلمين، أهل السنة والجماعة، وبين المسلمين الشيعة.

لقد بات الحديث عن فتنة مذهبية في بلاد المسلمين شيئاً يعبر عن مخاوف وهواجس وعن حالة قلق مستمر تنتاب بعض المجتمعات الإسلامية التي تمتاز بشيء من التنوع المذهبي حيث ينشط البعض، ولغايات ماكرة ومريبة، بهدف ضرب وحدة هذه المجتمعات وتخريب السلم الأهلي فيها وجر البلاد إلى حروب أهلية ومدمرة. وهذا يؤدي بنا إلى طرح السؤال التالي: ما هو دور الفكر الإسلاميّ في منع الفتن المذهبية؟.

سابعاً: دور الفكر الإسلاميّ في منع الفتنة المذهبية:

مما يساعد على تطويق الخلافات ويحاصر الصراعات ويمنع الفتن بين المسلمين ويعين على تقريب وجهات النظر والتلاقي على درب المسؤوليات الملقاة على عاتقنا جميعاً بكوننا أمة الحق والخير والعدل والمساواة والصلاح... الأفكار أو الآراء التالية:

١ـ التشبث بالأصول

و هي أمور قادرة على جعل المسلمين أمة واحدة، يتعاونون على البر والتقوى

ويدعون إلى الخير، ويُخرجون الناس من الظلمات الى النور ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد....

هذه هي المهمة الأساسية التي أوكلت إلى الإنسان، الإنسان المؤمن الصالح الذي يتجه إلى الله سبحانه وتعالى وإلى اليوم الآخر على الطريق القويم الذي خطه الخالق سبحانه وتعالى وأوضح معالمه خاتم النبيين محمد بن عبد الله ﷺ.

فالالتزام بهذه الأصول الثوابت التي أوردت بعضها في الفقرات السابقة، هو حماية حقيقية للمجتمعات الإسلامية وتحصينها وضرب جميع محاولات إثارة الفتن بين أبنائها.

٢ـ الحرص على الإنسان

إننا كمسلمين، مطالبون بأن نجعل الإنسان الفرد موضع اهتمامنا، وصلاحه وحقوقه وحريته وكرامته ومكانته ورقيه وتطوير قدراته، أحد أهدافنا الأساسية، إذ أنه وكما قال رسول الله ﷺ مخاطباً صحابته: "لئن يهدي الله رجلاً واحداً خيرٌ لك مما طلعت عليه الشمس".

إن أمة هذه رسالتها لا يمكن أن تتخلى عن دعوتها وتغرق شعوبها وأبناءها في ظلمات الفتن استجابة لنداء الأهواء وسعياً لتحقيق مكاسب فئوية لا تمت الى المصلحة العامة بصلة.

٣ـ الحرص على المجتمع والعمل على إصلاحه

هذه هي رسالة الإسلام، وهذا ما عبر عنه جميع الأنبياء والرسل وجميع المصلحين: ﴿ **إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ** ﴾ [هود/٨٨].

إن الحرص على المجتمع المسلم أو المجتمع الإنساني، والعمل الجاد من أجل أن يكون مجتمعاً صالحاً مستقراً، يلبي حاجات الإنسان، مجتمع العدالة والحرية والمساواة، مجتمعاً قوياً منيعاً محصناً، هو من المهام التي أوكلها الله سبحانه وتعالى إلينا وأمرنا بطاعته والإقتداء برسله وأنبيائه، صلوات الله عليهم أجمعين.

إن المجتمعات الإسلامية المعاصرة تحتاج منا إلى جهود كبيرة وإلى عمل دؤوب من أجل إخراجها من حالات التخلف والجهل والضعف والفقر، ومن أجل إصلاحها وإنقاذها من ظلم الظالمين ومن جرائم المستبدين ومن ناهبي ثروات المجتمع المعتدين على حقوق الإنسان وحريته وكرامته، أو تحريرها من الاحتلال المباشر وغير المباشر، جعلها مجتمعات إسلامية حقيقية على منهاج النبوة حيث الحق والخير والإيمان والجهاد والمؤاخاة والتعاون والتضامن والوحدة.

مثل هذه المهمات العظام، هل تبقي مكاناً للصراعات والاقتتال والفتن؟!

٤ـ الاختلاف في الرؤى ووجهات النظر

إنها من الأمور التي ينبغي النظر على أنها أمور عادية ومشروعة، وهي مما يغني المجتمعات الإسلامية ويزودها بأفكار وآراء ومشاريع في مجالات الفقه والسياسة والقضايا المرتبطة بحياة الإنسان والمجتمع والعلاقات الإنسانيّة والدولية، ويساعدها على أن تكون من المجتمعات الإنسانيّة العلمية القابلة بمبدأ التطور وبمواكبة المتغيرات والاستفادة منها بالطريقة التي تعينها على إيجاد حلول ناجعة للمشكلات المستجدة والمتجددة على الدوام.

إن مثل هذه الاختلافات، ومهما بلغ عمقها، ينبغي أن لا تتحول عامل تحريض ومجال اتهامات متبادلة أو تصرفاً غرائزياً تمليه علينا النفوس الأمّارة

بالسوء، بحيث نقع في المحظور الذي يحرمه الإسلام ويحذرنا منه رسولنا الكريم الذي يدعونا إلى الاجتهاد ويحذرنا من العصبيات والتباغض والفتن.

٥ـ المذاهب الإسلامية

هي مذاهب موجودة، وهي، من المفترض أنها مما يدخل في مجال الاختلاف المشروع والاجتهاد الذي دُعينا إليه. فإذا كانت كذلك، يصبح من الواجب أن يكون هناك تواصل مستمر وحوار حقيقي وصولاً إلى تفاهمات حول المسائل الإعتقادية أو الفقهية أو السياسية وبالحد الأدنى الذي تسمح به القاعدة التالية: نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه.

إن الاختلاف فيما يرتبط بمسائل فقهية أو حتى اعتقادية، ليس من شأنه إثارة العصبيات وإشاعة أجواء الخلافات بين المسلمين. وأما الإختلاف السياسي فهو مما ينبغي أن يبقى في هذا الإطار من غير إعطائه لوناً عقائدياً يمزق الأمة ويقضي على وحدتها ويوقظ الفتن النائمة.

إن الشيء الذي يجب أن نعرفه ونتصرف على ضوئه هو أن طرفاً سياسياً، مهما بلغ حجمه، لا يمكن أن يختصر مذهباً من المذاهب أو أن يكون الممثل الوحيد لهذا المذهب أو ذاك. فالإدعاء بأن فرقاً سياسياً معيناً يعبر، من دون سواه عن أمة الإسلام، عن قضاياها ورسالتها ودعوتها وعقيدتها وشريعتها .... يبقي إدعاء باطلاً لا يصمد أمام حقيقة أن المسلمين، وعلى الرغم من اختلافاتهم المشروعة ومذاهبهم، هم أمة واحدة مطالبة بمعرفة الذات وبرعاية الشأن الإنساني وباجتراح الحلول لجميع المشكلات التي تقض مضاجع المجتمعات الإنسانيّة التي تعاني على الدوام مما يقترفه البعض من جرائم وأباطيل وظلم وضلال.

٦ـ تنمية التاريخ

وهي مهمة مرتبطة بصدقنا مع الله، استجابة لنداء الخالق سبحانه وتعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** ﴾ [التوبة/١١٩]. ومرتبطة أيضاً بحرصنا على هذه الأمة ووحدتها وعلى هذه الرسالة وصفائها، وبإيماننا بقدرة الله ومكانة النبي وعظمة الإسلام الذي هو أساس الحق والخير والعدل على هذه الأرض.

بعض المؤرخين القدماء قدموا معطيات تاريخية تتضمن الكثير من الغرابة والكثير الكثير مما يتعارض حكماً مع حقيقة الإسلام ومع حقيقة الإيمان الذي ملأ نفوس الصحابة المسلمين نسج حياتهم بطريقة خاصة جعلت منهم خير القرون وخير الناس وخير القادة وخير المجتمعات...

مثل هذه الأمور هي من الأساسيات التي ينبغي علينا جميعاً أخذها بعين الإعتبار عند التصدي لقضايا مرتبطة بوحدة المسلمين وبالأخطار المحدقة وبعوامل الفرقة والإنقسام.

إن بعض من كتب تاريخ الإسلام والمسلمين، كان ممن وضع نصب عينيه الإساءة إلى الدين والإساءة إلى التاريخ والطعن في صدق الأمة المسلمة ودورها ومقدرتها على قيادة الأمم وإرشادها إلى الحق والعدل والأخذ بيدها إلى الخلاص. وواجبنا نحن، أمام هذه الجريمة النكراء التي أدت إلى انقسام المسلمين وتفرق شعوب الأرض من حولهم، المبادرة إلى إظهار الحقائق وتحذير المسلمين من مغبة الانسياق خلف هذه الأكاذيب التي أوقدت نار الفتن وهي تجد من يتبناها ويروج لها في محاولة لإشعال فتن جديدة ومتنقلة داخل المجتمع الإسلاميّ أو ذاك.

٧ـ دور الآخر ينفي إشاعة الفرقة بين المسلمين

هذا مما ينبغي التنبه إلى ه عند الكلام عن بعض أحداث التاريخ أو عند التوقف باستغراب كبير عند الظروف المصطنعة التي أدت إلى ظهور فرق متناحرة ومتراشقة بأصناف التهم، بعضها أخرج نفسه بشكل أو آخر من دائرة الإسلام وبعضها الآخر ابتدع في الدين ما ليس منه وصنع لنفسه أفكاراً حكم على الآخرين من خلالها.... لأن مثل هذه الأحداث ومثل هذه الأشياء إنما حصلت برعاية واحتضان جهات تناصب الإسلام والمسلمين العداء، أسماهم الله سبحانه وتعالى بالمنافقين، وهم ينشطون في الليل والنهار في جميع الأوقات والظروف والمناسبات ليس لهم من غاية سوى العمل على إشاعة الفرقة بين المسلمين، بين أبناء المجتمع الواحد، وصناعة الأوهام لدى بعض من أولئك الذين لديهم القابلية لتصديق كل شيء، أو التلويح بالمغريات أمام بعض الطامعين الساعين بطريقة غير مشروعة من أجل الحصول على المال والسلطة. أو إثارة الأحقاد وسط من يظهرون رغبتهم في الانتقام وتصفية الحسابات.

وكلنا يرى ما يحصل اليوم من تهييج للأقليات داخل المجتمعات المسلمة في محاولة مكشوفة من الآخرين لإنتاج صراعات جديدة تمهد لسيطرة بعض القوى الدولية وإحتلالات مباشرة سريعة. مع اعترافنا، كما ذكرت سابقاً، بأن مجتمعاتنا الإسلامية هي مجتمعات مسيطر عليها وهي تشهد صنوف الظلم والقهر والاستبداد التي لا ينجو منها أحد أكان مسلماً، أكان سنياً أم شيعياً.

الأخطار كبيرة وكبيرة جداً، وواجبنا كمسلمين التصدي لمثل هذه المحاولات المكشوفة ومواجهتها بكل أشكال المواجهة والتي من أهمها وأفضلها وأكثرها إلحاماً المحافظة على وحدة الداخل وتحصين المجتمع عبر إجراء الإصلاحات

الشاملة التي تبدأ بالإصلاح السياسي والذي هو في نظرنا المدخل الذي لا بد منه، المدخل الطبيعي والضروري والحتمي إلى الإصلاح الذي ينبغي أن يشمل جميع شؤون المجتمع: القضائية والأمنية والإدارية والمالية والاقتصادية والتربوية والاجتماعية والصحية والعلمية والأخلاقية والسلوكية....

٨ـ الحركات والقوى الإسلامية

إنه، وحتى يكون لهذه الأفكار، للفكر الإسلاميّ تأثيره وفاعليته، لا بد من فئة مؤمنة تقوم بواجب الدعوة إلى الله تعالى، وبتبني جميع الأفكار المعبرة عن حقيقة الإسلام والمستمدة من مصادر الدين العظيم: القرآن الكريم والسنة المطهرة، وبواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبتلبية رغبة الشعوب المسلمة في الإصلاح ومواكبة تحفزها للإنقضاض على رموز الفساد والظلم والتخلف مثيري الفتن في المجتمعات الإسلامية: ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [آل عمران/١٠٤]. إن القوى الإسلامية، على اختلافها ينبغي أن تأخذ على عاتقها مهمة الإصلاح، حفاظاً على وحدة المجتمعات المسلمة ووحدة الأمة المسلمة، وحرصاً على أن يكون للإسلام الكلمة الفصل في كل شأن من شؤون حياتنا، ودرءاً لكل أشكال الفتن ما ظهر منها وما بطن، استجابة لأمر الله تعالى: ﴿ **وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾ [الأنفال/٢٥]. وحماية للمجتمعات المسلمة ووضع حد للاعتداءات التي تتعرض لها وإنهاء الاحتلالات المباشرة وغير المباشرة، وسعياً إلى الانفتاح على المجتمعات الإنسانيّة الأخرى التي هي بحاجة إلى الإسلام، كما نحن، بكونه الدين الحق الذي رضيه الله سبحانه وتعالى لعباده أجمعين.

هذه بعض الأفكار التي أراها مناسبة في هذا المجال، وهذا هو بعض الدور الذي يمكن للفكر الإسلاميّ القيام به منعاً للفتنة المذهبية ودرءاً للأخطار المحدقة بالأمة المسلمة، وصوناً لوحدة المسلمين، وتعزيزاً لأهمية الدعوة إلى الله وإتباع شريعته، وطمعاً برحمة الله تعالى وعفوه ومغفرته، وخوفاً من سخطه وعذابه: ﴿ **وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ** ﴾ [البقرة/٢٨١].

أساطين الحوزة ووحدة الأمة

الإمام: الحكيم، الخميني، محمد باقر الصدر، محمد صادق الصدر، السيستاني

❐ محمد جعفر النوري

الإمام الحكيم

لقد تجلت في مرجعية الإمام الحكيم ﷺ مفردات زاهرة للسعي التوحيدي للأمة، والذي كانت ترى فيه (وظيفتها الشرعية) ولا معدى لها عن القيام به؛ لأنّه تكليف من تكاليف الدين، وحكمة عملية من حكم العقلاء، وسياسة رشيدة من سياسات القادة الأفذاذ الذين يجدون في تأليف شمل الأمة ولم صفوفها سبيلهم المثلى إلى بلوغ الهدف الأسمى وهو عزة الأمة وسيادتها وشموخها.

من أهم تلك المفردات الكريمة التي لمعت في الجهود الوحدوية المناهضة للحساسيات الطائفية والمذهبية والعرقية ما يلي: ـ

١ـ فتواه المشهورة بحرمة القتال بين العرب والاكراد، حيث كأنَّ يرى في ذلك صراعاً ظالماً تحركه المصالح والمطامع الخبيثة التي تنساق وراءها السلطة الحاكمة، وتجعل الفصيلين المسلمين (العرب والاكراد) وقوداً لها، وضحية من ضحاياها، هذا على رغم أنَّ هذه الفتوى تمثل تحدياً سافراً لتوجهات السلطة وارادتها، وهي لا بد تستتبع حقدها وغيظها وتجليات سخطها وانفعالها لأخطر موقف تتخذه أقوى سلطة حقيقية في الشارع العراقي المسلم وهي سلطة المرجعية الدينية التي يتعبد هذا الشارع بقيادتها وتوجيهاتها ما دام يرى فيها مرجعية الأمة كلها بمنتهى الحرص على سلامتها وكرامتها ووحدتها... ومن الجدير بالذكر أنَّ الأخوة الاكراد يخلدون في قلوبهم هذا الموقف الوحدوي الرائع من المرجعية الواعية الرشيدة الحريصة على

أداء مسؤوليتها تجاه أمتها بكل جدارة واهتمام وتقيد ومراعاة للوظيفة الشرعية مهما كلف ذلك من أثمان وتبعات، ولا زالت هذه الفتوى جاذبة عميقة قديمة من جواذب الاكراد إلى حياض المرجعية التي لم يروا فيها إلا النبل والإيثار والموقف المشرف الذي يحرص على رد العادية عنهم، وأداء حكم الله في دفع الأذى عن ساحتهم.

ومما يجب ذكره في تفصيلات موقف الامام الحكيم من القضية الكردية، وفتواه ضد الحرب على الاكراد ـ أنَّ النظام العراقي في عهد عبد السلام عارف حاول أنَّ يجند الدين والفتوى ضد الاكراد، ليحرك العاطفة الدينية عاملاً قوياً في الحرب عليهم، فقام بعقد مؤتمر في العراق دعا إليه رجال الدين من داخل العراق وخارجه، حيث حضره رجال الدين السنة وعلى رأسهم شيخ الأزهر، وكانت نتيجة المؤتمر إصدار فتوى تدين الاكراد، وتصفهم بالبغاة الذين تجب محاربتهم حتى يفيئوا إلى أمر الله. وقد رفض الامام الحكيم ورجال الدين في الحوزة حضور هذا المؤتمر رغم الضغوط التي تعرضوا لها. ولم يكتف الامام الحكيم بهذا الموقف، بل قام بعقد مؤتمر مضاد لمؤتمر السلطة وذلك في صحن الامام الحسين في كربلاء، وكانت نتيجته اعلان حرمة محاربة الاكراد؛ لأنهم مسلمون، ويجب حل المشكلة معهم بالطرق السلمية. واخذ الامام الحكيم يفتي الجنود الذين يستفتونه عن موقفهم من الحرب ضد الاكراد بأنها أمر حرام. وحين جاء البعثيون إلى السلطة وواجهوا هذا الموقف الشرعي الصارم من الامام الحكيم ضد مقاتلة الاكراد قاموا باتهام ولده السيد مهدي الحكيم بالخيانة والتآمر في تعاونه مع البرزاني.

ومما يسجل للامام الحكيم في هذا المجال انه كأنَّ يرفض استقبال عبد السلام عارف وأخيه عبد الرحمن لمواقفهما الطائفية المدمرة لوحدة الأمة، ولحربهما على

الاكراد، والتي تسعى أنَّ تفصل جزءً من الشعب من جسده، وتصده عن تحمل مسؤولية المصير المشترك.

٢ـ فتوى الامام الحكيم بوجوب حماية الوجود الفلسطيني المسلم المقاوم، ومساندته ضد العدو الصهيوني الغاشم الذي استباح حرمات فلسطين وأهلها، وعاث في مسرى الرسول وأولى القبلتين فساداً، وشكل في جسد المسلمين ورماً خبيثاً يدمر بالتدريج سلامة كيانهم وبريق مجدهم في عزتهم وكرامتهم واستقلالهم.

وقد تجلى في هذه المواقف جهد المرجعية التوحيدي على مستوى الأمة قاطبة بمنأى عن النظر إلى الحدود المذهبية والجغرافية، وإذا كانت الفتوى السابقة في النقطة الأولى تعبر عن دأب تلك المرجعية في شد أواصر اللحمة الوطنية داخل الحدود الجغرافية لبلد واحد فأنَّ فتواها في الشأنَّ الفلسطيني مثال شامخ على شعور هذه الريادة الربانية بأنَّ وظيفتها وتكليفها هما فوق القيود والاعتبارات المصطنعة الزائفة، وأنها حريصة اشد الحرص على وحدة الأمة وتواشجها والتحام عراها على كل صعيد وبلا استثناء، وأنها لا تحدها حدود جغرافية، ولا تصدها عن ذلك الهدف المقدس حواجز مفتعلة، حاول من خلالها أعداء الأمة المتربصون الماكرون أنَّ يفرقوا بها شملها، ويقسموا كيانها، ويشتتوا صفها تحت عناوين مذهبية، وجغرافية، ولغوية، وعرقية. ولم يكن ليخطر في بال تلك المرجعية في مواقفها الباهرة على طريق الوحدة ـ أنَّ أكثرية الاكراد الذين وقفت إلى جانبهم هم على غير المذهب الذي تتعبد الله به، وأنَّ الفلسطينيين الذين دعت إلى نصرتهم وإعزازهم ومساندتهم على عدوهم هم كذلك على غير مسارها المذهبي، فقد نزعت هذه المرجعية من ضميرها الريادي الرشيد كل الاعتبارات والحساسيات التي تنغلق عليها القيادات الوضعية الزائفة.

وقد كان الموقف الفتوائي الشامخ للأمام الحكيم لإسناد القضية الفلسطينية على مرحلتين:

١ـ مرحلة إصدار فتوى بإسناد العمل الفدائي.

٢ـ مرحلة إصدار فتوى بصرف الزكاة والحقوق الشرعية في مجال دعم ذلك العمل الجهادي الكبير.

وقد كان مندوبو منظمة التحرير في العراق يراجعون الامام الحكيم في شؤونهم، وقامت أوساطه بحملة واسعة لجمع التبرعات لاسناد العمل الجهادي الفلسطيني.

وقد أثر موقف الامام الحكيم من العمل الفلسطيني على موقف مقلديه في جبل عامل في لبنان، الذين راحوا على خطى مرجعهم ووكيله آنذاك السيد موسى الصدر في لبنان يحتضنون العمل الفلسطيني بكل حب واحترام واسناد، حيث لم تكن تؤويهم في ذلك الوقت لا سوريا ولا لبنان.

٣ـ وفي نفس ذلك المنحى التوحيدي الواعي السديد المتعالي على صغائر الهموم وعلى الأثارات اللئيمة التي يحركها الاعداء كأنَّ طلب تلك المرجعية الرشيدة من الرئيس جمال عبد الناصر التراجع عن حكمه بإعدام المفكر الاسلامي سيد قطب ورفاقه الذين اتهمتهم حكومة مصر بالتآمر لقلب نظام الحكم بالقوة، ومحاولة اغتيال رئيسه، في قضية مدبرة ضد تيار الاخوان المسلمين وحركتهم الصاعدة التي أحس فيها المستعمرون وأذنابهم خطراً اسلامياً يهدد مصالحهم ونفوذهم ومشروعهم الاستكباري على ارض مصر.

وقد تناست هذه المرجعية وهي تتخذ موقفها الكريم ذاك ما أثاره بعض المتحجرين والمنغلقين وذوي النزعات الضيقة على تلك الشخصية الاسلامية

الكبيرة (سيد قطب) من إثارات مذهبية بادعاء انه على غير مذهب أهل البيت، وأنَّ له كلمات مسيئة لأهل البيت وشيعتهم في بعض كتبه.

لقد نسي الامام الحكيم او تناسى تلك الامور التي يراها ازاء الهجمة الاستكبارية الشاملة على الإسلام وأمته ورجالات الدين ورموزه، أموراً جزئية قد تحركها الاجتهادات العلمية، ووجهات النظر الثقافية، وهي قابلة للرد والنقاش والحوار الهادئ، ولا يجوز الالتفات اليها من قبل المرجعية التي تحمل على كاهلها عبء التصدي لريادة الأمة على مسار المواجهة الحامية في ميدان الدفاع عن حرمة الرسالة. ونسي الامام الحكيم كذلك ما يسببه موقفه في قضية سيد قطب ورفاقه، ورفضه لاعدامهم من الحساسية بينه وبين جمال عبد الناصر القائد العربي المعروف في حينه، وبينه وبين التيار القومي المناصر له في طول الوطن العربي وعرضه.

٤ـ موقفه بدعم النشاط السياسي السني في العراق، حيث قام بتأييد تأسيس الاخوة السنة لحزب سياسي إسلامي هو (الحزب الإسلامي)، الذي أسسه نعمان عبد الرزاق السامرائي الذي واجه عقبة الرفض من حكومة عبد الكريم قاسم التي سمحت بإنشاء الأحزاب السياسية لكنها تحفظت ومانعت من إيجاد الأحزاب الإسلامية بضغوط العلمانيين وتأثيراتهم.

وقد قام رئيس الحزب بزيارة الامام الحكيم للحصول على دعم معنوي وسياسي اثر أثره الكبير في اجبار المحكمة العليا على إصدار إجازة لتأسيس هذا الحزب. ولم يكن الامام الحكيم ليتحفظ ويتحسس من مجيئ حاكم سني في العراق ما دام يحكم بالعدل، وكانت كلمته المشهورة في هذا الصدد:

« اذا جاء حاكم سني عادل فأنا أكون إلى جانبه، وإذا جاء حاكم شيعي ظالم

فأنا أحاربه »[1].

٥ـ موقف الامام الحكيم من الغزو الاستعماري الانكليزي على العراق والذي تمثل في عدة أمور: ـ

أ ـ مشاركته الفعلية في صد العدوان البريطاني على جنوب العراق، وكان ذلك في العشرينات من عمره، تحت قيادة علماء الحوزة من قبيل السيد مهدي الحيدري ومحمد سعيد الحبوبي، وليس خافياً أنَّ هذا الموقف الخالد يعبر عن توجه توحيدي للأمة التي كأنَّ حكامها العثمانيون يمارسون بدوافع طائفية ومذهبية تحريك التيار السني ضد الشيعة، لعزلهم وحرمانهم من حقوقهم السياسية والمدنية وعلى كل الأصعدة، ولم يكن علماء الحوزة بمن فيهم الامام الحكيم يعيرون اهتماما لموقف العثمانيين القاسي ضد مسارهم (خط أهل البيت) وضد حوزتهم، ولا يحفلون بكون الوجود البريطاني على العراق هو لضرب الدولة العثمانية التي كانت تخوض الحرب ضد البريطانيين، ولم يكن نصب أعينهم إلا قضية الدفاع عن الإسلام في إطاره العام، ووحدة الأمة، وحرمة التراب الوطني، ولم يكونوا يعانون من عقدة التخندق الطائفي والنزعة المذهبية التي تعاني منها السلطة الحاكمة آنذاك (الدولة العثمانية السنية المتطرفة ضدهم).

ب ـ رفضه التعاطي مع الحكومة التي أنشأها الانكليز في العراق، والتي كانت تبعد الإسلاميين وتأتي بمن تسميهم الوطنيين.

ج ـ أمره الناس بعدم استلام الأموال التي كانت تقدمها الحكومة البريطانية في العراق لدعم مجالس العزاء وبعض المؤسسات الدينية لكسب عاطفة الشارع الشيعي، وتغيير ملامح الصورة القبيحة التي كانت مطبوعة في ذهن هذا الشارع ضد الاحتلال البريطاني والحكومة التي أوجدها.

٦ـ موقفه الداعم للمسلمين الكشميريين الذين يخوضون الحرب ضد جيش الاحتلال الهندي الذي قام بالاستيلاء على أرضهم كشمير وضمها إلى الهند، وقد تجلى إسناده لهم في ضغطه السياسي المباشر على الحكومة الهندية، وعن طريق سفارتها في العراق، وتجلى كذلك في دعمه المعنوي لهم عن طريق مقلديه في منطقة شبه القارة الهندية، حيث كان هو المرجع الثاني هناك بعد السيد البروجردي.

الامام الخميني

كان الامام الخميني مشروعاً إسلاميا معجزاً اقتحم أسوار المحظور، منتفضاً من تحت دثار القرون والحجر والفيتو الإستكباري الصارم على الحالة الإسلامية، وقد كانت معالم هذا المشروع تتمثل في:

١ـ إعلان الثورة الإسلامية الساعية إلى بناء الدولة التي تقوم على أساس القرآن.

٢ـ إعلان الوحدة الاسلامية لقيام الجبهة الايمانية التي تضم شعوب الاسلام قاطبة.

٣ـ إعلان الوحدة العالمية بين مستضعفي الأرض، والتي ينجم عنها تحالف الأمم المستضعفة ضد الطغاة والمستكبرين.

وقد كانت قضية الوحدة الاسلامية على رأس أولوياته، متزامنة مع أولوية الثورة الاسلامية، لأنَّ الوحدة في داخل الشارع الايراني المسلم وفي التيار الشعبي المسلم في شتى أقطار العالم الاسلامي هي الوقود المادي والمعنوي الذي يزود هذه الثورة بالطاقة اللازمة للحركة وديمومة المقاومة، وقد تمثلت الأمور والمواقف التي بادر إليها الإمام الخميني (رضوان الله عليه) لإيجاد هذه الوحدة، وتمكينها من تحقيق الهدف المنشود من وجودها في محاور كثيرة منها:

١ـ دعواته الكثيرة المفعمة بالصدق والاشفاق واللوعة والتطلع لعودة الأمة المسلمة إلى سابق عهدها مع وحدتها والفتها، لتعود اليها عزتها وكرامتها وشوكتها

ومجدها المذال.

٢ـ نداءاته الهائلة إلى أمة الاسلام لنبذ الصراعات المذهبية والطائفية التي يحركها أعداء الأمة، والتمسك بعروة الله الوثقى وهي عروة الإسلام الأصيل الذي يجمع ولا يفرق، ويلم شمل الأمة في اطاره الجامع الذي وجدت فيه منتهى كرامتها وشموخها وسعادتها.

٣ـ دعواته الوافرة لحكام العرب والمسلمين أن يكونوا مع شعوبهم يداً بيد على طريق الوحدة الاسلامية، واقامة مشروع الحلف الاسلامي الذي يتصدى لحلف الكفر العالمي وجبهة الباطل التي يقودها الشيطان الاكبر، وسنقرأ معاً في آخر هذا الفصل مجموعة من هذه الدعوات.

٤ـ النداءات على الاصعدة الثلاثة، وسنرى فيها ذلك القلب السليم الطافح بالألم لما تعانيه أمة القرآن من بلية الاختلاف ومحنة الشتات.

٥ـ اعطاؤه الأولوية القصوى لشأنَّ الوحدة الاسلامية في المشاريع السياسية والاقتصادية والاعلامية والثقافية لانجاز مشروع الوئام الاسلامي، وفي منع أي مظهر من المظاهر التي لا تساعد على بلوغ هذا الهدف الكبير.

٦- تبنيه القضايا الاسلامية المصيرية الكبرى مثل قضيّة فلسطين التي تهم المسلمين جميعاً بلا استثناء، وقيامه بدعمها بمنتهى صور الدعم التي لم توفرها لها أية جهة أخرى، مع أنَّ الطيف العام في ارض فلسطين وفي المقاومة الفلسطينية هو طيف لا ينضوي مذهبياً تحت لواء المذهب الذي ينتمي اليه قائد الثورة الراحل.

٧- دعمه لكل قوى التحرر الاسلامي في أقطار العالم الإسلامي وفي كل العالم، وهي في الأعم الأغلب لا يجمعها برائد الثورة الإسلامية إلا مشترك الإسلام، حيث لا عبرة عنده بالأطر المذهبية الضيقة التي يريد لها المتحجرون من أهلها أن

تكون موائز بين المسلمين.

٨- دعوته الاكيدة إلى إقامة مشروع الجيش الإسلامي الواحد الذي يضم عشرات الملايين من ابناء الامة، لأنَّ مثل هذا الجحفل الجرار من الطاقات الاسلامية هو الكفيل بصد العدوان على بلاد المسلمين، وتحرير أوصالها المغتصبة، وإعادة شخصيتها واستقلالها وعزتها، وجعلها مهابة، مكرمة، يخشاها الطامعون، ويحسبون لها ألف حساب قبل أن يفكروا بإلحاق الأذى بها.

٩- اعلان يوم الجمعة الاخير من شهر رمضان يوماً رسمياً عالمياً للتضامن الاسلامي مع بيت المقدس الشريف المغتصب، وجعل هذا اليوم محوراً للألفة الاسلامية، واتحاد الايادي المسلمة التي ترتفع هاتفة في المظاهرات الحاشدة بالموت لاسرائيل، وبعودة القدس السليبة إلى اهلها الشرعيين وهم المسلمون.

١٠ـ اقامته مشروع البراءة من المشركين في موسم الحج، والذي اعتبره فرضاً واجباً يؤدي فيه المسلمون الايرانيون بمشاركة اخوانهم في البلاد الاسلامية ـ وظيفة المسيرة الموحدة في مكة المكرمة لاعلان البراءة من المشركين والمستكبرين، والرفض المطلق لهيمنتهم على مقدرات المسلمين، والتأكيد على الوحدة الاسلامية من خلال الشعارات الوحدوية وأبرزها الشعار المعروف (يا ايها المسلمون، اتحدوا، اتحدوا).

١١ـ ترتيب مشروع أسبوع الوحدة من الثاني عشر إلى السابع عشر من ربيع الاول أي بين التاريخين المعروفين لدى المسلمين لولادة النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، ويتم في هذا الاسبوع دعوة علماء المسلمين وشخصياتهم لحضور مؤتمر الوحدة الذي تنصب اهتمامات المشاركين فيه على قضية الوحدة الاسلامية ـ معالمها ـ آفاقها ـ موجبات رشدها ـ آفاتها وموانعها ـ عوامل نجاحها وتحققها.

١٢- فتواه الصارمة لحجاج بيت الله من المسلمين الايرانيين وغيرهم من الشيعة بوجوب حضور صلاة الجماعة والجمعة التي تقام في الحرمين، والاقتداء بأئمتها وهم من اهل السنة طبعاً، كما ألزم المسلمين الايرانيين وشيعة العالم الاسلامي الحاضرين في الحج أنَّ يؤدوا مناسكهم في الموقفين حسب توقيت القضاة الشرعيين في السعودية من خلال تحديدهم لرؤية هلال ذي الحجة.

باقات وحدوية من كلام الامام الراحل

لو كأنَّ حكام البلاد الاسلامية اسلاميين ويقيمون حكم الله لما اوقعوا شعوبهم وبلدانهم في هذه الصراعات والحساسيات والذلة التي تكابدها امام عصابة صهيونية خائبة في فلسطين[٢].

انما سعينا لاقامة الحكومة الاسلامية من اجل ايجاد الوحدة الاسلامية، واخراج الاسلام من تحت نفوذ المستعمرين وعملائهم.

يجب على المسلمين قبل أي شيء أنَّ يتحلوا بالوعي الكامل لاوضاعهم وظروفهم وما يحيط بهم، وأنَّ يجعلوا مصلحة الاسلام والأمة نصب اعينهم، فيبادروا إلى توحيد كلمتهم وجمع صفوفهم.

لقد كأنَّ نبي الاسلام يسعى إلى ايجاد وحدة الكلمة في كل المعمورة تحت لواء التوحيد، وقد استطاع أنَّ يحقق ذلك في ربعها، وحالت بينه وبينها، وبين بلوغ هدفه النهائي حوائل القوى المعادية.

إنَّ شعب ايران لا يرى نفسه منفصلا عن شعب العراق، وقد كأنَّ على الدوام في رأس قائمة الدفاع عن هذا الشعب في محنه ومشكلاته، ولا ينسى هذا الشعب مواقف السيد اليزدي والميرزا الشيرازي في التصدي للعدوان على حريمه ومقدساته، وبغض النظر عن الاعتبارات السياسية قام الشعب الايراني بتقديم

الدعم الاقتصادي اللازم لشعب العراق المظلوم لأنَّ المسلمين يجب أنَّ يكونوا يداً واحدة ليمكنهم أنَّ يقطعوا ايادي المستعمرين التي تريد أنَّ تعبث في مقدراتهم وخيراتهم .

يجب اليوم على كافة المسلمين وعلى الحكومات الاسلامية والعربية بالخصوص تقديم الدعم المطلوب للفدائيين المجاهدين في فلسطين ، ليستطيعوا أنَّ يواصلوا مسيرتهم النضالية على طريق تحقق الهدف المنشود بالتوكل على الله ، ولالتزام بتعاليم القرآن ، ليحرروا فلسطين ، ويعيدوا المجد الاسلامي وشرف المسلمين ، ويجب على المسلمين في هذا الاتجاه أنَّ يوحدوا كلمتهم ، ويجمعوا صفوفهم ، ويتخلصوا من دواعي الاختلاف وأسباب التفتت الداخلي المدمر .

ندائي للأخوة العرب والمسلمين جميعاً هو (تعالوا وضعوا يداً بيد ، واتركوا اختلافاتكم جانباً ، واجعلوا سندكم ومحوركم هو الإسلام ، لتكونوا بما لديكم من القدرة المعنوية للإسلام ، ومن الإمكانات المادية التي لا تحصى ـ قوة مهابة لا يفكر أعداؤكم معها بالتسلط عليكم أو نهب ثرواتكم) .

يجب علينا جميعاً أنَّ ننهى عن الضغينة ، وأنَّ نجعل شعارنا الوحدة الإسلامية ، فإننا بها تحت لواء لا اله إلا الله سوف ننال النصر المؤزر ، ونكون قدرة فوق كل القدرات .

المشكلة الأساسية للمسلمين هي بعدهم عن الإسلام ، وعدم التزامهم بأمر الله سبحانه : (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) ، ولو أنهم استجابوا لما في هذه الآية من الأمر والنهي لاستطاعوا رفع كل معضلاتهم .

يا مسلمي العالم ، وأتباع راية التوحيد ، أنَّ سر كل المكابدات التي تعاني منها الدول الإسلامية هو اختلاف الكلمة ، وعدم التعاون ، وهما مدعاة عدم

الانتصار . ما الذي جرى لكم وأنتم الذين دحرتم بالقوة القليلة في صدر الإسلام تلك القوى العظمى ، وأوجدتم أمة إسلامية إنسانية كبرى ؟ . انهضوا ووحدوا كلمتكم ، وارفعوا القران بأيديكم ، واعملوا بأمر الله لتعيدوا اللحمة بين القلوب التي يجب أنَّ تتوحد وأنَّ بقيت الحدود على حالها .

إنَّ جعل المسلمين يوم القدس العالمي محوراً للوحدة والظهور فيه جميعاً بهتاف واحد ، (الموت لأمريكا الموت لإسرائيل) سيكون بمثابة موت لهؤلاء الذين لم يزل همهم أنْ يزرعوا فتنة الاختلاف بين المسلمين ، ويفرقوا كلمتهم ، ليتسلطوا عليهم ، وينهبوا ثرواتهم .

اليوم هو يوم الإخاء الإسلامي والمسلمون هم أخوة ويد واحدة على من سواهم ، ولا تضرهم الدسائس التي تحاك لهم لتفريقهم ، وجعلهم فئات متناحرة تحت مسميات شيعة وسنة ، وجعل الشيعة تتصارع من داخلها أيضاً ، وهكذا الأمر بالنسبة للسنة .

دعائي الخالص إلى الله سبحانه وتعالى أنَّ يعي المسلمون أمورهم ، وأنْ يتحركوا باتجاه تحقيق المقاصد الإسلامية ، وأنْ يقطعوا الأيدي التي تثير الخلافات بينهم ، وأنَّ يكونوا مثل اسنان المشط ، وهذا ما أراده الإسلام لهم ، دون أنَّ يكون هناك أي أثر للون أو العرق في إيجاد الفواصل والموائز بينهم .

أليس عارا على مسلمي العالم أنَّ يخضعوا للطغاة من المستكبرين وقطاع الطريق ، وهم يمتلكون هذه الإمكانات الهائلة من البشر والثروات والقدرة المعنوية ؟ ! .

ألم يحن الوقت لهم للتخلص من الأهواء والرغبات النفسية ، ويمد بعضهم إلى بعض يد المحبة والأخوة ليتخلصوا من أطواق الذل والهوان والتبعية ، ليكون لديهم

جواب مقبول أمام الله الذي دعاهم إلى الاعتصام بحبله، ونهاهم عن الاختلاف والتدابر؟.

لقد انصبت جهود الشياطين من أعداء الأمة على فصل جناحي (السنة والشيعة) عن بعضهما، وجعل هذه الطائفة تكفر تلك، وجعل كل واحدة منهما مجموعة من الفئات المتصارعة. لقد مزقوا كيان الأمة بهذه الأحزاب المصطنعة، وادخلوا علينا قضية القومية بواسطة من يسمونهم بالمتنورين والمثقفين، فرفعوا شعارات الأمة العربية، والأمة الفارسية، والأمة التركية، لتكون حربة في خاصرة الشعار الإسلامي.

إنَّ من أهم المسائل السياسية في القران دعوته للوحدة، ونهيه عن التفرق، وهما أصلان سياسيان مهمّان في الإسلام. وهناك أصل مهم آخر وهو عدم الخضوع للكفار، والبقاء تحت نفوذهم وسلطتهم، ولكننا نلاحظ مع الأسف أنَّ المسلمين وهم أتباع القران قد تحولوا إلى فئتين: فئة كبرى هي الشعوب، وفئة صغيرة وهي الأيادي الحاكمة التي لم تتحد فيما بينها لتتحد شعوبها على أثرها.

أملي من الله سبحانه أنْ يوفق المسلمين لليقظة والوعي والالتفات إلى ما يحيط بهم من المكائد، وأنْ يدركوا أنهم لو لم يقفوا في وجه أمريكا وأذنابها، ولو أعطوهم الفرصة لاستباحوا كرامة المسلمين وثرواتهم، فإنَّ آمال أمريكا وطموحاتها ليست محدودة، وهي تريد بسط نفوذها على كل العالم، مع أنَّ اليوم هو يوم أنَّ يتحد المسلمون جميعاً، ويوجهوا الضربة القاصمة إلى أمريكا، وهو قادرون على ذلك بوحدتهم وطاقاتهم وثرواتهم التي ترى فيها أمريكا شريان حياتها.

إنَّ شعار لا اله إلا الله هو محور وحدة المسلمين وسر عزتهم وانتصارهم، وإذا لم يجتمعوا تحت لوائه، ويتكاتفوا متعاضدين في رحاب الإخوّة الإسلامية لا

يستطيعون أنْ يقفوا في وجه القوى المعادية لهم.

إذا تحققت الوحدة الإسلامية بين حكومات الدول الإسلامية وشعوبها استطاعت هذه الحكومات وبإسناد الشعوب أنْ تشكّل جيشاً دفاعياً مكوّناً من عشرات الملايين من الطاقات المسلحة تحت لواء الإسلام، ليكونوا بذلك أكبر قوّة في العالم، ولينعموا بالخلاص من الذل والخضوع أمام القدرات المستكبرة، ويتذوقوا طعم الحرية والاستقلال.

إنَّ وحدة المسلمين هي الشرط الأساس لأداء مناسك الحج، وعليهم أنْ ينبذوا كل الاعتبارات والعناوين الزائفة المفرقة: اللون، الجنس، اللغة، القبيلة، الطائفة، الحدود، والعصبيات الجاهلية، وأنَّ تتصافح أيديهم بحرارة المحبة، ويطلقوها صيحة واحدة بالبراءة من الظالمين والطغاة.

إنَّ البلية الأخطر من بلية القومية على أمتنا هي فتنة الخلاف بين السنة والشيعة، والتي تثيرها أمريكا والصهيونية وأذنابها من المنافقين ووعاظ السلاطين، لتفريق وحدة المسلمين، والقضاء على السنة والشيعة معا، وأنَّ الذين يثيرون هذه الفتنة من داخلنا ليسوا سنة ولا شيعة، وليس لهم شأن بالإسلام، وإلّا كيف يبادر مسلم إلى افتعال فتنة الاختلاف وهو يعلم أنَّ عزّنا ونصرنا في أيام مجدنا هو في وحدتنا التي وجد المستكبرون فيها سر هزيمتهم أمامنا، وسعوا بكل جهدهم إلى تحطيمها وشل فاعليتها ودورها، لذلك يجب على الجميع أنْ لا يصغوا لأي نداء من الخارج لضرب الإسلام.

يجب على الإيرانيين وشيعة الدول الأخرى أنَّ يحترزوا من التأثر بأفعال الحمقى التي توجب تفريق صفوف المسلمين، وأنْ يحضروا في صلاة الجماعة التي يقيمها أهل السنة في موسم الحج، وأنْ لا يقيموا صلاة جماعة خاصة بهم في أماكن

إقامتهم. وأنْ يقوموا بمتابعة قضاة أهل السنة في توقيت المناسك حتى مع القطع بأنَّ الواقع في خلافهم، وأنْ يتجنبوا القيام بالأعمال التي تضر عيد الوحدة، واجتماع الكلمة.

نحن أبناء أمة واحدة هي أمة الإسلام، ونريد خدمته وإعزازه، وأنَّ العناوين المفرقة مثل سنة، وشيعة، وحنبلية، وشافعية، وأخبارية ـ هي أمور غير صحيحة من الأساس، ولا ينبغي أنْ يتم تداولها، وأنَّ الاختلاف الفتوائي بين اجتهادات هذه المذاهب ليس مبرراً لاختلافها الذي ليس في مصلحة أي واحد منها، بل هو في مصلحة عدوها الذي يريد أنْ يقضي عليها جميعاً، يجب أنَّ نبقى أمة القران والتوحيد، وأنْ تنصبَّ جهودنا على عزتها وبسط لوائها.

الإمام الشهيد الصدر

الحديث عن الشهيد العظيم الإمام السيد محمد باقر الصدر ﷺ ومتبنياته في الوحدة الاسلامية هو حديث طويل ذو شجون؛ لأنه حديث عن ذلك القلب الذي تمحض عشقاً وشوقاً وذوباناً في عقيدته وأمته، وعن ذلك الوجود الإنساني الشامخ الذي نذر نفسه للمكرمات التي كأنَّ على رأسها الحرص الفذ على سلامة الأمة، وكرامتها، ووحدتها، وعزتها في الفتها، وخلاصها من أسر طغاتها، ونجاتها من براثن جلاديها. ويمكن أنْ نجمل مواقف الشهيد الصدر قدس سره في هذا المجال في النقاط التالية: ـ

١ـ لقد عايش ﷺ هم الأمة في مشاكلها مع الانحراف، وفي تمزقها، ومكابداتها مع الظالمين بسبب اختلافها وصراعاتها المفتعلة التي أثارتها في أوساطها مكائد المستكبرين وأذنابهم، ومن هنا بادر إلى إيجاد تنظيم منفتح، مستوعب، بعيد عن العقد الطائفية والمذهبية والحساسيات الضيقة، حتى اتهمه أعداؤه لذلك بأنّه ذو ميول سنية، وينزع من منزع الأخوان المسلمين. وقد كتب له مبادئه والخطوط العامة لسياسته وبرنامجه، والتي كانت حافلة بالتركيز على وحدة الأمة، وتلاحمها، واتحاد فصائلها، وخير شاهد على ذلك بحثه القيم العميق بعنوان (رسالتنا قاعدة للوحدة)، والذي جاء فيه: « الوحدة في كل ما يجب أنَّ تكون فيه شعار من شعارات الإسلام الكبرى التي لا يفتأ الإسلام يدعو إليها، والى تحقيقها في الواقع

المعاش، لتكون لهم القوة، والمنعة، والغلبة حين يلتحمون مع عدوهم في صراع».

وهذه الوحدة التي دعا الإسلام أتباعه إلى تحقيقها تتميز في أصولها وفي مظاهرها عن الوحدة التي تبشر بها الرأسمالية الغربية والاشتراكية الماركسية.

ففي المجتمعات الرأسمالية تجد المجتمع موحداً في الظاهر ولكن الوحدة فيه تقوم على وحدة المصالح الشخصية والحزبية أو الطبقية، فإذا حدث ما يهدد مصلحة من هذه المصالح حدث الانشقاق والتصدع، وتبين أنَّ الوحدة الظاهرة كانت سرابا خادعا. واظهر مثل على هذا (فرنسا) التي تصدعت وحدتها في أخطر ساعة من ساعات وجودها، وكانت النهاية هي إنهيارها أمام الغزو الألماني في ساعات.

وفي المجتمعات التي تدين بالماركسية ومن قبلها المجتمعات النازية والفاشية نجد المجتمع موحداً في الظاهر أيضا، ولكنها وحدة مفروضة من خارج، وحدة تقوم على إنكار كل قيمة حقيقية للفرد الإنساني ولما له من مجال خاص يجب أنْ ينمو فيه نمواً حراً يتيح لكافة قواه أنَّ تبدع وتزدهر، وحدة تقوم على القسر ولا تقوم على الطواعية والاختيار، وحدة يفرضها إرغام الدولة ولا يبعث إليها الشعور النابع من العقل والقلب، ومن ثم فمصير وحدة كهذه إلى زوال عند أول فرصة تلوح للأفراد الذين يتوقون إلى تحقيق ذواتهم، وكل وحدة لا تنشأ من داخل، وحدة مزيفة لا تلبث أنْ تزول؛ لأنها لا واقع لها في نفوس الأفراد. إنَّ الوحدة الصحيحة هي المعبرة عن حاجة نفسية عميقة توشج بين الأفراد برباط من الحب والمودة والألفة، ولا شيء كالدين يمكن أنَّ يبعث على وحدة من هذا القبيل، والوحدة القائمة على الدين هي الوحدة النابعة من القلب، الثابتة الراسخة مهما تنوعت مصالح الأفراد والأحزاب والطبقات، لأنها وحدة تقوم على أصل ثابت

عند الجميع، مشترك بين الجميع.

وهذه هي الوحدة التي دعا الله تعالى عباده المتقين إلى تحقيقها، هي ليست وحدة المصالح، وليست وحدة الإرغام، وإنما هي وحدة تنبع من القلوب المؤمنة بالله.

إنَّ الوحدة التي دعا إليها الإسلام هي الوحدة المسايرة لواقع الكائن الإنساني، إنها الوحدة التي تترك للفرد مجاله وشخصيته، وتهيئ له جميع وسائل النمو والابداع والتفتح، وتوازن بين طاقاته فلا تغلب فيه طاقة على طاقة ولا استعداد على استعداد. والإسلام يساير الواقع فلا يدعو المسلمين إلى الوحدة، ثم يترك في صميم الكيان الاجتماعي العناصر التي تهددها، إنّه يعنى بما يوفر لهذه الوحدة الثبات والديمومة، وينظم مصالح الأفراد والطبقات والمصالح العامة، ويوفر لها الانسجام فلا تتصادم فتؤدي بالمجتمع إلى التصدع والإنحلال.

إنه يعنى بكل ذلك، ويهيئ له الحلول العادلة الصحيحة، ثم يدعو إلى الوحدة، وهذه الوحدة النابعة من القلوب ليست مظهرا للمسلمين وحدهم وإنما هي مظهر لكل المؤمنين المصدقين برسالات السماء.

وقد تحققت هذه الوحدة بين المسلمين في أروع مظاهرها على عهد رسول الله ﷺ ما وسعهم، وبها تحققت للمسلمين الغلبة على أعدائهم الكثر. وقد كأن أعداؤهم على خلافهم في ذلك، كانوا متفرقي النفوس، موزعي القلوب، كل نفس لها غاية، وكل قلب له هوى، ومن هنا هوّن الله من شأن اليهود ـ أعداء الاسلام التقليديين ـ حين كشف عن ضعفهم الناشئ عن تفرقهم بقوله تعالى:

﴿ **بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى** ﴾ [الحشر/١٤].

أما المسلمون فكانوا كما قال تعالى:

﴿ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ ﴾.

مرصوص في مظهره، ومرصوص في معناه، توحده وتلاحم بين أجزائه النظرة الواحدة إلى الكون والحياة والانسان، والفكرة الواحدة عن الوسائل والأهداف.

ولكن واقع المسلمين الزاهر الباهر تغير حين تغير المسلمون، وبعدوا عن الاسلام، وتوزعت قلوبهم وعقولهم دعوات أخرى غير الاسلام، واستأثرت بنشاطهم غيرُ أهداف الاسلام. ﴿ أَنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرعد/١١].

واليوم يواجه الوجود الاسلامي في العالم واقعاً كالحاً، واقع الاستعمار والصليبية الحاقدة والنزعات المادية الالحادية، يواجههم وهم متفرقون، متفرقون على كل صعيد.

الدعوات الضالة المضلة تتوزع ناشئتهم، وتبعدها عن الاسلام. والأفكار والتصورات الوثنية تقيم الحواجز الفكرية والعاطفية فيما بينهم، فقد أفلح الاستعمار في أن يقيم الحياة المعاصرة في كثير من المجتمعات الاسلامية على أصول فكرية وعاطفية ترجع إلى عهد سابق على إسلام هذه المجتمعات. وبذلك حال بين هذه المجتمعات وبين أن تلتقي على الاسلام، وفتت وحدة المسلمين حين صرف قلوبهم وعقولهم عن أهداف الاسلام.

واليوم وهذه حالة المسلمين في تفرقهم وتشتتهم وتوزع عقولهم وقلوبهم، تقوم في قلب العالم الاسلامي في فلسطين جماعات من الناس لا يجمع بينها وطن، ولا لغة، ولا ثقافة، ولا عادات، ولا تقاليد، شراذم تجمعت من قارات الدنيا كلها، تريد أنَّ تبني لنفسها وجوداً مستقلاً، كيانا متميزاً يقوم على وحدة الدين ولا شيء غير الدين. ولذلك فهي تطبع كل مظهر من مظاهر وجودها بهذا الدين لتبرز هذا العنصر المشترك بينها، وتقيم وجودها عليه.

هؤلاء هم اليهود، وهم ماضون في تجربتهم هذه، مصرون عليها.

هذه التجربة التي يقوم بها يهود اليوم تحت سمع المسلمين وبصرهم وفي بلد من بلاد المسلمين اغتصبوه وأعانهم على ذلك أعداء الاسلام والمسلمين، هذه التجربة تضع المسلمين وجهاً لوجه أمام قضية وجودهم كمسلمين، ومصيرهم كمسلمين. إنهم إذا لم يركزوا وجودهم المعاصر على الاسلام، ولم يستلهموه حلاًّ لمشاكلهم، ولم يتبعوا مبادئه في حياتهم وعلاقاتهم مع بعضهم ومع غير المسلمين، فسيبقون لقمة سائغة لكل طامع، وهدفا سهل المنال لكل مستعمر غاشم.

فعلى المسلمين أنَّ يعوا أنَّ خلاصهم الوحيد بالاسلام»[٣].

وقد أعلن رضوان الله عليه أفكاره الريادية الجامعة في بياناته الصوتية التي ودع فيها الدنيا، تاركاً رسالته القيادية الوحدوية أمانة في أعناق المتصدين الصادقين مع ربهم وقضيتهم ووحدة أمتهم.

٢ـ لقد كأن مساره الفكري والسياسي مساراً توحيدياً خالصاً لم تشبه شائبة من توجهات مذهبية أو طائفية أو فئوية إطلاقاً... تلك هي تجربة حياته الزكية على صعيديها الفكري والسياسي لم تكن إلا عبارة عن تجرد مطلق عن تلك التوجهات، وذوبان كامل في الجهود التوحيدية الصادقة التي كلفته ضريبة التهم من قبل بعض الحمقى من أبناء مذهبه أو حوزته الذين أخذوا عليه انه لم يذكر الخلفاء بسوء، وانه لم يضع حاجزاً نفسياً بينه وبين العلماء والكتاب والمفكرين المتسننين، ولا عن ثقافتهم، ولا التواصل معهم ولقائهم ومحاورتهم، ولم تتضمن كتبه الشامخة أية إثارات مذهبية أو شتائم للغير كما يريد له المتحجرون والمنغلقون الذين اتهموه بالالتقاطية، وأدانوه حتى على صغائر الأمور مثل إعجابه بتفسير (في ظلال القرآن)، وارشاده من يسأله عن كتاب نافع في التفسير إلى ذلك الكتاب، ودلالته

من يستعلمه عن كتاب مفيد في قصص الانبياء إلى كتاب (قصص الانبياء) لعبد الوهاب النجار، مع أنَّ اهل العلم والبصيرة والوعي يدركون ما في هذين الكتابين مما يستدعي الشهيد الصدر مطالعتها، وارشاد من يبتغون الافادة اليهما، وهما طبعاً كتابان لشخصيتين لا تنتميان إلى مذهبه.

٣ـ إنَّ الحجة الفاصلة في حقيقة الموقف الوحدوي عند شهيدنا الكبير هي بياناته الأخيرة التي لفظ فيها أنفاسه الكريمة في احتجازه اليتيم في بيته إلا بقية أتت عليها مقصلة الطغاة المجرمين. ونورد منها هنا بيانه الثالث الذي يتضمن بديعة الابداعات في مواقف الصدر التوحيدية التي سجلها في تاريخ المكارم القيادية التي تلتمع أوسمة للمجد ونياشين للفخار على صدور القادة الافذاذ الخالدين.

« يا شعبي العراق العزيز!

أيها الشعب العظيم!

إني اخاطبك في هذه اللحظة العصيبة من محنتك وحياتك الجهادية، بكل فئاتك وطوائفك: بعربك واكرادك، بسنتك وشيعتك، لأنَّ المحنة لا تخص مذهباً دون آخر، ولا قومية دون أخرى، وكما أنَّ المحنة هي محنة كل الشعب العراقي، فيجب أنَّ يكون الموقف الجهادي، والرد البطولي، والتلاحم النضالي، هو واقع كل الشعب العراقي.

واني منذ عرفت وجودي ومسؤوليتي في هذه الأمة، بذلت هذا الوجود من أجل الشيعي والسني على

السواء، ومن اجل العربي والكردي على السواء، حيث دافعت عن الرسالة التي توحدهم جميعاً، وعن العقيدة التي تضمهم جميعاً، ولم اعش بفكري وكياني إلا للإسلام: طريق الخلاص وهدف الجميع.

فانا معك يا اخي وولدي السني! بقدر ما أنا معك يا اخي وولدي الشيعي! أنا معكما بقدر ما أنتما مع الاسلام؛ وبقدر ما تحملون من هذا المشعل العظيم لانقاذ العراق من كابوس التسلط والذل والاضطهاد.

إنَّ الطاغوت وأولياءه يحاولون أنَّ يوحوا إلى أبنائنا البررة من السنة: أنَّ المسألة مسألة شيعة وسنة، ليفصلوا السنة عن معركتهم الحقيقية ضد العدو المشترك.

وأريد أنْ أقولها لكم ـ يا أبناء علي والحسين، وأبناء أبي بكر وعمر: أنَّ المعركة ليست بين الشيعة والحكم السني.

أنَّ الحكم السني الذي كان يحمل راية الاسلام قد افتى علماء الشيعة ـ قبل نصف قرن بوجوب الجهاد من اجله، وخرج مئات الآلاف من الشيعة وبذلوا دمهم رخيصاً من اجل الحفاظ على راية الاسلام، ومن اجل حماية الحكم السني الذي كأنَّ يقوم على أساس الاسلام....

إنَّ الحكم السني لا يعني حكم شخص ولد من أبوين سنيين بل يعني حكم أبي بكر وعمر، الذي تحداه طواغيت الحكم في العراق اليوم في كل تصرفاتهم، فهم ينتهكون حرمة الاسلام وحرمة علي وعمر معاً في كل يوم، وفي كل خطوة من خطواتهم الإجرامية.

ألا ترون - يا أولادي وأخواني - إنهم اسقطوا الشعائر الدينية التي دافع عنها علي وعمر معاً؟!.

ألا ترون أنهم ملأوا البلاد بالخمور، وحقول الخنازير، وكل وسائل المجون والفساد التي حاربها علي وعمر معاً؟!

ألا ترون أنهم يمارسون أشد ألوان الظلم والطغيان تجاه كل فئات الشعب، ويزدادون يوماً بعد يوم حقداً على الشعب، وتفنناً في امتهان كرامته والانفصال عنه، والاعتصام ضده في مقاصيرهم المحاطة بقوى الأمن والمخابرات، بينما كأنَّ عليٌّ وعمر يعيشان مع الناس، وللناس، وفي وسط الناس، ومع الآمهم وآمالهم؟...

يا اخواني وأبنائي من أبناء الموصل والبصرة... من أبناء بغداد وكربلاء والنجف.... من أبناء سامراء والكاظمية.... من أبناء العمارة والكوت والسليمانية... من أبناء العراق في كل مكان، إني

أعاهدكم باني لكم جميعاً، ومن أجلكم جميعا، وأنكم جميعاً هدفي في الحاضر والمستقبل... فلتتوحد كلمتكم، ولتتلاحم صفوفكم تحت راية الاسلام، ومن أجل إنقاذ العراق من كابوس هذه الفئة المتسلطة، وبناء عراق حر كريم، تغمره عدالة الاسلام، وتسوده كرامة الانسان، ويشعر فيه المواطنون جميعاً ـ على اختلاف قومياتهم ومذاهبهم ـ بأنهم أخوة، يساهمون جميعاً في قيادة بلدهم وبناء وطنهم، وتحقيق مثلهم الاسلامية العليا المستمدة من رسالتنا الاسلامية وفجر تاريخنا العظيم»[٤].

المورد الأخير الذي نذكره كشاهد على نزعة الصدر الوحدوية هو كلامه الشريف حول أزمة الصراع الكردي العربي المشؤوم في شمال العراق، وذلك في محاضرة له (رضوان الله عليه) في حاضرته العلمية النجف الأشرف في ٢٦ صفر ١٣٨٩ هجرية:

« **لا بد قبل كل شيء أنَّ ننظف مشاعرنا، وأنَّ نجعلها مشاعر صحيحة واسلامية تنبض بالغيرة على الإسلام لا بالغيرة على مصالحنا الخاصة، بالغيرة على الوجود الكلي لهذا الكيان، لا بالغيرة على هذا الوجود، وهذا الوجود، وذاك الوجود.**

لأننا ما لم ننظف هذا الشعور ونحن في غمرة الإمتحان القاسي المرير، ما لم نستطع على أقل تقدير

أنْ ننتصر في معركة تغيير هذا الشعور، وفي معركة إيجاد شعور نظيف تجاه هذا الامتحان، إنْ لم نستطع أنَّ نغيّر هذا القدر الضئيل من نفوسنا، كيف نطمح أنْ نبني أنفسنا ككل؟، وكيف نطمح أنْ نبني المسلمين ككل؟، إذن منطلق الحديث هو هذا الشعور الذي يواجهه الإنسان الممتحن تجاه محنته.

كيف يكون هذا الشعور؟

كثيراً ما توجد محنة، وتولّد مشاعر متعددة، وبالرغم من وحدة المحنة تختلف هذه المشاعر في درجاتها ومستوياتها تبعا لاختلاف التصور والتفكير، ولاختلاف الروحية والاتجاه. وأنَّ اختلاف الشعور يؤدي لا محالة إلى اختلاف الموقف الذي يتخذه الممتحن تجاه محنته.

مثلا هناك محنة يعيشها العراق منذ سنين، محنة صراع مسلح بين اخوين مسلمين في الشمال، بين الاكراد وبعض العرب.

قد يكون شعور بعض الناس إزاء هذه المحنة أنَّ كلفته ولده، أخاه، صديقه، قد يعيش هذه المحنة على هذا المستوى، ويشعر بها بهذه الدرجة، وهذا هو الشعور الشخصي المحدود بالمحنة.

وموقفه إزاء هذا الشعور أن يُهرّب أخاه، أو أباه،

أنْ يتهرّب من واجبات القانون حتى في مأساة من هذا القبيل، ولا يرى له واجبا وراء ذلك.

وأخرى يتعمق هذا الشعور أكثر فأكثر، فيكون شعوره إزاء المحنة شعوراً إقليميا على أساس أنَّ أبناء البلد والواحد يتصارعون ويتنازعون فيما بينهم، وهذا الشعور والانفعال الإقليمي تجاه المشكلة يؤدي إلى اتخاذ موقف أوسع من الموقف الأول، إلى موقف يفكر فيه بأنْ يعيد الصفاء والسلام إلى أبناء البلد الواحد.

وقد يكون شعوره أعمق من هذا وذاك، قد يشعر إزاء المحنة أنَّ المحنة هي نتاج عدم تطبيق شريعة الله تعالى على هؤلاء المسلمين، إنَّ عدم تطبيق شريعة الله عليهم هو الذي أدى إلى تعميق التناقض بين الأخ وأخيه حتى ولدت مشكلة بين هذا وذاك، وتصارع الكردي والعربي.

إنَّ هذا الشعور سوف يولّد موقفاً يختلف عن الشعور السابق الإقليمي أو الشعور الأسبق الشخصي، سوف يجعله هذا الشعور يحمل هم الشريعة ويصل إلى السبب الحقيقي لهذا التوتر[٥].

من ذلك المنحى التوحيدي الصارم الذي اخذ الصدر على نفسه أن يلتزمه مهما كلف الثمن ـ كأن الصدر حبيب المسلمين جميعاً بلا استثناء، وقد عشقوه لاسيما في عراق المكرمات على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم، وصار فكره العملاق منارة لهم، وغدت كتبه الباهرة الفريدة مدرسة لعقولهم، ومستقى لبصائرهم،

تدرس في جامعاتهم وحلقاتهم، وهم لا يشعرون إلّا أنها تمثل الفكر الإسلامي في أوج صفائه ونقائه وسعته، بعيداً عن الضيق، والانغلاق، والفئوية، والتشرذم.

الشهيد الصدر الثاني

لا ريب أنَّ مسار هذا الشهيد الكبير، ومسيرته، وما بدر منه في حياته، وما خلفه بعده من خط وتراث ومنارات وطاقات ـ كلها تحكي عمق قضية المنهج الوحدوي، وقداستها، واصالتها، وضرورتها عنده رضوان الله عليه.

وكانت مفردة التأليف بين قلوب الأمة، وجمعها في بوتقة الإخاء الاسلامي والوطني، مفردة حساسة ولازمة في مشروعه التغييري الفذ الذي مشى فيه نحو مطلع الشموخ على جمر الاذى والتضحيات، ولا عجب فكل مبدع مخلص دفع ضريبة اخلاصه وصدقه من رد الفعل الذي يولده الجهل، والحماقة، وانفعالات الغيظ والحسد.

وقد فتح الشهيد أبواب مشروعه التوحيدي على مصراعيها، وعلى مختلف الأصعدة.

فعلى صعيد الحوزة دعا رجالها ورموزها إلى الالتقاء والتفاهم والتعاضد، وأعلنها صريحة جاهرة من على منبر الجمعة في الكوفة ـ دعوة أخوية صادقة لكل كيانات الوسط الحوزوي إلى الجلوس معاً على مائدة الحوار البناء، ونبذ الخلافات والحساسيات، والانطلاق في مسيرة الإخاء الريادي بين الفصائل القيادية الحقيقية التي أنْ لمت شملها، وجمعت كلمتها، كانت شرائح الأمة التي تقتدي بها وتسير على هداها على شاكلتها في التآخي، والوداد، والوقوف جنباً إلى جنب في كل

خطى المواقع والخنادق، ليكونوا لرموزهم صفاً واحداً يلبي لهم كل نداء، ويؤدي لهم أفضل الأداء.

وعلى صعيد الأمة انطلقت نداءاته وبرامجه التوحيدية تفعل فعلها العجيب في مشروعه الوحدوي الباهر، دعا العشائر إلى الوحدة، وجعل من نفسه قطب الرحى لإخائها ووحدتها، ورتب لها (السنينة العشائرية) التي أراد أن يجمعها بها على محور الشريعة، ويخرجها بالتدريج من متاهات العرف والعادات والتقاليد الجافية الخارجة عن روح الدين وتعاليمه السامية.

ووجه نداءه الحاني الحبيب حتى إلى الغجر الذين عزلتهم عن الأمة ظروفهم وعاداتهم وتربيتهم الخاصة ـ إلى أنَّ يعودوا إلى رحاب الالفة، والمحبة، والإنسجام، والاستقامة، مع أمتهم ورسالتهم. وكأن نداؤه الوحدوي البديع لامته في البرنامج الجامع للقلوب والاجساد وهو (صلاة الجمعة) التي بقيت قروناً متطاولة في ارض الرافدين حبيسة الحظر والحجر بين أطواق السلطة والاحتياط الفقهي الحجتي.

لقد أحيا الصدر هذه الفريضة المظلومة، وشد في لحمتها صفوف الأمة، وجمع في إطارها الوفها بل ملايينها، وشد بعراها أزرها، وقوى بأواصرها ظهرها. جمعها بها في مناطقها ومحافظاتها، ثم جمع محافظاتها بها في الصلاة الموحدة، لتسمع شعاراته الجامعة (نعم نعم للاسلام، نعم نعم للحوزة، كلا كلا أمريكا، كلا كلا يا شيطان)، فالتقت جموع الأمة في جمعتها، وتصافحت أيدي لم تكن لتتصافح فيما عداها، وأحس كل عضو في جامعة الجمعة انه من العضو الآخر كمثل أعضاء الجسد الواحد، لا غناء لأحدها عن غيره، بل لاحق لأحدها في أن ينفصل عن هذه التركيبة الواحدة العابدة، في سرائه وضرائه.

وأنَّ أيسر ملاحظة لما تركه الشهيد الصدر الثاني من بعده من معالم الخط والمسار، أو طبيعة التوجهات التي مشى عليها أتباعه ومريدوه اقتداء به وهم سواد الأمة لقيادة من تربوا على أنفاسه ورؤاه ـ تكشف مظاهر شامخة للانطلاقة الوحدوية التي أسس لها، ورفع القواعد من كيانها، وحدد معالمها، فأتباعه الاستيعابيون المنفتحون مثلاً يصلون خلف أخوانهم السنة في مساجدهم حيث لا يشعرون بأية حساسية مذهبية، ولا يجدون في أنفسهم حزازة من هذا الأمر، ما داموا قد استلهموه من روح الريادة والموقف لدى مرجعهم وزعيمهم وإمامهم الصدر. وقد تجلت مظاهر هذه الأسس النفسية والتربوية الوحدوية لدى هذا الخط بعد الاحتلال تجلياً كبيراً، وظهر بمصاديق ومفردات ملفتة للنظر، انتقده عليها المتحجرون الذين يضيقون ذرعاً بغيرهم، والمنغلقون الذين تسوؤهم الألفة مع سواهم، واتهموه بالانحراف والضلالة والبعد عن جادة المذهب، وتعاظمت هذه التهم حين انطلق رموز هذا التيار يذيبون أنفسهم جاهدين في إطار الوحدة الشاملة التي تتطلبها ظروف الاحتلال، وفريضة المقاومة، ودواعي المحنة المشتركة.

وصار اللقاء السني والشيعي على مستوى الكوادر، والطاقات، والفصائل، والقواعد أمراً اعتياديا لدى جماهير هذا الخط الذين انسوا بمظاهر هذه الوحدة، واستعذبوها، ووجدوا فيها بشير خير للإسلام والأمة في أخطر الظروف، واشد المحن، وادعاها إلى التآصر، والتناصر، وجمع الشتات، والعزوف المطلق عن أي حالة من حالات التخندق الطائفي، والتناحر المذهبي، والتهاتر الاثني.

وليس خافياً على ذي لب حقيقة ما تعرض له هذا التيار بسبب مرتكزاته الوحدوية الزاهرة من مؤامرة كبرى استهدفت شخصيته بالدرجة الأولى، ثم هذه

الألفة القائمة بينه وبين أخوانه في الإسلام من أهل السنة الكرام، حيث قام أعداؤه وأعداء هذه الأمة والوحدة الإسلامية بالتظاهر بزي جيشه (جيش المهدي) وبشعاره وعنوانه، والهجوم على مساجد أهل السنة ورموزهم وأئمة مساجدهم، وقد سعوا لايجاد شرخ كبير بين هذا التيار الميمون والساحة الاسلامية السنية التي رأت فيه أملاً من آمال الخلاص، وحصناً من حصون الوحدة، فمدت يدها اليه، وصافحته بكل حرارة، وهتفت له، وأعلنت دعمها له في محنته، لتجزيه بالاحسان على ما كان منه من الإحسان في دعمه لها ومساندتها ومواساتها في آلامها ومآسيها، وقد أفلحت المؤامرة في بعض مفرداتها، وثارت التهم، وتكدّرت الأجواء، وسعى التيار إلى دفع الفرية، ووضع الإصبع على موضع الكيد الذي ليس هو سوى الاحتلال وأذنابه وسياسة فرق تسد.

والمضحك في البلايا وهو شرها طبعاً أن تتناوب على هذا الخط تهمتان متضادتان، وقفتا إزاءه ترميانه بسهامهما عن يمين وشمال، واحدة متحجرة تنبزه بالسنية والوهابية، وأخرى كائدة تصمه بحرب أهل السنة. والمنصفون في هؤلاء يتذكرون أنَّ هذا التيار وعلى لسان قائده وفي ثورة العصاب المرير والهياج الديني العاطفي بعد تفجير مرقد الامامين العسكريين، قد أمر ـ انسجاماً مع توجهات المرجعية ـ أتباعه بضبط النفس، وحماية مساجد أهل السنة ومؤسساتهم ورموزهم من أي اعتداء، وهذا ما حصل فعلاً، فأي مؤشر أقوى من هذا المؤشر على تزكية الخط من هذا الافتراء الظالم والبهتان العظيم.

إنَّ الامر المهم الذي لا يصح أنْ يفوت ذكره هنا هو أنَّ الشهيد الصدر الثاني قد نبت في مدرسة أستاذه العملاق الكبير الشهيد الصدر، وهي مدرسة الاسلام في عمقه، وشموله، واستيعابه، وأصالته، وأسسه المتينة القائمة على التوحيد والوحدة.

وقد تفردت مدرسة ذلك الأستاذ العظيم بكونها مدرسة ثورية تغييرية على أساس الفكر المهيب للشريعة. وقد جعلت همها وهدفها نجاة كل الأمة، وتدرّعت بفصائلها وشرائحها بلا استثناء، ونادتها كلها كما رأينا فيما سلف نداءً واحداً بلا تمييز، تهيب بها للالتفاف حول المسار الواحد نحو الهدف الواحد وهو العودة إلى رحاب الله الأنوس، واقامة دولته في أرضه، لتعود امجاد الاسلام المذالة، ويطلع لواؤه الفذ الذي أرغم على الانزواء والانطواء خلف أطواق التعتيم والتضليل والإغواء.

عبقات وحدوية صدرية

١- أوفى البحوث في الوحدة وأعمقها ـ بحث جذاب كتبه الشهيد السعيد لمجلة الاضواء في الستينات، ومما جاء فيه:

« وحدة الصف من الأمور الجوهرية الحساسة لحياة كل امة، ونجاح كل حركة، ونيل كل شعب حقه من العدل والحياة، وبدونه لا يمكن أن ينال هدفا، وأن يرقى سلم النجاح في أي عمل اجتماعي عام.

وقد أصبح هذا المفهوم في أيامنا الحاضرة واضح المعالم، بديهي الصحة، بعد أنْ أثبتت التجارب في واقعنا الحياتي المعاش صحته وجدواه.

والإسلام بصفته حركة إصلاحية عالمية شاملة، تستهدف قيادة البشرية جمعاء نحو شاطئ العدل والنور يحتاج إلى وحدة في الصف، وتكتيل في الرأي، ومركزية في العاطفة اكثر من أي حركة أخرى تقصر عنه في الأهداف، أو تقل عنه في المخططات.

إذن لابد للإسلام وهو بهذه السعة والشمول أن يحكم خططه، ويدقق في اتجاه عمله، وأنْ يزيد من هدى أصحابه وذويه، من حيث إيمانهم بالهدف الكبير،

واطلاعهم على عوائق الطريق، والتفافهم باخلاص عظيم حول قيادتهم الاسلامية، وهي تسير بهم نحو الكمال المنشود.

ومن هنا رأينا التوجيهات الإسلامية وتأكيداتها المتواصلة للمسلمين على رص الصفوف، وتوحيد الكلمة، وتكتيل العمل، قد أثّرت في نفوس مسلمينا الأوائل تأثيراً بالغاً، ونجحت في تحقيق مهمتها نجاحا منقطع النظير. هذا النجاح وذلك التأثير الذي جعل المسلمين كتلة متراصة واحدة، تفتح رقعة واسعة من العالم في غضون أعوام قليلة. وقد كأن بالإمكان أن يشمل الفتح الاسلامي تمام الكرة الارضية لكي يسود العدل والرفاه ربوع البشر أجمعين لولا انشقاق الصفوف والاختلافات في أيام الفتح المتأخرة، تلك الاختلافات التي لا زلنا نجتر من آثارها الشيء الكثير، وما حدث مثل هذه الخلافات إلا من تناسي تعاليم الإسلام، وصرف النظر عنها، والتأكيد على المصالح والأهواء....

من أهم عناصر النجاح في الدعوة هو وحدة الصف، ومركزية العاطفة، ومن ثم فقد جعل الإسلام في أذهان معتنقيه صورة مفصّلة عن ذلك، يحمل أحد جوانبها صورة واسعة لمساوئ التفرق والاختلاف، وما يجره على أصحابه من شر ووبال. معتمداً في ذلك على التجارب الفعلية التي كانت تعيشها الدعوة الاسلامية في ذلك الحين. ويحمل الجانب الآخر صورة مفصلة عن محاسن وحدة الصف الفعالة في سرعة النجاح وإكماله وتوسيعه، معتمدا أيضا في الاستدلال على ذلك بالتجارب التي كأنَّ يعيشها المسلمون في تلك الأيام.

ويعمل الجانب الثالث والأخير الفصل المهم من هذه الجوانب جميعا وهو توضيح الحد الفاصل عند حدوث الاختلاف، وتفرق الآراء حول أي أمر من أمور العقيدة والحياة، ليتدارك بسرعة ولباقة قبل أنْ يتفاقم أثره، ويتطور إلى ما لا

تحمد عقباه...

يبدأ القرآن أولاً بتوجيه تعاليمه إلى المسلمين كافّة بتوحيد الصف، والأخوة، والتصافي على أساس من المنبع الإلهي الفياض (واعتصموا بحبل الله) بأمر الله وعهده إليكم، ولا تفرقوا، فهذا هو الأولى بكم والأجدر بأن يوصلكم إلى كمالكم وسعادتكم، وتطبيق قوانين دينكم، فإنَّ كل هذه الثمرات الطيبة لا يمكن أنَّ تجنى عند التفرق والاختلاف.

﴿ **وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ** ﴾ [المائدة/٧] ومنه بالوجود، وفتحه لكم فرصة التعقل والتفكير، وأخيراً هدايته لكم إلى توحيده، والإخلاص له، وإتباع دينه الحنيف ﴿ **إِذْ كُنتُمْ** ﴾ قبل دخولكم هذا الدين ﴿ **أَعْدَاءً** ﴾ متخاصمين متكالبين على حطام الدنيا، جاعلين أقصى همكم هو السيطرة، واعلى مثلكم هو المادة، أما عند انبثاق نور هذا الدين الجديد في قلوبكم، فقد تساميتم فوق هذا المستوى المنحط إلى الأفق الإلهي النير، حيث الكون الرحيب والحياة الفُضلى.

﴿ **فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ** ﴾ بما أنزل عليكم من نعمة الإسلام، وبما منّ من الهداية إلى الصراط المستقيم، فوحد به بينكم برابطة قوية خالدة تجمعكم في العقيدة والعاطفة والهدف.

وهكذا يحافظ الإسلام ويضع التدابير الحاسمة لخلق هذا العنصر للنجاح، فإنَّ وحدة الصف لن تكون تامة ومترابطة وخالدة إلا إذا كانت قائمة على عقيدة راسخة وخالدة أيضا، أما بدون وحدة العقيدة فلن يوجد إلا التفرق والدمار، وليس أدل على ذلك من حالهم قبل الإسلام، تلك الحال التي أشار إليها القرآن بقوله ﴿ **إ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً** ﴾.

أما الآن وبفضل هذا النور الخالد ﴿ **فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا** ﴾ فالمسلم أخو

المسلم، ولئن كانت الأخوة في النسب إذا لم تصاحبها أخوة في العقيدة، كثيراً ما يشوبها الاختلاف والتشاحن لاختلاف الأغراض والمصالح، فإنَّ ذلك مما لا يمكن أنْ يحدث في أخوة العقيدة، بعد أنْ كانت العقيدة نفسها، وهي أثمن جزء في النفس هي القدر المشترك الكبير بين القلبين....

لذا يبادر القرآن بعد تلك التوجيهات الثمينة إلى الوقوف أمام هذا الخطر المحتمل، وسد بابه وهو يقول:

﴿ **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ** ﴾ فلم يستطيعوا أنْ ينالوا في إيمانهم خيرا، وهذا سند تاريخي يعطيه القرآن، مذكّراً المسلمين بأمم أنزل الله إليهم الهداية، وأراد لهم الخير والصلاح، إلا أنّهم لقصر نظرهم، وضيق نفوسهم، وتشبثهم بطحالب المصالح الوقتية الزائلة، لم يستطيعوا المحافظة على نعمة الله، ولم يتمكنوا من صيانتها ورعايتها حق الرعاية؛ وذلك لأنهم اختلفوا وتفرقوا بعد ما جاءتهم البينات، فلم يستطيعوا أنْ ينالوا في إيمانهم خيرا....

أنَّ الجماعة إنما تتكون والجيش إنما يستقيم أمره بالوحدة في الرأى والتآلف على أساس العقيدة والهدف المشترك، أما الجماعة التي تتكون لمجرد تجاوز الأجسام ﴿ **وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى** ﴾ فإنّها ليست في النظر الدقيق بجماعة على الإطلاق، وإنما هو أحد أوهام الحس البصري، بعد أنْ لم تكن تجمعها رابطة، ولا يخاف منها أي خطر.

﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ** ﴾ إذ لو كانوا ذوي تفكير سديد وبعد نظر لأدركوا مصالحهم، ولعلموا أنَّ وحدة الصف، واتفاق الكلمة من ضروريات مكافحة العدو المشترك....

لذا نرى القرآن بعد خلوصه إلى هذه النتيجة الرائعة ينادي بصراحة ووضوح: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ** ﴾ وهذه الآية وإنْ كانت واردة في مورد القتال إلّا أنَّ تكوين هذا البنيان المرصوص ضروري لكل عمل من أعمال الدعوة وفي سبيل الوصول إلى أي هدف من أهدافها، مهما سهل وصغر....

إنَّ وحدة الصف، وتضامن الكلمة، وتأليف القلوب، إنما هي فيض من الله ونعمة من نعمه الكبرى عزّ وجل، وما ذلك إلّا لأنَّ وحدة الصف ثمرة مهمة من ثمرات العقيدة، والعقيدة بنفسها هي نور الهي، ونعمة من نعم الرب الرحيم، تفضل بها لهداية البشر، واخراجهم من ظلمات الجهل والضلال إلى أفق النور والحياة.

كما أنَّ وجود العقيدة في المجتمع غير مُجد للشخص إلّا إذا انضم اليها التوفيق الالهي له بأنَّ يهتدي ويرشد، وأن تلامس أوتار قلبه أنغام الإيمان، لكي يستطيع بهذا الإيمان أنْ يتخذ مكانه اللائق في الصف الموحد بين أخوانه في العقيدة، وأنْ يمزج عاطفته مع عواطفهم ووجدانه بوجدانهم....

﴿ **فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ** ﴾ [آل عمران/١٠٣] وهو الذي أنعم على نبيه ﷺ أيضا بتأليفه بين قلوب أصحابه وتوحيد كلمتهم، بواسطة تلك العقيدة السامية التي انزلها بينهم والتأييد الالهي الذي رزقهم.

وهذه الأخوة الصادقة والتأليف الحقيقي بين القلوب ذلك التأليف الذي يمكن أنَّ تجنى منه ثراته الكبرى المطلوبة يانعة شهية، أما الأخوة القائمة على أساس المادة، والصفاء الحاصل من توافق المصالح الضيقة، فهو تأليف صوري لا يحتوي على أي مغزى أو روح، وإنما هو موجود سطحي ظاهري من الوهج العاطفي،

سرعان ما يخبو وينطفئ عندما ينطفئ سببه ويخبو، وما أسرع ما يكون ذلك في المصالح الضيقة والمادة المقيتة.

ويقرر القرآن هذه الحقيقة قائلا: ﴿ **وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ** ﴾ [الأنفال/٦٣] فإنَّ التأليف الحقيقي ما لا يمكن أنْ يجنى ببذل المال مهما كثر أو زاد، وإنّما المطلوب هو التأليف على العقيدة والأخوة في الله، وليس للمال في ذلك أي أثر: ﴿ **وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾.....

هذه المراحل كلها إذا انتهت بفوز ونجاح، وتكللت بأهدافها الكبرى، فإنَّ ذلك مما يستدعي من الحيطة والحذر اكثر فاكثر، فإنَّ الضمانات لوحدة الصف، واتفاق الكلمة مهما كانت قوية، ومهما كانت التأكيدات عليها شديدة، إلا أنّه من المحتمل أنَّ يدخل عنصر الضعف الانساني في الموضوع، وتندس الى الحركة في بعض مراحل تطورها بعض الأخطاء والعقبات التي تهددها بشر مستطير.

إذن فمن المنطقي جدا أنَّ نحذر من التفرق والاختلاف كل الحذر بعد أنَّ رأينا آثار هذا الخطر الرهيب على معسكر الكافرين، وأنَّ نضع الضمانات الكافية لذلك، لئلا يندس أثره إلى صفوف المسلمين.

وينبغي أنَّ يكون الضمان قوياً وحاسماً، واشد تأثيرا بكثير من الضمان الذي استطعنا أنْ نحدث به الاتفاق والوحدة، فإنَّ الظروف التي يحدث فيها الاختلاف، تكون عادة أخطر وأعقد بكثير من الظروف التي يمكن أنْ تحدث الأخوة والوفاق.

وقد تصدى الإسلام لذلك، فاحكم خططه، وسدد نظره، واعطى المشكلة علاجاً حاسماً غير قابل للتأويل والتبديل، حيث أمر المسلمين عند بروز أي

اختلاف بينهم بالرجوع إلى نفس المصدر الذي استقوا منه عقيدتهم ودينهم، فإنّه المصدر الحكيم، وأنَّ قوته الفصل في أي شأنٌ من شؤون المسلمين.....

ويستنتج القرآن من ذلك نتيجة طبيعة واضحة، هي أنَّ رفض الرجوع إلى الله والرسول حين الاختلاف، وتفضيل الرجوع إلى غيره في ذلك، هو من شأن المنافقين الذين يظهرون الإيمان، ويبطنون الكفر، حيث يقول جل وعلا: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا** ﴾.

وليس معنى الرد إلى الله والرسول هو الرجوع إليهما مباشرة، ليقال إنَّ هذا مما لا يتيسر إلا لمن كأن متصلاً بمصدر الوحي في زمن الرسول الأعظم ﷺ وإنما المقصود من ذلك هو الرجوع إلى ذلك المصدر أو إلى من جعله حجة بيننا وبين الله....

بعد هذه الجولة المفصلة بين آي القرآن الكريم وإرشاداته نكون قد عرفنا كيف أنَّ القرآن قد أعطى الدستور الكامل والتصميم الدقيق لضمان وحدة الصف واتفاق الكلمة، وليس علينا بعد ذلك الا أن نفتح لذلك قلوبنا، ونقدم عقولنا، لنتفهمها، والاستضاءة بنورهما، والاخذ من معينها الفياض المنير، كما قد فعل ذلك أخواننا المسلمون في مبدأ الدعوة الإسلامية رضي الله عنهم أجمعين)[٦].

٢ - المفاصل الأساسية للوحدة

هذه النقطة وما يليها هي مجموعة مفاهيم توحيدية طرحها الشهيد السعيد في خطب صلاة الجمعة.

(الإسلام هو دين الوحدة، والاخوة، والتماسك، والرحمة، والانسانية، واللطف، والتعاطف على مختلف المستويات التي يمكن أنَّ

نعرض المهم منها فيما يلي:

المستوى الأول: وحدة الحوزة العلمية، وأخوة أعضائها، والمشاركين فيها في الهدف المشترك مهما تباعدت بعض المصالح والأهواء والأساليب، وهذا واقع لا مناص منه ولا خلاص، وهو مطبّق فعلا فإننا جميعا في الحوزة يد واحدة، وروح واحدة، كلنا يعمل لمصلحة الدين، وكلنا يتصرف في حدود استطاعته وفهمه باتجاه الهدف المشترك، وهو عز الإسلام، وارتفاع وعظمة كلمة التوحيد في كل زمان ومكان، وتكثير طاعات الله سبحانه في البشرية، وتقليل معاصيه بين البشر، وكلنا ضد من ناوأنا وعادانا، لأنَّ من عادى الحوزة فقد عادى الدين، ومن كاد للحوزة فقد كاد للدين، ومن اعتدى على الحوزة فقد اعتدى على الدين، وليس هؤلاء الناس بأشخاصهم بطبيعة الحال، والحوزة واحدة في كل مكأنَّ وزمان؛ لأنها تتوحد بوحدة العاطفة، والعلم، والعمل، والهدف، وكله واحد بحسب توفيق الله تعالى، فليس هناك حوزات متباينة، او مختلفة فيما بينها في النجف، وفي قم، وفي سوريا، وفي لبنان، وفي خراسان، وفي البحرين، وفي القطيف، وفي الاحساء، وفي الباكستان، وفي الهند، وفي غيرها من بلاد الله، بل كلهم رجل واحد، وقلب واحد، ويد واحدة، وعلم واحد، لمصلحة الدين وشريعة سيد المرسلين، وضد العدو في كل جيل، وفي كل مكأنَّ وزمان.

المستوى الثاني: وحدة المؤمنين في المذهب الواحد مهما تكثرت أعمالهم، وطبقاتهم، ومستوياتهم، وعواطفهم، فإنهم ما داموا يشعرون بأهمية الدين، وأهمية ولاية أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة والسلام، وعصمة القادة الأئمة المعصومين سلام الله عليهم، فهذا يكفي تماما لأنَّ يكون الفرد مندفعا نحو طاعة الله، متحمسا نحو الهدف المشترك، واقفا ضد العدو المشترك، منجزا

مصلحته العادلة الشخصية والاجتماعية، مبتعدا عن الذنوب، والعيوب، والموبقات، ومن لم يكن كذلك فنتمنى أن يكون كذلك في اقرب وقت، وبحسن توفيق الله وتسديده.

المستوى الثالث: الأخوة في الاسلام وهي الأهم والأتم؛ لأنها تشكل حجر الزاوية في المبعث النبوي الشريف، لأنَّ المبعث مبعث الإسلام، فالأخوة في الاسلام هي الرئيسة، لأنَّ القرآن واحد، والنبي واحد، والقبلة واحدة، والدين واحد، والهدف واحد، وأنَّ اغلب الاختلافات بين علماء الاسلام طبيعي، وموجود بين أي تفكيرين أو أي مفكرين، وليس ذلك بعيب، ولا يشكّل نقصاً حقيقياً، ولا ينبغي أنَّ يكون سببا للعداء والتضارب والتحارب والعياذ بالله، وإنما الهدف مشترك، والعمل مشترك والعدو مشترك، وخاصة ونحن نعيش في اشد العصور حاجة إلى ذلك، لتكالب الأعداء ضد الإسلام، ومكرهم من داخلهم، ومن خارجهم، وبيدهم السلاح، والمال، والتخطيط، والأعداد الكامل، في حين نجد المسلمين والمخلصين عُزلا من كل ذلك، وهذا هو الامتحان الالهي الاتم والاكمل ﴿ **لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ** ﴾ [الانفال/٤٢] ومثل هذا الظرف، وهو الظرف الدائم والمستمر، وربما لمئات السنين، يعطينا وجوب الشعور بالوحدة، والتماسك، والتضامن، وقوة الإيمان، لكي نستطيع أنْ ندفع المؤامرات، ونُكفى أكثر ما هو مستطاع من الشدائد والمظالم التي يريدها لنا العدو المشترك المتمثل بالثالوث المشؤوم وهو الاستعمار الاسرائيلي الامريكي البريطاني قبحهم الله، والأمر هنا كما قال أحد الأعضاء في دار التقريب بين المذاهب الاسلامية ـ كانت موجودة، الى عهد قريب حيث قال ما مضمونه: (انه ليس المراد في هذه المرحلة من العمل والتفكير هو أنَّ نجعل الشيعيين سنيين او نجعل السنيين شيعيين، وانما المهم

هو التمسك بالدين المشترك، وهو الاسلام، والقيام ضد العدو المشترك، وهو الكفر والالحاد المتمثل بالاستعمار وانصار الاستعمار، بطبيعة الحال أنَّ مجرد التفكير في هذه الوحدة قلبيا وعقليا لهو مرحلة مهمة وجيدة ونافعة تكفي في نتائجها عدم توجيه الحقد والعداء ضد بعضنا البعض- والعياذ بالله- من مختلف مذاهب الاسلام، وإنما اختصاص توجيه الحقد والعداء ضد من هو أهل لذلك، وهو العدو المشترك المتمثل بالكفر والاستعمار، ويقول المثل (انا وابن عمي ضد الغريب) كما يقول المثل في عادات العشائر، ربما تعرفونها (انه قد تكون قبيلتان متعاديتين فيما بينهما متقاطعتين بشدة إلا أنهما حين يجابههما العدو المشترك وتغير عليهما قبيلة ثالثة يكونان يدا واحدة، وعملا واحدا، وقلبا واحدا تجاه هذا العدو المشترك، فإذا دفعوه واستراحوا عادوا الى العداء من جديد فيما بينهم) ومن الواضح اننا لم ندفع العدو المشترك إلى الآن بل لا زال في تزايد ومرارة، ولا اقل أنَّ يحذر كل واحد منا مهما كأنَّ مذهبه، ومهما كأنَّ عمله، ومهما كانت طبقته، أنَّ يحذر من أنَّ يكون معينا ضد نفسه، وضد اسلامه، بيد او لسان مهما كأنَّ قليلا أو كثيرا، يُضاف الى ذلك الالتفات إلى أنَّ عمل بعض المذاهب ضد بعضها كما يحدث الآن من الوهابيين مع الأسف كما قد يفترض حدوثه من أية جهة كانت، يكون بكل تأكيد عملا مبرمجا، وموجها في مصلحة الاستعمار، ولا يستفيد من ذلك إلا العدو المشترك وإسرائيل من حيث نعلم أو لا نعلم، بينما لا يستاء العدو المشترك الأمن التحاب، والتعاون، والالفة بين المؤمنين والمسلمين، ونحن مأمورون في القرآن الكريم أنْ نُسيئ إلى قلوبهم، كما قال تعالى في محكم كتابه الكريم: ﴿ **وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ** ﴾.

إذن فالأخوة مطلوبة في الإسلام على كل حال وهذا بطبيعة الحال، ليس

من طرف واحد، بل من كل الاطراف، وليس كلامي هذا استجداء للعاطفة، لأننا لا نخاف من غير الله سبحانه، وإنما هو لإقامة الحجة، والفات النظر لمن يريد أنَّ يستجيب الى داعي الله، ونصوص الكتاب الكريم، والسنة الشريفة، ويكون ذلك في مصلحتهم اولا، وفي مصلحة الاسلام ثانيا، ودفعا للعدو المشترك ثالثا، وهذا لا يعني من ناحية أخرى عدم أهمية الحفاظ على المذهب، والعناية بمصالحه ومصالح طائفته، فأنَّ هذا ضروري أيضا أمام الله سبحانه وتعالى؛ لأنه الحق الذي نؤمن به، ولكن ينبغي أنَّ يكون عمل أي مذهب، أو قل عمل أي مسلم، بحيث لا يضر بالمذاهب الأخرى ـ لا اقل بهذا المقدار ـ تحصيلا للوحدة الاسلامية، والتكاتف المحمدي، أو قل يجب أنَّ لا يعمل اي مسلم عملا يفيد به الاستعمار، ويوجد الفرقة والازعاج في المجتمع الاسلامي، ومن عمل ذلك فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين، حتى لو كأنَّ هو السيد محمد الصدر نفسه.

المستوى الرابع: الشعور بالوحدة والتضامن مع الثورة الفلسطينية المجيدة التي كانت ولا زالت تعطي سيل الشهداء انتصارا للحق المغتصب. واحتجاجا على الظلم المكثف، والاجحاف الحقيقي في تلك البلاد المسلمة من قبل مستعمريهم اليهود.

فنحن نعمل من هنا تأييدا لمجمل الحركة الفلسطينية، والثورة الفلسطينية، ونخص بالتأييد منهم أولئك الذين يشعرون بمسؤليتهم الاسلامية، وعاطفتهم الدينية، وهم الأعم الأغلب فيما اعتقد، وننصح الباقين منهم أنَّ يميلوا الى هذا الطريق، ويلتفتوا الى الدين الحق، فيصلحوا بذلك دنياهم وآخرتهم، ولا تغرنهم الشعارات البراقة التي لا تفيد في الواقع الا الإبقاء على اسرائيل وقوتها، كما ثبت

ذلك، ولا زال يثبت بالتجارب المستمرة.... هذا ومن الواضح دينيا أنَّ الثورة الفلسطينية وإنْ كانت هي ثورة الشعب الفلسطيني، إلا أنها ثابتة في ذمم المسلمين جميعا، بمختلف مذاهبهم واتجاهاتهم ودولهم، لكي يكونوا يدا واحدة، ومتعاونين دوما على الفعالية والجهاد ضد أعداء الله والإسلام كما ورد في السنة الشريفة (المسلمون يسعى بذمتهم أدناهم) - يعني يسعى كلهم حتى أدناهم، أفضلهم وأدناهم جميعا ـ وهم يد على من سواهم) أي أنهم يد واحدة، وخندق واحد ضد كل الأعداء المتربصين والكفار والمعاندين.

٣ ـ تعدد العناوين لا يضير وحدة الكيان

نحن نرى الآن أنَّ كل جماعة أو مجموعة تنسب إلى راعيها وقائدها والرئيس الموجه لها على الصعيد الدنيوي او الديني، فنقول مثلا ناصريين لأصحاب جمال عبد الناصر، وخالصيين لأصحاب الشيخ محمد الخالصي، وسيستانيين لاصحاب السيد علي السيستاني، وصدريين لاصحاب السيد محمد الصدر، هذا معاش، وكلكم رأيتموه، فكذلك قال المجتمع يومئذ عن أصحاب الإمام جعفر الصادق عليه السلام إنهم جعفريون أي ملتفون حوله، والمندرجون تحت قيادته وعقيدته وأهدافه، وينبغي الآن التنبيه والالتفات إلى أمرين:

الأمر الأول: إنه طبقا لهذا التسلسل الفكري فإنَّ نسبة الجعفرية إلى الإمام الصادق، ليس كعقيدة أو دين مستقل، كلا ربما يظهر من بعض عبارات العوام حين يقولون ـ وكانت أهزوجة قديمة يتناقلها الناس ـ ماكو ـ لا ـ ولي إلا علي، والدين دين الجعفري ـ الذي يوحي أنَّ الجعفرية دين مستقل في مقابل الاسلام ـ والعياذ بالله ـ هذا من جهة، وكما كأنَّ عليه التبليغ المعادي في سنوات قديمة، قد تضاءل أثره الآن بحمد الله أو زال حين كانوا يقولون المسلمون والشيعة، فهذا من

داخلنا موجود، ومن خارجنا أيضا، وكلاهما نحن بريئون منه الى الله، والله الآن يسمع ويرى وهو بالأفق الأعلى، بل أنَّ تعليم الامام الصادق هو الاسلام بعينه، وهو الاسلام قبل أنَّ يكون مذهبا، ولا قيمة لمذهب ما لم يكن في ضمن الاسلام كما هو أوضح من أنْ يخفى.

الأمر الثاني: إنَّ الوعي الديني والاجتماعي يتنامى في المجتمع بين مختلف الفئات، ومختلف المذاهب بعون الله وحسن توفيقه الان، وهذا جعل التحزب والتعصب والطائفية يصلان إلى أقل مقدار ممكن منها بحمد الله ولطفه.

٤ - دعوة الإخاء حتى لمن لم يناصروه.

إني أوجه كلامي إلى المؤمنين الذين الى الان لم يناصروا السيد محمد الصدر، ولم يكونوا معه سواء في داخل الحوزة أو في خارجها، أهلا بكم وسهلا بين الجمع الحافل بالتقوى، والشرف، والفضائل، وأنَّ من أحسن الكلمات التي قالها الاسلام والقرآن وكل كلماته حسنة:

﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ** ﴾.

ولا حاجة إلى استمرار التباعد، والتباغض، وتبادل التهم، والاشكالات، بل تعالوا نتفق ونتصاحب ونتحابب في الله وفي ولاية أمير المؤمنين وفي المذهب، وفي الدين، وبابي مفتوح وقلبي مفتوح لكم جميعا مهما كنتم، ولا أريد منكم شيئا إلا الأخوة في الله وفي رسوله، وفي ولاية امير المؤمنين. وتبقى التفاصيل الأخرى ثانوية يمكن المناقشة فيها بالتدريج، يكفي أنْ لا تكون في اختلافاتنا وانشقاقاتنا خدمة للعدو المشترك، لاسرائيل، والاستعمار، ولكل من هو بعيد عن الله وعن رسوله، فما دمنا تجمعنا الروابط الحقيقية المقدسة، فلماذا لا نتحد ولا نتقارب، ولا نتآخى؟، ولماذا ننصر عدو الله وعدو رسوله، من حيث نعلم أو لا نعلم؟ فما

دامت هذه الحياة موجودة عندي، والنفس يصعد وينزل، فإني أرحب بكم بكل قلبي، واعذركم وتعذرونني أنَّ كأنَّ حصل بعض الشيء مني أو ممن يرتبط بي، أو ينتسب إلي، ونفتح تاريخا جديدا كما قال الشاعر:

من اليوم تعارفنا ونطوي ما جرى منا
فلا كأن ولا صارا ولا قلتم ولا قلنا
وما أحسن أنّ نرجع للود كما كنا

٥ - الصدر يمد يده إلى أهل السنة ويرى منهم بوادر الانسجام

(إنني خاطبت أخواننا أهل السنة والجماعة بالصداقة والعلاقة، والحق أنَّ التجاوب واضح ومسر، ومنتج لأفضل النتائج.. أنَّ كثيرين من أخواننا أهل السنة من رجال الدين وغيرهم يحضرون صلاة الجماعة والجمعة عندنا)

٦ـ صلاة الجمعة مفتاح لتوحيد قلوب الأمة في كل بلاد الاسلام .

(ينبغي أنَّ نفكر أننا لسنا وحدنا نصلي الجمعة، لا في النجف ولا في خارج النجف، لا في العراق ولا في خارج العراق، ولا في المذهب ولا في خارج المذهب.. فنحن الان أيضا مشتركون عاطفيا تجاه المؤمنين والمسلمين الذين يقيمون صلاة الجمعة قريبا منا أو بعيدا عنا) .

٧ـ صلاة الجمعة سبيل الاتحاد بين الأمة والحوزة

(من النقاط المهمة والجليلة التي حصلت بصلاة الجمعة - الاتصال المباشر بين الحوزة والمجتمع، وبين المرجعية والأمة، بينما كأنَّ الانفصال التام أو الغالب موجودا قبل ذلك مع الأسف... أنَّ للحوزة عدة أساليب للاتصال بالمجتمع منها صلاة الجماعة وصلاة الجمعة) .

٨ـ المطلوب وحدة الأمة مع الدين والمذهب والحوزة لا الشخص المعين.

(هناك شيء رئيسي هو أنَّ تحافظوا على دينكم ومذهبكم.. الدين والمذهب بذمتكم، أنا لست مهما بوجهي ولا بيدي ولا بعيني إنما الشيء المهم هو دين الله) ....

(إنَّ كلمة الحوزة هي كلمة الفصل، ولا اقصد السيد محمد الصدر، وإنما قصدت الحوزة في كل مكان وزمان).

٩ـ حضور العلماء في صلاة الجمعة رمز لوحدتهم

(إنكم ـ العلماء ـ إذا تفضلتم بالحضور إلى صلاة الجمعة.. يكون في ذلك وحدة للمذهب، ووحدة للدين، وللمصالح الاجتماعية، إنَّ صلاة الجمعة ليست حكراً على أحد وإنّما هي ملك للمذهب).

(لو كانوا ـ العلماء ـ قد حضروا لكان في إمكان الحوزة والمذهب مجابهة اسرائيل نفسها بما فينا من تكاتف وتضامن، وعزة لله وحسن توفيق.)، (ولو حضروا لكان الانتصار اكثر، واتحاد الحوزة والمذهب اكثر.)

١٠ـ الرائد الوحدوي يمد يده حتى الى من يئس الاخرون من عودته للصف.

(لا يعجب السامع والقارئ من انني خاطبت الغجر، لأنني خاطبت كثيراً غيرهم من الذين يبعد قبولهم، ويرجح تعصبهم وأعراضهم... يا أيها الغجريون لستم أول من خاطبه الاسلام.. ولا أول من خاطبه السيد محمد الصدر، كما لستم أول من يخاطبه.. فإنكم لستم أقل عقلاً، ولا رشدا، ولا فهما من الآخرين من سائر البشر).

١١ـ اعتبار الصدر فداء لوحدة المرجعية والحوزة، ولا يجوز أنْ يكون سببا للاختلاف

(انك ـ اي العالم ـ إذا حضرت فأنا سوف أقدمك إماما للجماعة.. وحتى لو أراد ذلك المرجع أنْ يكون خطيبا، تفضل اخطب وصل بنا، وأنا اكون مستمعا، وأكون مأموما بخدمتك). (استمروا على صلاة الجمعة حتى لو مات السيد محمد الصدر، لأنه لا يجوز لكم أن تجعلوا موته سبباً وذريعة لذلة الإسلام والتشيع، وتفرّق الكلمة، وكثرة المشاكل، بل الحوزة الشريفة تبقى بعون الله..).

الإمام السيستانيّ والوحدة الوطنية

لقد كان السيد السيستاني مشروعاً اسلامياً وحدوياً للخلاص، بدت فيه صفات الرمز الديني الذي شكل الضرورة الريادية في أخطر ظروف العراق، واعقد مشاكل الأمة، وأقسى صعوباتها ومكابداتها مع المحن والفتن والنزيف المستمر، في ظل استثناء خطير هو الاحتلال المرير، وتداعياته القاسية، وآثاره الأليمة.

لقد كانت معالم هذا المشروع الكبير هي معالم المرجعية الدينية التي عرفت دورها، ووعت ظرفها، وتحملت مسؤوليتها، وصممت على أنَّ تقتحم المخاض العسير بما لديها من طاقة الصبر والأناة والتدبير.

أهم تلك المعالم التي برزت في مسيرته، وتوجيهاته، وخطاباته، وجهوده:

١ـ وعي الظروف المحيطة بالواقع العراقي (ظروف الاحتلال وتداعياته المختلفة)، وأدراك أنَّ المحتلين لم يجيئوا محررين، ولأجل ظلامة الشعب وخلاصه من براثن جلاديه، بل جاؤوا لأهدافهم ومصالحهم الاستراتيجية التي فعلتها أحداث ١١ أيلول، والبسوها غطاء الخلاص من أسلحة الدمار الشامل العراقية التي وجدوها وهماً فارغاً ففزعوا إلى الضرب على وتر الحرية والديمقراطية، وحق الأكثرية الشيعية التي ظنوها ستسكر على أنغام الوعود الحالمة التي وعدوا هذه الأكثرية بها، ولكنهم فوجئوا بالعكس تماماً، وبأنَّ مرجعية هذه الأكثرية ترفض

استقبال الحاكم الامريكي في العراق (برايمر) رفضاً قاطعاً كحد السنان.

٢ـ إدراك أنَّ الشعب العراقي المضطهد ولاسيما اكثريته المظلومة منذ أمد بعيد كان تواقاً إلى رؤية اليوم الذي يجد فيه نجاته من مخالب النظام الديكتاتوري الذي حكمه أبشع عقود عاشها في حياته، وأذاقه طعم الشقاء بأفظع مرارته، وكان هذا الشعب قد بذل منتهى وسعه للخلاص، وقدم على سبيل ذلك آلاف القرابين، لكن قسوة الاستبداد كانت أقوى من قدرته، وحين رأى أسياد نظامه الحاكم يريدون ازالته لاستنفادهم أغراضهم منه وجد أنَّ مصلحته في تغييره تلتقي مع مصلحة أولئك الأسياد، فرضي بالممكن المر على أنَّ يصحح الأوضاع بالطرق المناسبة بعد رفع الكابوس.

٣ـ معرفة أنَّ الحل السياسي هو الحل الأفضل والأنسب، لأنَّ رفع السلاح سيعيد حمامات الدم بلا طائل، خصوصاً بعد ملاحظة أنَّ الهاجس الشيعي هو أسوء هاجس تعاني منه قوات الاحتلال التي وضعت الفيتو الصارم على الحضور الشيعي المطالب بحقه الطبيعي حسب وجوده على الخارطة السياسية والاجتماعية، ومن هنا كانت المقابر الجماعية التي صنعها النظام المحاصر من قبل امريكا عام ١٩٩١ بالضوء الاخضر الامريكي، وبالدعم اللوجستي، وبالسماح لطيرانه بالتحليق، ولصواريخه بالانطلاق لضرب الانتفاضة وابادتها على مرأى ومسمع دعاة الحرية وحقوق الانسان، ومن هنا كانت العناوين الثانوية الملزمة بالحل السياسي حاكمة على الحكم الاولي وهو فريضة الجهاد ضد الاحتلال.

٤ـ تركيزه على قضية الانتخابات، وسلوكها كحل ديمقراطي يفرز الحقيقة السياسية من رحم التعددية، والحوار البنّاء، والرأي الآخر، واذا صدق المحتلون

في وعودهم الديمقراطية، ولم يكبتوا صوت الأمة فإنَّ الكيان الحقيقي سيفرض نفسه على الواقع، ويجد طريقه إلى تصحيح الأمور، وإعادة المياه إلى مجاريها.

٥ـ الدعوة الدائبة إلى رصّ الصفوف، وتوحيد الكلمة، وجمع الشمل، ونبذ الخلافات الطائفية والمذهبية والعرقية والاثنية، والاستغناء عن لغة المهاترات والعنف، واستبدالها بلغة التعاطي الديمقراطي، والحوار الهادئ الرصين، والمنافسة الشريفة على مسار العقل، والعدل، والانصاف، والموضوعية، والمنطق السليم.

٦ـ الوعي الكامل بالمكيدة الكبرى التي يحوكها الاعداء المتربصون حسب سياستهم القديمة الجديدة (فرق تسد)، والتي سمع العالم كله اجرأ مسؤول في التصريح بها وهو (مارتن اندك) يعلنها جاهرة بلا تردد، ومعرفة أنَّ ازلام هؤلاء الكائدين بالفتن ودسائس الاحتراب الداخلي ـ موجودون جاهزون لاداء ما يكلفون به من مأموريات الفتنة، والتخريب، والايقاع، والتكفير، والتمهيد للحرب الاهلية، والاقتتال الداخلي الذي هو اشهى ما يبتغيه اعداء الشعب الذي لا يريدون له الاستقرار، والاستقلال، والخلاص من الاحتلال عبر الطريق الوحيد الممكن المعقول لاخراجه، وهم بانجاز تلك المأموريات يعدون الذرائع لبقائه وطول الامد لكابوسه.

٧ـ التأكيد على وحدة الفصائل والرموز السياسية، والتحام عرى المثقفين والكوادر الفكرية والطاقات العلمية، والتفافها حول الوضع السياسي الحكومي الذي تفرزه الانتخابات الحرة، لتفويت الفرصة على اعداء العملية الديمقراطية.

٨ـ اتخاذ هذه المرجعية الحكيمة مبدأ الوسطية في الساحة، والتزامها دور الشهادة على الوضع القائم، وما يستلزمه هذا الدور من الرقابة الحريصة، والنصيحة الشفيقة، والرأي الصائب، والتوجيه السديد، والمتابعة الدائبة،

والموعظة الناجعة، واذا تطلب الأمر كانت الكلمة القاسية المربية، والوعيد البنّاء، والتنبيه الرادع ـ فما دامت المرجعية أباً لهذه الأمة فإنَّ أبوتها الكبيرة، الرفيعة، الحانية، الرشيدة، المقتدرة، لا بد أنَّ تتجلى في ظروفها الصعبة، الحالكة، المليئة بالمخاطر والعثار والمكائد، ويكون تجليها بحزمها وصرامتها وقوتها، كما يكون كذلك باناتها، وحلمها، وسعة صدرها، وحكمتها، وكياستها، كما هو ديدن أسوة القادة الرساليين رسول الله صلى الله عليه وآله الذي وصفه ربه: ﴿ **عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾. ويتجلى النموذج الابهى لتلك الابوة الرشيدة في موقف هذه المرجعية في كارثة سامراء بتفجير مرقد الامامين العسكريين، حيث التزمت جانب الهدوء القيادي والاتزان في رد الفعل إزاء الفاجعة التي حركت الشارع الشيعي من أقصاه إلى أقصاه، وطالب فيها العنفوان الشعبي مرجعيته بصدور الحكم القاسي، ولكن المرجعية الوحدوية أبت إلا ضبط الأعصاب، وصدور الأمر الكريم بالتزام العقل والمنطق والهدوء، وتجنب كل ما فيه إثارة طائفية أو فتنة مذهبية.

٩ـ اذا كانت هذه المواقف الكريمة بحاجة إلى وثائق تؤيدها فأنَّ شواهد الواقع الملموس هي خير براهينها، وحيث أنَّ البيانات والفتاوى الصادرة من مرجعية الامام السيستاني في المواقع والاحداث التي تطلبت منها عوائد التدبير الحكيم، واستدعت التصميمات الرصينة النابعة من المنطق السليم والذوق الشرعي ـ هي خير ما يمكن أنَّ يقدمه هذا البحث لقرائه، فانه يعرضه عليهم غيضاً من فيض الجهود المبذولة في ميدان الادارة المتينة لأعقد وضع تشهده الساحة الدولية عموماً، وساحة الوضع العراقي في كل تاريخه على الخصوص.

الهوامش

(١) الامام الحكيم ـ قراءة تحليلية في السيرة الذاتية ـ الصفحة ٢٤١.

(٢) هذه المقطوعة وما يليها مأخوذة من كتاب ـ الوحدة في نظر الامام الخميني ـ موسسة نشر ـ آثار الامام الخميني .

(٣) رسالتنا ـ الصفحة ٥٥ ـ والدرر الامامية.

(٤) نداءات صوتية للشهيد اثناء محنة الحصار اليتيم.

(٥) مجلة الرياحين ـ العدد السابع ـ الصفحة ١٦.

(٦) مقالات الشهيد الصدر في الصحافة النجفية ـ الصفحة ١١٣ ـ دار المجتبى.

دور ثقافة الحوار
في نبذ الطائفية

❐ لاله افتخاري

لعبت مسألة الأديان والمذاهب على مرّ التاريخ دوراً محورياً وحاسماً في بناء المجتمعات البشريّة وتكاملها، وتعود جذور رغبة الإنسان وميله لعبادة الخالق إلى حقيقة الفطرة المتأصّلة في طبيعة هذا الكائن، ممّا جعلت منه أهلاً لنعمة الهداية التي أنعمها تعالى على بني آدم من خلال التشريعات السماويّة التي تقدّم للإنسان كافّة مقوّمات الحياة السامية.

و لذلك، فقد تواصلت حلقات النبوة بمرور الزمان، وجاءت الرسل تترى، في تناسقٍ منسجم مع نضج البشرية وتكاملها، إلى أن بعث الله سبحانه نبيّه المصطفي ﷺ خاتماً للنبيّين، وشرّع تعالى شأنه دين الاسلام كعصارة لمجموع ما سبقته من الأديان والشرائع.

لقد واجهت معظم الأديان والشرائع السماويّة تحدّيات كبيرة طوال فترات تاريخها؛ إذ نشأ في إطار كلّ واحد منها فرق ومذاهب مختلفة، فتنوّعت الملل والنحل بتنوّع الأديان والشرائع، وظهرت حالة من التعدّديّة الدينيّة والمذهبيّة.

و يشير المفهوم المعرفيّ للتعدّديّة في المجال الدينيّ والمذهبيّ إلى أنّ الأديان والمذاهب رغم تنوّعها فإنّها ترشد أتباعها إلى هدف واحد، وتسلك اتّجاهاتٍ مختلفة عن بعضها للوصول إلى غاية واحدة.

و بطبيعة الحال، فلا تخلو هذه التعدّديّة عن مساحاتٍ مشتركة وفواصل مفرّقة في الوقت نفسه، بين القراءات المتعدّدة، والاجتهادات المتنوّعة في إطار الدين الواحد، أو ما يصطلح عليه ب« المذهبيّة».

فأمّا القواسم المشتركة ونقاط الوفاق، فإنّ التركيز عليها يؤدّي إلى التقريب بين تلك المذاهب، وبالت: تحقق الوحدة، وفي المقابل، فإنّ التأكيد على أوجه الاختلاف ينتج التباعد والتنافر، ومن ثَمّ الفرقة والتناحر.

و هنا يأتي دور الأمة الإسلامية لتحسم موقفها وتختار ما تختاره من هذين المسارين المتقابلين، وتنتهج الأسلوب الذي يسير بها في أحد الاتّجاهين، فإن اختارت منهج التطرّف والتعصّب الأعمى والطائفيّة البغيضة، تفرّقت كلمتها، وتشتّتَ صفّها، وانهارت قواها، وإن ركّزت على نقاط الوفاق المشتركة وقرّبت وجهات نظرها وانسجمت، التأم شملها، وتوحّد كيانها، وانطلقت تخطو لاستعادة أمجادها الغبرة.

و نحن في هذه المقالة سنسلّط الضوء على إحدى المناهج البالغة التأثير في التقارب المذهبّي ووحدة الأمة الإسلامية، ونبذ الفرقة والطائفية العمياء، وهو منهج الحوار الذي يؤكد عليه ديننا عبر النصوص الكثيرة.

و لا ريب أنّ الحوار الشامل والمشترك بين أتباع المذاهب الإسلامية، لا سيّما على مستوي العلماء والباحثين والمفكّرين هو الحل المنطقيّ والصحّيّ الذي من شأنه التقريب بين المذاهب الإسلامية وتحقيق الانسجام الإسلاميّ وصولاً إلى الوحدة الإسلامية الشاملة.

الحوار ومكانته في المجتمعات البشريّة

طوال الفترات التي مّر بها تاريخ البشريّة، لعب الحوار دوراً أساسيّاً في حياة الإنسان، فالإنسان بطبيعته يميل للغة الحوار والمناقشة والمجادلة، وقد استفاد من هذه الخاصّيّة في جميع المجالات. وتتجلي أهميّة الحوار في المجتمعات البشريّة في المقدّمتين التاليتين:

١ـ أصل فطريّة التفكير

لقد أنعم الله على الانسان بنعم كثيرة لا تعدّ ولا تحصى، ومن أكبر هذه النعم: نعمة العقل والقدرة على التفكير، فقد خلق الله تعالي الانسان مفطوراً على هذه القدرة بما منحه من قوّة عاقلة مفكّرة تميّزه عن باقي الكائنات الحيوانيّة.

٢ـ أصل فطريّة النطق

و كما خلق الله سبحانه الانسان مفطوراً على قدرة التفكير، فكذلك خلقه مفطوراً على النطق، وجعل له اللّسان آلة ينطق بها، ويحاور بواسطتها بني جنسه، فالقدرة على النطق والبيان موجودة في طبيعة الانسان، قال تعالى في محكم التنزيل: ﴿ **خَلَقَ الْإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ** ﴾ [الرحمن/٣-٤]

و بعد انضمام هاتين المقدّمتين، يتّضح دور الحوار بما له من أهميّة قصوى في تبادل الأفكار وتعاطي المعلومات والتواصل الاجتماعيّ، ممّا يؤدي بالتالي إلى تنمية المجتمعات وتكاملها على كافة الأصعدة العلميّة والفكريّة والثقافيّة و.....

دور الحوار في تطوير العلاقات الثقافيّة

أ ـ الحوار كآلية للتبادل الثقافيّ:

يعتبر الحوار عاملاً مهمّاً في تبادل الأفكار والرؤى في المجتمعات البشريّة، فالأفكار الإنسانية تجد في الحوار مجالاً رحباً للتبلور والظهور، وتنتقل عبر هذه الوسيلة للآخرين. وتظهر أهميّة هذا الموضوع بشكل خاصّ في حالة حدوث مواجهة بين المجتمعات البشريّة ذات الأفكار والثقافات المتنوّعة، أو التي لها رؤى عالميّة، أو معتقدات دينيّة متباينة ومختلفة عن بعضها البعض، فحينها يأتي الدور الفاعل للحوار. كوسيلة لتبادل وجهات النظر وتعاطي المعلومات والتجارب المكتسبة، وهو ما يعبّر عنه بـ« التبادل الاجتماعي الثقافيّ».

و بعبارة أخري: فإن المجتمعات البشريّة، ومن أجل التعارف فيما بينها وتفادي المواجهات، لا بدّ لها من التبادل الثقافيّ والدينيّ، ولأجل تحقيق هذا الهدف لا مفرّ لها سوى الرضوخ لمنطق الحوار.

ب ـ إنّ من شأن الحوار يتمّ في الاتّجاه الصحيح الهادف- بعيداً عن المسائل الهامشيّة ـ الى رفع من المستوى المعنويّ والأخلاقيّ للإنسان وأن يضيء له درب الوسطيّة والاعتدال والتعايش والتعايش السلمي. قال سبحانه وتعالى: ﴿ **فَبَشِّرْ عِبَادِ(١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ** ﴾ [الزمر/١٧ـ١٨].

و من الناحية العلمية، فإنّ الحوار يعتبر أسلوباً من أساليب الفهم المتبادل على مستوى الأفراد والمجتمعات، وطبقاً لقواعد علم النفس: فإنّ للحوار دوراً كبيراً في الآلف القلبيّ والتوادد بين المتحاورين، مضافاً إلى تأثيره البالغ في انتهاج السلوك العقلانيّ والمتوازن، ويعتقد « بارنت كينكيد» وخبراء آخرون في علم الاجتماع أنّ مواصلة العلاقات الاجتماعيّة والاستمرار في تبادل المعلومات ينتجان حالة من التفكّر الجماعيّ المنسجم والمعتدل في المجتمعات البشريّة[1].

أهمية الحوار الدينيّ في نبذ الاختلاف

أ- مفهوم الحوار الدينيّ :

ينبغي أن يشتمل الحوار الذي يجرى على مستوى الدينيّ على عدّة ركائز أساسية، وقد صوّر لنا القرآن الكريم هذه الركائز بأروع بيان حيث قال تعالى: ﴿ **ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ﴾ [النحل/١٢٥]

و حسبما جاء في كتب التفاسير، فأنّ هذه الآية تتضمّن ثلاث نقاط أساسية، يجب أن يتقيّد بها أسلوب إجراء الحوار المذهبي، وهي: « الحكمة » و« الموعظة »

و« المجادلة » ويرى بعض المفسّرين: أنّ عبارة ﴿ **ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ** ﴾، ناظره إلى الاستدلالات والبراهين العقلية، وعبارة ﴿ **وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ** ﴾ تشير إلى التعامل بعطوفة ولين مع الأشخاص الذين لا يستوعبون مفهوم المنطق والاستدلال، أمّا عبارة ﴿ **وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ فتتعلّق بالذين امتلأت أفكارهم بالمسائل الخاطئة، بحيث يجب ابتداء العمل على إزالة تلك الأفكار لي تستعدّ عقولهم للإذعان للحقّ.

و في آية أُخرى: ﴿ **وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ** ﴾ [العنكبوت/٤٦] أي: لا تجادلوهم إلّا بأفضل الطرق التي تؤدّي إلى الإقرار والإذعان للحقّ، وهنا قد يكون المقصود أفضل الطرق والوسائل من ناحية الاستدلال والبرهان، أو يكون المراد أفضلها من جهة التلاؤم مع الطبع الإنسانيّ، كما ورد ذلك في قوله تعالى ـ مخاطباً موسى وهارون ـ ﴿ **فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى** ﴾ [طه/٤٤] أو يكون المراد الجهتين معاً.

وهناك أيضاً آيات أُخرى في هذا السياق، منها قوله تعالى: ﴿ **وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ [الإسراء/٥٣] وقوله: ﴿ **وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا** ﴾ [البقرة/٨٣].

وحاصل الكلام: أنّ هناك آياتٍ عديدة في القرآن الكريم تؤكّد على ضرورة القول الحسن والحوار الصحّيّ البنّاء في تعامل المسلمين مع سائر الأديان والثقافات الأُخرى.

ب- أنماط المحاورة الواردة في القرآن الكريم

ورد مفهوم المحاورة في القرآن الكريم في مواضع عديدة، وفي إطار ثلاثة مفاهيم هي: « القول » وتكرّر في ٥٢٧ موضعاً، و« الحوار » الذي ورد في ٣ مواضع، و« الجدل » الذي تكرّر ٢٩ مرة.

من جهة أُخرى، فإنّ المحاورات الواردة في القرآن الكريم جاءت في إطار أشكالٍ وصور مختلفة، وهي كالتالي:

١) الحوارات الإليّة، وتشتمل:

أ. الحوارات الإلهيّة مع الملائكة.

ب. الحوارات الإلهية مع الأنبياء.

ج. الحوارات الإلهية مع العباد.

٢) حوارات البشر، وتشمل:

أ. حوار البشر مع الله سبحانه وتعالى، هو على نحوين:

- حوار الأنبياء مع الله سبحانه وتعالى.

- حوار العباد مع الله سبحانه وتعالى.

ب. حوار الانسان مع آخر، وهو أيضاً على صنفين:

- حوار الأنبياء مع الناس.

- حوار الناس مع بعضهم البعض.

و الصنف الأخير هو المقصود في الحوارات الدينيّة والمذهبيّة والثقافيّة.

٢) حوار سائر المخلوقات ويشمل:

أ. الحوار بين الأنبياء والمخلوقات.

ب. حوار المخلوقات مع بعضها البعض.

و جميع هذه الحوارات تمّت بصورة مباشرة أو غير مباشرة، وبين طرفين أو عدّة أطراف.

و هنا ينبغي ذكر عدّة نقاط فيما يخصّ النظرة الدينيّة بالنسبة لمسألة الحوار:

أ. ضرورة الحوار وأهميّته في المجتمعات الإنسانية المتنوّعة.

ب. مكانة الحوار ودوره الفاعل والمؤثر في نقل الأفكار والأنظار والمقاصد.

ج. إمكانيّة الاستفادة من أساليب الحوار المتنوّعة بما يتناسب مع كلّ حالة من الحالات.

ونظراً إلى إمكانية الاستفادة الواسعة من آلية الحوار في المجالات الدينيّة والمذهبية، فإنه يمكن استثمار هذه الآلية للحصول على أقصى درجات النجاح والوصول إلى أهداف هي في غاية الأهميّة، وخاصّة فيما يخصّ الحوار على صعيد المذاهب الإسلامية، فإنّ التزام الأمّة بالحوار والتفاهم وتبادل وجهات النظر من شأنه القضاء على كلّ آثار الخلافات والتراكمات السابقة، والانطلاق نحو آفاق الوحدة الإسلاميّة الشاملة عبر مسار التقريب بين المذاهب الإسلاميّة.

ج) أُسس وضوابط الحوار الدينيّ:

أشرنا سابقاً إلى مدى التأثير البالغ لمنهج الحوار في المجال الدينيّ، والتساؤل الذي يطرح نفسه هنا هو: كيف يمكن الاستفادة من هذا المنهج في سبيل تحقيق الوحدة؟، وما هي ضوابط الحوار المنشود؟ إذ من الواضح أن ليس كلّ حوار دينيّ تقريبيّ يمكن له أن يثمر النتائج المتوخّاة.

و في الحقيقة، فإن الحوار الدينيّ يجب أن يبتني على أُسس وضوابط محدّدة لإيجاد الأثر المناسب في الحدّ من اتّساع هوّة الخلافات والقضاء على جميع حالات التعصب والتطرّف.

و يرتكز الحوار الدينيّ علي الأُسس والقواعد التالية:

١- مجالات الحوار:

أ. ضرورة الحوار في جميع الظروف:

و قد أشرنا إلى هذه المسألة سابقاً وقلنا إنّ الحوار هو من أهمّ الوسائل الناجعة للتخلّص من كافّة المشاكل والمعضلات، وفي جميع الحالات والظروف، ويظهر من آيات الذكر أنّ الأنبياء والرسل كانوا يدعون قومهم إلى الحوار مع ما هم عليه من المعتقدات. ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ**﴾ [آل عمران/٦٤].

ب. ضرورة تعيين محاور الحوار:

حيث يجب على كلا الطرفين تعيين المحاور الرئيسية التي يقصد إجراء الحوار حولها، وإلّا، دخل الطرفان في متاهة ولم ينتج الحوار شيئاً، لا، بل قد يزيد ذلك من الاختلاف.

ج. التزام الطرفين بالأصول العقليّة المعلومة بالضرورة:

إذ لا يمكن الحصول على أيّة نتيجة من الحوار باللّجوء إلى المعاندة وإنكار الأمور البديهيّة. قال تعالى: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ**﴾ [البقرة/١٧٠].

٢- مستلزمات الحوار:

أ. التخصّص في موضوع الحوار والمساواة في المستوى العلميّ والمعرفيّ:

فمن الضروري أن يمتلك الطرفان التخصّص المناسب في موضوع الحوار، ويكونا على مستوى واحد من الجهات العلميّة والمعرفيّة، فلو كان أحد الطرفين أو كلاهما لا يمتلك المعلومات اللّازمة أو التخصّص الضروريّ في موضوع الحوار، فلا ثمرة له حينئذٍ. قال الله عزّوجلّ:

﴿ هَا أَنتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران /٦٦].

ب. الحياد ومراعاة الإنصاف:

إذ لا يكاد يخفى على أحد: أنّ الحوار ينبغي أن يتمّ في مناخ تسوده الثقة المتبادلة، وأن يُراعى فيه الحياد والإنصاف، قال تعالى مخاطباً نبيه الأكرم ﷺ ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [القصص/٤٩]، أي: من التوراة والقرآن الكريم، وفي هذا السياق أيضاً يؤكّد القرآن الكريم على اهمية اتّباع الأحسن من الأقوال، قال عزّ اسمه: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ [الزمر/١٧-١٨].

٣ـ ضوابط الحوار:

أ. مراعاة آداب الحوار:

فلابدّ حين الحوار من مراعاة الأُطر والمعايير الأخلاقية والاحترام المتبادل، وعدم إثارة الحساسيّات، والاجتناب عن الإساءة والتهديد والتكفير، وما إلى ذلك، فإنّ رعاية القيم والموازين الأخلاقية في الحوار، بالإضافة إلى كونها نابعة من التعاليم والقيم الإسلامية، فإن لها آثاراً ونتائج روحيّة وعاطفيّة عديدة، منها: بناء الثقة وتقارب القلوب وتآلفها، وفي المقابل، فإنَّ اللّجوء للإساءة والسبّ والتهديد وغيرها من الأمور المنافية للمبادئ الشرعيّة القويمة لها آثار سلبيّة مدمّرة كثيرة، أخفّها: التشاؤم والتنافر وسلب الثقة والاعتماد بين الطرفين واللّجاجة في الرأي. قال سبحانه: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام/١٠٨].

ب. ضرورة الحوار في ظلّ مناخ علميّ بعيد عن المشاعر أو الانطباعات

السابقة لأوانها:

ت. **فمن الضروريّ لكلا الطرفين ممارسة الحوار** في ظلّ الأطر العلميّة والبحثيّة وتجنّب المسائل الهامشيّة المرتكزة على المشاعر أو الانطباعات السابقة، فالمهمّ في الحوار هو الاستدلال المنطقيّ السليم: ﴿ **قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ [النمل/٦٤]، والابتعاد عن السجالات والمناقشات اللّفظيّة: ﴿ **مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ** ﴾ [الزخرف/٥٨].

ج. توفير مساحة للأطروحات الكفريّة الجديدة:

فالإسلام يُولي أهميّة كبري للعطاء الفكريّ والعلميّ ويدافع بشدّة عن حرّية الفكر وحرّية الإبداع.

٤- أسلوب الحوار:

أ. الاستماع لرأي الآخر:

حيث ينبغي على كلّ طرف من الأطراف الحوار الاستماع لآراء ووجهات نظر الطرف الآخر: ﴿ **فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ** ﴾ [الزمر/١٧-١٨].

ب. اتّباع أفضل أساليب الحوار:

فإنّ القرآن الكريم يؤكّد على ضرورة الاستفادة من الأسلوب الصحيح في الحوار: ﴿ **ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾، ﴿ **وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾.

ج. ضرورة الاستدلال العقليّ والمنطقيّ:

و قد أشرنا إلى هذه النقطة مسبقاً، وقلنا إنّ الحوار يجب أن يحدّد في سياق الأطر العلميّة والبحثيّة، ونضيف هنا: أن المباحث العلميّة المطروحة على مائدة

الحوار يجب أن تعتمد على الأدلة والبراهين العقليّة والمنطقيّة الواضحة والصريحة: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ ﴾؟

د. إضفاء المؤثّرات العاطفيّة على المباحث العقلانية:

و يتمّ ذلك بطرح بعض المسائل التي تبعث على التوادد والتآلف بين القلوب، ممّا يؤدي للمزيد من الاطمئنان والثقة والاعتماد المتبادل بين طرفي الحوار، وهو ما يعبّر عنه القرآن الكريم ب « الموعظة الحسنة » وقد تقدّم أنّ هذا الأسلوب يمكن أن يؤثر فيما لو لم يتفهّم الطرف الآخر منطق الاستدلال والبرهان.

هـ. ضرورة التعرّف علي المساحات المشتركة والارتكاز عليها:

و تأتي أهمية هذه النقطة إلى أنّ من أُولى أهداف الحوار المشترك هو تعرّف الطرفين على نقاط الوفاق والمساحات المشتركة، فيجب على المتحاورين إذاً السير في هذا الاتجاه كمقدّمة لمواصلة الحوار، ومن النماذج التي يمكن التمثيل بها في هذا السياق قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ [آل عمران/٦٤].

فالتأكيد في الآية الكريم على كلمة آو النقطة المشتركة له دلالة على أهمية هذا الموضوع واعتباره محوراً رئيسياً لمواصلة مراحل الحوار اللاحقة.

فظهر إذاً مما سبق أن الحوار حب الرؤية الإسلامية يشتمل على الخصائص والمميزات التالية:

- كونه من أهم الأساليب التي يمكن بواسطتها مواجهة التمزّق والانهيار الاجتماعي.

- إنّ الانسان بطبيعته يميل نحو الحوار.

-أنّ الحوار على صعيد الدينيّ ذو ماهيّة تقريبيّة ووحدويّة.

-إنّ المحور المشترك للحوار الدينيّ هو القضاء على ظواهر الفرقة والاختلاف.

- وبعد أن أتضح كلّ هذا، نتعرّض الآن للبحث حول الموضوع الرئيسيّ الذي لأجله أُعدّت هذه الورقة، وهو: (دور الثقافة الحوار في نبذ الطائفية).

الأمة بين المذهبية والطائفية

١ـ **المذهبية** نشأة المذاهب الإسلامية إلى الفترة التي تلت وفاة النبي الأعظم ﷺ، إذ إن المسلمين إبّان حياة النبي ﷺ بصورة مباشره، ولم تكن هناك حاجة للاجتهاد كما هو واضح، وبعد رحيله ﷺ برزت الحاجة الماسّة للاجتهاد[٢] للإيفاء بالمتطلّبات المستحدثة، إثر توسّع الاحتياجات، وكثرة الحوادث، وظهور مسائل ومفاهيم جديدة، وازدادت الحاجة إلى الاجتهاد والاستنباط في عصر التابعين.

و بمرور الزمان ونظراً لاختلاف القراءات، وتعدّد المسالك والمشارب، وتباين الرؤى والأنظار بالنسبة لمبادئ الشريعة ومقاصدها، ظهرت أُولى معالم نشوء المذاهب الإسلامية، ويرى بعض المفكرين « أن العالم الإسلامي شهد منذ أوائل القرن الثاني وحتى منتصف القرن الرابع ١٣٨ مدرسة ومذهباً فقهياً، حتى أن الكثير من البلدان كان يمتلك مذهباً خاصاً به »[٣].

إن تعدد المذاهبـ مضافاً إلى كونه حالة طبيعية ومتوقّعه، لما أشرنا إليه آنفاً من تباين الاستنباطات الفردية وجهات النظر في فهم مقاصد الشريعة، فهو يشكل ثروة هائلة للحضارة الإسلامية، ويعتبر عنصراً ايجابياً فاعلاً في ازدهار المجتمع الإسلامي وتكامل على كافة المسارات الفكرية والعلمية والثقافية والاجتماعية، ما

دام يأتي في إطار الشريعة الإسلامية الواحدة.

٢ـ الطائفية، أسبابها وأثارها:

واصلت الحركة الذهبية مسيرها في الاتجاه السليم بصورة عامّه فترةً من الزمن، وقطعت أشواطاً أثمرت من خلالها عن نتائج إيجابية ملموسة، وأسهمت في إغناء الفكر الإسلامي الحضاري، ولكنها انحرفت فيما بعد عن مسارها، وتبدلت هذه الظاهرة الصحية الطبيعية إلى ظاهرة سلبية، وتحولت المذهبية المحمودة الى طائفية ممقوتة، وراحت الأمة الإسلامية تشهد فتراتٍ مربعة يُمارس فيها شتّى أصناف التكفير والتفسيق والتبديع، مما أدى الى نزاعاتٍ مريرة خلّفت كوارث مفجعة وآثاراً مدمرة على الأمة الإسلامية ككلّ.

و تؤكد الدراسات العديدة « أن هناك عوامل كثيرة ساعدت على انحراف الاتجاهات المذهبية نحو الطائفية، نشير هنا الى البعض منها:

١ـ الجهل الذي هو آفة الآفات.

٢ـ التعصّبات العمياء.

٣ـ الأطماع السياسية للحكام المنحرفين.

٤ـ المصالح الشخصية الضيّقة لبعض الانتهازيّين.

٥ـ تصدّى البعض ممن ليس أهلاً للاجتهاد لهذه المسؤولية الخطيرة.

٦ـ أعداء الإسلام من خارج العالم الإسلامي، و.... »[٤].

أنواع الاختلاف

الاختلاف بين أتباع الدين الواحد نوعان: محمود ومذموم:

أـ الاختلاف المحمود :

و هو الاختلاف في المسائل الدينيّة الفرعية وبعض مسائل العقيدة التي لا تمسّ الأصول القطعية، ويعود سببها الى تنوع الاجتهادات وتباينها باختلاف مصادر التشريع والمباني العلمية. وهذا النوع من الاختلاف هو اختلاف وتنوّع محمود.

يقول المرحوم السيد عبد الحسين شرف الدين: « إن الاختلاف الذي يحصل بين مجتهدين من مذهب واحد، مردّه الى كيفيّة استنباط الحكم من مصادر الاستنباط وهذا الأمر ينطبق علي الاختلاف بين أتباع المذاهب، فلا يمكن لأتباع إحدى المذاهب إبطال اجتهاد أتباع المذهب أو المذاهب الأُخرى.

ب ـ الاختلاف المذموم

و ترجع أسبابه الى عدة أمور، أهمّها: التعصّب للأشخاص أو المذاهب، والإعجاب بالرأي، والمسارعة في اتّهام الآخرين من دون بيّنة وتفسيقهم وتكفيرهم، وبعض العوامل الأُخرى.

و هذا الاختلاف هو ما يؤدي في نهاية المطاف إلى الطائفية.

يقول المرحوم الشهيد مطهري بهذا الشأن: « إنّ أحد أسباب تأسيس الحضارة الإسلامية هو حالة التسامح الحاكمة على علاقات المسلمين مع أتباع الأديان الأُخرى، وكذلك مع بعضهم البعض، رغم اختلاف الأفكار والمشارب، وعلى العكس تماماً من تلك العصور، نشاهد اليوم جوّاً مليئاً بالأفكار الضيقة والمحدودة التي تخطّئ الجميع وتكفّرهم وتفسّقهم...، إنّ القرآن الكريم يقول بالنسبة للاختلاف: ﴿ **وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ** ﴾ ويقول النبي صلى الله عليه وآله : (اختلاف أُمّتي رحمة). وإن لِمَن أهمّ النتائج المدمّرة لهذه الأفكار الضيّقة التي تؤدّي للتخطئة والتكفير والتفسيق، هو الفرقة وتشتّت القوى والطاقات »[٥].

دور الحوار في نبذ الفرقة والاختلاف:

تقدّم أن الحوار له دور أساسي وفاعل في التقريب الثقافي والاجتماعي، وفي المقابل، فإن المجتمعات البعيدة عن عالم الحوار وإيجاد العلاقات المتبادلة، تسير في المنحى الذي يؤدّي بها الى الفرقة والتشتّت والتمزق الاجتماعي، فإثر عدم الحوار يحصل هناك تباعد في داخل المجتمع الواحد، أو بين المجتمعات المتعدّدة، مما يولّد حالةً من التخوّف والتشاؤم، ويخلق مناخاً مضطرباً، ويبعث على التصرفات غير المتوازنة، وباستمرار هذه الحالة تظهر حالات التخاصم والتنافر على المستوى الاجتماعي والثقافي، وهو بدوره يؤدّي إلى الاختلاف، فالفُرقة- في نهاية المطاف.

و في الحقيقة فإنَّ الكثير من المشاحنات والسجالات الثقافية والدينية لا تحصل إلا عبر سلوك هذا المنحى الذي نهت عنه النصوص الإسلامية بشدّة وحزم، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ **وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ** ﴾ وفي آية قرآنية أُخرى ﴿ **وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ** ﴾.

الحوار كآلية فاعلة للتقريب بين المذاهب الإسلامية

يعتبر الحوار في حدّ نفسه وسيلة للتقارب والتلاحم ولمّ الشمل، ونعتقد أن هذا الموضوع هو أحد مقاصد التأكيد على ثقافة الحوار في النصوص الإسلامية.

و في الحقيقة فإن الحوار يجب أن يتمّ بهدف تبادل وجهات النظر والأفكار، وهو ما يؤدّي في مرحلة لاحقة إلى حصول التفاهم المتبادل بين الأطراف بالاستناد إلى المساحات والقواسم المشتركة، وفي صورة مواصلة الحوار، فإنّ التفاهم المذكور يبعث على الانسجام، وهو بدوره يثمر عن تقارب الرؤى والأفكار، وبالتالي:

تحقيق الوحدة العمليّة الحقيقيّة.

و نصطلح على مجموع هذه المراحل المتتالية: (نموذج ثقافة التقريب).

و يمكن تطبيق هذا النموذج على مسألة التقريب بين المذاهب الإسلامية بالبيان التالي:

فقبل كلّ شيء، يتمّ الحوار بين أتباع المذاهب الإسلامية بهدف الوصول الى المساحات المشتركة بين المذاهب وتعيينها، وفي المرحلة اللّاحقة، وفي صورة استمرار الحوار والتواصل، فإن ذلك يُنتج التفاهم والتوافق على مجموعة من القواعد والأصول الأساسية التي تؤدّي بدورها إلى خلق الانسجام في العالم الإسلامي ومن ثمّ التقريب بين المذاهب الإسلامية، وأخيراً الوحدة الإسلامية الشاملة.

الهوامش

(١) Cultural convergence_barnet. GA AND KINCAID -ص ١٧٥

(٢) هذا إنّما يصحّ في الجملة، وبالنسبة الي بعض المسلمين لا جميعهم فإن المسلمين الذين عملوا بقول الرسول' في حديث الثقلين المتواتر والمشهور لدى كافة المسلمين شهرة عظيمة: « إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلوا بعدي، فإنهما لن يفترقا حتي يردا عليّ الحوض» هؤلاء - وهم الشيعة الإمامية الإثنا عشرية على وجه الخصوص - لم ينفتح لديهم باب الاجتهاد إلّا بعد غيبة إمامهم الثاني عشر$ لأنهم رأوا - بحقّ- في الحديث المذكور دلالة على أن قول العترة الطاهرة هو نفسه قول النبي'، ورأيهم هو نفسه رأيه'، فانسداد باب النصّ عندهم كان في مراحل متأخرة زمنياً بالنسبة إلى ما كان عليه الحال عند سائر فرق المسلمين.(التحرير).

(٣) انظر: تاريخ الفقه الاسلامي: ص ٨٦.

(٤) آية الله الشيخ محمد علي التسخيري، أساليب وآداب التفاهم والتقريب بين المذاهب الاسلامية: ص ٥،(نقل بالمعني).

(٥) مذكرات الشهيد المطهري ص ١٥٥ .

التجديد في الفكر الإسلامي

و عنصر المرونة في الشريعة

❐ آية الله الشيخ محمد على التسخيري

قد لا نأتي بجديد لو تحدثنا عن أهمية إعادة النظر المستقرة في مضامين الفكر الإسلامي وصيغه بهدف تجديدها وتفعيل العناصر الساكنة فيها: لأن استشعار هذه الأهمية من قبل اصحاب الفكر والإختصاص بات من البديهيات التي لا تحتاج إلى دليل. وحسبنا ان الواقع المتغيّر والحوادث المستجدة وسرعة التطور التي نعيشها بشكل يومي، تجعلنا في مواجهة دائمة ومباشرة مع ضرورة التجديد في الفكر الإسلامي وهذا لا يعني أن الضرورة تبيح لنا فتح الباب على مصراعيه أمام كل دعوة للتجديد أو كل منهج يهدف إلى التجديد، بل على العكس فإن تزايد تلك الأهمية تتناسب طردياً مع تزايد الحاجة إلى ضبط العملية التجديد وتقنيتها بطريقة التي تجعل من التجديد وسيلة تمكِّن الفكر الإسلامي من استيعاب كل المجالات الحياة، وتجعل الاجتهاد أداة الواقع للشريعة، وحينها لا يكون التجديد هدفاً بذاته لا بل وسيلة لبلوغ الغاية التي يحقق الدين من خلالها مقاصده وأهدافه.

إن عملية التجديد التي نقصدها في ايجاد صيغ فكرية جديدة تعتمد المصادر الإسلامية المقدسة، سواء كانت هذه الصيغ جديدة في موضوعاتها أو انها معالجات لموضوعات قديمة أو انها إعادة تنظيم أفكار موروثة والمهم هو أن تكون هذه الصيغ قادرة عن الاجابة على التساؤلات الجديدة، وقادرة أيضاً على تلبية الحاجات المتغيرة التي تفرضها تحولات الزمان والمكان.

و على هذا الأساس فإن الاجتهاد لصيق بعملية التجديد، فهو أداتها والمولِّد

الذي ينتج مواد التجديد وبرغم أن الاجتهاد يعني اصطلاحاً- على وفق الفهم الموروث- القابلية على استنباط الحكم الشرعي من مصادر التشريع الإسلامي، إلّا أن تعميمة ليشمل كل مجالات الحياة، أو بالأحرى كل مجالات الفكر الإسلامي التي تتدخل في كل زوايا الحياة، سيجعل الاجتهاد منسجماً مع أهداف الشريعة نفسها، والتي هي قانون الحياة إذن، فالاجتهاد هو أداة التجديد في فقه المجتمع، وفي الفكر الاقتصادي والفكر السياسي والفكر الاجتماعي وغيرها، فضلاً عن قضايا علم الكلام، وأدوات الاستنباط وآليات فهم المصادر الإسلامية المقدسة، فهذه كلها تحتاج إلى الاجتهاد للتجديد. وهذا ما يجعل عملية التجديد ضرورية وخطيرة في الوقت نفسه وتمكن خطوراتها في حساسيتها البالغة وآلياتها الدقيقة وطريقها العصب، لأن أي تهاون أو انحراف فيها- لا قدّر الله- سيؤدي إلى نتائج كارثية لا تتوقف آثارها على المجدد أو المجتهد أو المفكر وحده؛ بل تتعداه الى الامة بأكملها أو الى فصيل وشريحة منها ولا نبالغ اذا قلنا بأن المفكر داعية التجديد يمشي على حد السيف خلال عمله، وبالتالي فأي خطأ سينجم عنه منظومة كاملة من الأخطاء.

و تنطلق عملية التجديد من قاعدة المرونة أو عنصر المرونة في الاسلام، فعنصر المرونة هذا هو الذي أعطي للاجتهاد التجديد. تبدأ من فهم عنصر المرونة في الشريعة الاسلامية ومظاهرها وتطبيقاتها وهو ما سنحيله إلى محاور البحث.

بين التجديد والمرونة

التمييز بين التجديد في الفكر الاسلامي وعنصر المرونة في الاسلام؛ يمثل مدخلاً للتعريف على حقائق التجديد، ومدخلاً أيضاً لاكتشاف مظاهر المرونة وتطبيقاتها ويتم هذا التمييز عبر أساسين:

الأول: إن الفكر هو تصور مستقي من الاسلام، أي أنه نتائج فهم المفكر للمصادر الاسلامية المقدسة عبر الأدوات الشرعية للفهم. وهذا الفهم- الذي يبذل فيه المفكر كل جهده ليكون النتاج الفكري أكثر قرباً من مراد الشارع المقدس- له علاقة ايضاً بطبيعة فهم المفكر للواقع ومن هنا فان الفكر المنتج يتأثر بثقافة المفكر ومعرفته بالعلوم ذات المدخلية بموضوع الفكر، فضلاً عن بيئة المفكر واستجابته لعوامل الاختلاف ونوعيته واحاطته بجوانب الموضوع وهذه العوامل متغيّرة من مفكر لآخر، الأمر الذي يؤدي إلى بروز نوع من الاختلاف بين النتاجات الكفرية فإن عملية الاستنباط هذه أو الفهم هي الحيز البشري في الفكر الاسلامي وبالتالي فالتجديد الفكري يتأثر بمجمل هذه الحقائق؛ لأنه غاية المفكر التي يستخدم من أجل الوصول إليها فهمه للأصول المقدسة وللواقع أيضاً وهو الذي يعبِّر عنه بالاجتهاد.

أما الإسلام فهو نظام شامل ومتكامل، ويعبِّر عن الثوابت التي لا تقبل التجديد بذاتها وللإسلام أساليب ثابتة في التعامل مع الجانب الثابت في الحياة الانسانية، وله أيضاً اساليب مرنة في التعامل مع الجانب المتغيِّر، أي أن مرونة الإسلام وشريعته السمحاء تقتصر على معالجة المتغيرات، التي تمثّل المساحة التي تتحرك فيها عملية التجديد.

الثاني: إن مرونة الشريعة تخلق مساحة مفتوحة من المتغيرات، وهي مساحة مشروعة تتدخل فيها الاجتهادات أو تصورات المفكر والعوامل المتغيرة في شخصيته وفي فهمه، والتي يعمل المفكر في اطارها على تنظيم الجوانب التقنينية (التشريعية) والتنفيذية للحياة، بهدف اخضاع الحياة للشرعية ومن هنا فان البعد المرن في الشريعة هو الذي يحدد مجالات التجديد في الفكر الاسلامي ومساحاته

وهذه المساحات تتسع كلما ازدادت متغيرات العصر وضغوطاته وتحدياته.

مظاهر المرونة في الشريعة

لا تعني المرونة التنازل المبدئي أو الميوعة التنظيمية، فإن كلا منها يتنافي مع عقائدية المبدأ، المرن وواقعية العملية؛ ذلك أنَّ العقائدية والواقعية توجبان ثبات الأسس العقائدية والمفاهيم التصورية وثبات النظم والبناء العلوي الذي يقوم على أساس من ذلك التصور الرصين. فالمرونة إذن- تعني التكتيك والتدرج الواقعي يلحظ ضغوط الواقع ويستهدف تعميق التصور الأصيل، والوصول إلى تطبيق الصورة التنظيمية المثلى كما تعني قدرة النظام على استيعاب التحولات الزمانية والمكانية والتعقيدات الاجتماعية كلها، ووضع العلاج الواقعي لها في إطار الأطروحة العامة للتنظيم. وبالتالي فالمرونة هي اتخاذ موقف مؤقت يتغير بتغير الحالة بهدف المحافظة على الموقف العام.

و العقيدة لا تخضع لعامل المرونة، فعي الثابت- بالمطلق- الذي لا يخضع للمساومة تحت ضغط الواقع. في حين أن التشريع وأساليب التطبيق والتبليغ فيها جوانب متغيرة، ولذلك فان لعنصر المرونة مدخلية في صياغاتها ونظمها وهنا يمكن سر خلود الاسلام وبقائه وقابلية على استيعاب كل ألوان التطور والتحدي وتتمثل أهم مظاهر المرونة في الشريعة الإسلامية بما يلي:

١ـ مقاصد الشريعة وقواعدها الفرعية، وهي كما يقول علماء أصول الفقه ـ على نوعين: مقاصد عامة، وترتبط بالغايات العامة للشريعة، والتي من شأن أحكامها الكلية تحقيق مصالح الأمة، أما المقاصد الخاصة، فهي ترتبط بغايات باب محدد من التشريعات التي تحقق مصلحة معينة من مصالح الناس والمقاصد الخاصة فيها أيضاً جزئية ترتبط بحكم شرعي معين وقد اختلف الفقهاء والأصوليون

في تحديد أنواع المقاصد العامة للشريعة، ولكنهم اتفقوا على خطوط عامة تدخل في إطار تحكيم العدالة وتحكيم الأخوة وحفظ الدين وحفظ النفس والعرض وحفظ النسل وحفظ المال وحفظ العقل وغيرها. وبما أنَّ قضية المقاصد ترتبط بتحقيق المصالح ودرء المفاسد، فإن الخشية من الوقوع في ملابسات الظنون الفردية التي تتجاذب الأفراد، تجعلنا نحيل هذه القضية في المجالات الفردية إلى قطع المجتهد فقط، أما بالنسبة للمجال الاجتماعي وأوامر الأمة فتحال إلى ولي أمر الأمة الشرعي؛ لتكون جزءاً من اختصاصاته في عملية التقنين، وهي بالتالي مساحة مرنة في الشريعة ترتبط باجتهاد ولي الأمر وتشخيصه المصلحة التي تحقق مقصد الشريعة. كما سيأتي.

٢ـ الاحكام الشرعية التي تحدد موضوعاتها الأعراف وأهل الخبرة، وهو ما يمكن أن نعبِّر عنه بتأثير الزمان والمكان في الاجتهاد ونوعية التأثير هذه لها مدخلية في موضوع المرونة لأن تأثير الزمان والمكان في موضوع الحكم الشرعي هو الذي يحدد مضمون الحكم الشرعي وشكله. ومن مظاهر ذلك اختلاف مصاديق المفاهيم من مكان الآخر، كطبيعة الإسراف والغني والاحترام وإعداد معينة نتيجة التزاحم بين ضرورة تطبيق الحكم والآثار السيئة التي قد تنجم عن التطبيق في ظل ظروف معينة قاهرة واذا كان الحكم يرتبط بعمل الامة فلابد من إيكال تشخيص التزاحم وتقديم الأهم لولي الأمر ايضاً.

٣ـ فتح باب الاجتهاد في استنباط الأحكام الشرعية، وهي المساحة الأكثر مرونة في الشريعة نفسها، أي أن عملية الاجتهاد عملية بالغة الدقة وبحاجة الى نوع متميز من تخصص الذي لا يستطيع اي مكلف بلوغه، بل ولا يستطيع المجتهد نفسه ممارسته برأيه واستحسانه فالمجتهد اذا لم يعثر على دليل من مصادر

التشريع فإنه يرجع الى الأصول العلمية، في اطار منهجية لصيقة بالشريعة ومثال ذلك المسائل المستحدثة والجوانب التنظيمية الجديدة، سواء على مستوى فقه المرور والتعليم، وقضايا الاعلام والاتصلات والفنون والآداب وغيرها والحقيقة أن النصوص التي تركتها مصادر التشريع (تحديداً القرآن الكريم والسنة الشريفة) تتناول قضايا الواقع المرتبط بفترة الصدور، وتتناول أيضاً الخطوط العامة للنظم الإسلامية، إضافة الى بعض الأحكام التي تستمر موضوعاتها جديدة، لا تعجز الشرعيّة مطلقاً عن تحديد احكامها، وذلك من خلال نافذة الاجتهاد، هذه المكرمة العلمية التي منحتها الشرعية للأمة (من خلال مجتهديها)، لكي تبقي قادرة على اخضاع واقعها لأحكام الدين الحنيف. وبالطبع فإن موضوع الاجتهاد يشتمل على تحديد دور العقل في عملية الاستنباط، كادراك المصالح العامة أو ادراك التلازم بين أحكامه وأحكام الشرع. ومن البديهي أن يرفض الشرع المقدس- خلال ممارسة عملية الاجتهاد- القواعد الظنية التي لم يقم على اعتبارها دليل قطعي، بل يحدد الاجتهاد في اطار القواعد التي قام على اعتبارها دليل قطعي، لأن الشارع لا يسمح للفكر البشر المحض أن يضيف من ذاتياته للاسلام. وهذا الامر دليل على دقة عملية الاجتهاد، وكونها لا تترك للمجتهد اختراع منهجية أو قواعد واصول غريبة عن جنس الشريعة، اي لا تفتح الباب على مصراعيه للمجتهد بأن يجدد ويصلح ويرتق ويطور في الشريعة كيفما شاء، هذا فضلاً عن غير المجتهد، فذلك من باب أولي بأن لا يتدخل في هذه الأمور التي ليست من اختصاصه.

٤ـ تشريع الأحكام (الشرعية) الثانوية في الحالات الطارئة: فالحكم الشرعي- ولإعتبارات مختلفة- ينقسم إلى حكم أوّلي وحكم ثانوي وحكم ولائي. وما يهمنا هنا هو حكم الثانوي، ويمكن أن نعرِّفه بأنه الحكم المجعول

للموضوع بلحاظ ما يطرأُ عليه من عناوين خاصة تقتضي تغيير حكمه الأولي وهذه الحالات الطارئة هي من قبيل « الضرر »، « العسروالحرج »، « العجز »، « الإكراه »، « الخوف »، « المرض »، « تزاحم الحكم عند تنفيذه مع حكم أهم منه »، « وقوع الحكم مقدمة لحكم آخر »، إضافة إلى تحوّل الأحكام الوجوبية الكفائية إلى تعيينية إذا انحصرت بشخصٍ واحد ومن هنا فالحكم الثانوي يعبِّر عن مرونة تشريعية. لأن المرونة هنا تعني الاستجابة لحالة الضاغطة بمقدار ما تحمله من ضغط والحالة الضاغطة هنا ليست دائمة، بل أنها استثنائية فمثلاً في حالة « الاضطرار » نستدل بالآية الكريمة ﴿.. **فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ** ﴾ [البقرة/١٣٧] في باب تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وغيرها وكذا في حالة « الحرج » فإن الآية الكريمة تقول: ﴿ **وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ** ﴾ [الحج/٧٨] وغيرها ولابد أن نؤكد هنا على أن الأحكام الثانوية تختلف عن الأحكام الولائية (أحكام ولي الأمر)، لأن الأحكام الثانوية هي أحكام شرعية وضعت للعناوين الطارئة، وتنحصر عناوينها فيما ذكر في القرآن الكريم والسنة الشريفة، فهي ترتكز عليها، بينما ترتكز الأحكام الولائية على المصلحة العامة ومتطلبات الوضع العالم للمجتمع، ويصدرها ولي الأمر من منطلق صلاحياته، وهو الذي يحددها، بينما يستطيع الفرد تحديد الأحكام الثانوية في أطار الضوابط والشروط المنصوص عليها.

٥ـ المساحة الذي ينفذ فيها حكم ولي الأمر، أو ما يصطلح عليه فقيهاً « الأحكام الولائية » أو « الحكومية » أو « السلطانية ». وهي مساحة من الأحكام خاصة بولي الأمر الشرعي، أي الذي تولي أمر المسلمين في اطار الضوابط الشرعية، ومنها قابلية على استثمار هذه المساحة من الأحكام الشرعية، وهي القابلية التي ترادف القابلية على الاستنباط، ونعرِّف الحكم الولائي بأنه الاعتبار الصادر من الحكم الشرعي يقتضي صلاحية الشرعية، والمتعلق بأفعال العباد، وهو

يشتمل على الأحكام التكليفية والوضعية. وهذه الأحكام لا تطلق على كل مجتهد، فذلك ما يؤدي الى تعدد الإرادات الاجتهادية، وبالتالي تفتت وحدة الأمة وتدمير كيانها، وهو ما يتناقض مع مقاصد الشريعة وروحها وغايتها، بل إنها تنحصر في الوالي حدت الشريعة مباني ولايته، أي الولي الحاكم، ومن هنا فالأحكام الولائية تختلف عن الأحكام الاولية والثانوية التي يحددها جميع الفقهاء، شريطة ان لا يكون فيها تقاطع مع الأحكام الولائية، كما أنها محددة بموضوعات معينة هي ساحة المباحثات في الشريعة وتشمل أساليب تطبيق الشريعة الاسلامية، كأساليب تطبيق النظام المالي والاقتصادي أو أساليب تطبيق مبدأ الشورى. وتدخل الأحكام القضائية في هذا الباب وبإختصار فإن ولي الأمر يصدر الأحكام الولائية في إطار الكليات الشرعية ومقاصد الشريعة، وليس له في هذا المجال- كما يقول الامام الخميني- أن يستبد بالأمر، بل عليه أن يستشير ذوي الخبرة والاختصاص، ثم ينتهي الى الحكم الشرعي في ضوء:

١ـ مصلحة الأمة، وهنا تسمح الشريعة لولي الأمر بالنظر في المصالح وتحديدها عبر استشارة المتخصصين.

٢ـ الأضوية الكاشفة ـ كما يُعبِّر عنه الامام محمد باقر الصدر ـ وهي التي أعطته إياها الشريعة ليسلطها على الواقع ويشخص الحكم المطلوب ومن هذه الأضوية الأحكام الولائية التي أصدرها الرسول العظيم بصفته ولياً للأمر، وهذا باب واسع لا نستطيع تفصيله هنا.

٣ـ الاولويات، وهي التي يواجه بها المساحة التي تتزاحم فيها الأحكام فيقدم الأهم على المهم، أو في إطار الاحتياط لقضية معينة، فيصدر حكماً يستبق فيه وقوعها أو مضاعفاتها، كما هو الحال في مجال سد الذرائع التي يظن أنها تؤدي إلى المفسدة، أما الذرائع القطعية الأداء فهي محرمة بالعنوان الثانوي الذي يشخصه

المكلف نفسه ولا تحتاج لحكم ولي الأمر.

و هنا لابد أن أوضح نقطة التقاء مهمة بين المدرستين الفقهيتين الكبريين، مدرسة أهل البيت عليهم السلام ومدرسة أهل السنة، وتتمثل في سماح مدرسة أهل البيت عليهم السلام لولي الأمر باستخدام قواعد المصالح المرسلة وسد الذرائع وغيرها، وهي القواعد التي لا يسمح الفقه الإمامي باستخدامها في عملية الاجتهاد بالنسبة لمجمل الفقهاء فعلي مستوي التطبيق فإن الجمهورية الإسلامية الإيرانية وضعت أعلى مجلس استشاري في الدولة هو «مجمع تشخيص المصلحة» أي اكتشاف مصلحة الأمة وتحديدها، ثم تقديم القرار لولي الأمر بعد دراسة دقيقة، ثم يقوم ولي الأمر بإصدار الحكم الشرعي المناسب ونرى أن هذا المجمع بيت في الخلاف - على مستوي التقنين ـ بين مجلس الشورى ومجلس حماية الدستور ـ إذ يتخذ القرار بتحديد القانون المناسب الذي ينظر فيه لمصلحة الأمة والدولة.

منافذ الفكر البشري إلى مساحة المشروعة

لا شك أنَّ هناك مساحات في الفكر الاسلامي لها علاقة بالفهم البشري ومدارك الانسان وطبيعة نظرته للواقع ورؤيته لمنهجية الانتاج الفكري، وهي المساحات التي يمكن نعدّها بشرية، وهذه المساحات تقصر على المتغيرات، اي المساحات المتغيرة في الفكر الاسلامي، ولا تتمدد الى الثوابت؛ لأن هذه الثوابت مقدسة وهي الدين بعينه ويمكن تحديد منافذ الفكر البشري إلى الفكر الاسلامي في المجالات التالية:

١ـ فهم مقاصد الشريعة، العامة والخاصة أو الجزئية فهذا الفهم متغيِّر من مفكر لأخر، وهنا قد تختلف النتائج التي يخرج بها المفكرون والفقهاء بالنسبة

لواقعة واحدة، مما يشير إلى بشرية هذه المساحة وبالطبع يتأثر هذا الفهم بعوامل متغيرة بشرية أيضاً كامتلاك ثقافة الواقع والعصر، وعمق النظرة وبعدها وشموليتها وغيرها.

٢ـ فهم المصاديق، اي تطبيق الكليات على جزئياتها وتطبيق المفاهيم على مصاديقها، وهكذا تتدخل ذهنية الفقيه والمفكر في نوعية التطبيق وفي اكتشاف المصاديق والجزئيات وتدخل في هذا الإطار أيضاً محاولات المجتهد للتخريج الفقهي للعقود الجديدة، كالتأمين مثلاً وهذا الفهم والتخريج يخضع لعنوان بشرية الفكر.

٣ـ سير عملية الاستدلال لدي المجتهدين وترتيب أدلتهم.

٤ـ تحديد موارد الأحكام الثانوية والظروف والمتغيرات التي ينطلق منها في تجاوز الحكم الأولي إلى الحكم الثاني، وهي مساحة دقيقة ومحدودة، ولكنها- في كل الأحوال- تتدخل فيها طبيعة استيعاب المجتهد وتشخيصه للموضوع، وبالتالي فهي مساحة متغيرة.

٥ـ تحديد ولي الأمر لمصلحة الأمة في قضية من القضايا، ونوعية تسليطه الأضوية الكاشفة على الموضوعات والأحكام، ونظرته لتحديد الأهم والمهم في الأحكام أو في موارد الاحتياط وهذه المساحات خاضعة هي الأخرى لطريقة تفكير ولي الأمر واستيعابه للواقع ودقته في تصريف الأمور واختيار الرأي الصائب بعد استشار مبدأ الشورى.

و في مجمل المساحات المذكورة تدخل عملية التأصيل والأسلمة والتجديد والاكتشاف والتي تهدف بأجمعها الى اختيار الأسلوب الأمثل لتطبيق النظم الإسلامية التي تنضمنها الشريعة، وهو ما يمكن أن نسمية بالتقنين أو التشريع ـ

مجازاً - وهي مساحات تتسع للفكر البشري ليتحرك فيها بحرية عملية ترشُدها الضوابط الشرعية ومقاصد الشريعة العامة.

و نشير هنا الى عملية التقنين لا تحوّل الحكم الشرعي إلى قانون بشري، وإنْ كان للفكر البشري دور في صياغته وتشكيله، بل إن عملية التقنين تتمثل في اكتشاف الحكم الشرعي لموضوع معين أو تحديد الأسلوب الشرعي لتطبيق هذا الحكم، واذا تدخل الفكر البشري في صياغة الأسلوب أي تحويل الحكم الشرعي الى قانون ـ وفقاً للمفهوم الوضعي للقانون- فلا يعني هذا أن القانون قد ألغى الشريعة وأنه انزلها من السماء الى الارض وبالتالي فهي تكييف منضبط لمنهجية التقنين بهدف خدمة الشريعة، وكذلك تكييف للواقع بهدف اخضاعه للشريعة.

ملاحظات عامة

أولاً: إن وجود القواعد التي تضبط عملية التجديد تشكل ضرورة أساسية لا يمكن لعملية التجديد أن تتم بدونها وهي في الواقع قواعد تفرضها الشريعة نفسها من خلال النصوص والثوابت الشرعية ومن خلال ما يحكم به العقل من أسس وأصول يتفق عليها العقلاء، وعليه فلنا هنا ملاحظات:

ثانياً: إن دواعي التجديد تتعدد بتعدد الحاجة إليه، فالتجديد الهادف هو سنة الله في خلقه، وتؤكده النصوص المقدسة، مثل « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » ثم إن التجديد يكشف حقيقة أدعياء التجديد الذين ينتسبون إلى تيارات تحريفية وتوفيقية وتغريبية، والذين يعلمون على مسخ الشريعة بحجة الاجتهاد والتجديد.

ثالثاً: إنَّ التجديد يقوم به أصحاب الاختصاص فقط، وهو مطلب شرعي

وعقلي ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل/٤٣] ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ [النساء/٥٩] وأصحاب الاختصاص هؤلاء لهم مواصفات محددة شأن كل الاختصاصات الأخرى، فإذا احترمنا تخصص الطبيب والمهندس والكيميائي والفلكي وعالم الاجتماع والصحافي، فلابد أن نحترم تخصص المعني بعملية التجديد، وهذا التخصص يعني القابلية على الاستنباط في مصادر التشريع وعلى محاكمة الفكر وتمحيصه، أي أن المعني بالتجديد هو المجتهد المفكر الذي استوعب علوم القرآن تماماً وفهِم الناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه وأسباب النزول، إضافة إلى علوم الحديث والرجال، وعلوم العربية، وعلم الكلام والعقيدة وعلم الفقه وقواعده وعلم الأصول وقواعده وهو تخصص عميق ودقيق وهذا لا يعني ـ بحال في الأحوال- وصاية على الفكر الإسلامي ليتحرك في فضائه الحقيقي لافضائه المزيف الذي يحرفه عن أصالته. فكما نترك للطبيب حرية الحركة بمفرده في علم الطب ولا نسمح للفقيه والمفكر في التدخل بشأنه وتخصصه، بل ونعطي للطبيب ولاية ووصاية على علم الطب وعلاج الأمراض، فمن الواجب أيضاً أنْ لا نسمح للطبيب والفيلسوف وعالم الاجتماع والأديب والكاتب أن يتدخلوا في غير اختصاصاتهم، ومنها قضايا الشريعة والتجديد في إطارها.

رابعاً: إنَّ التجديد يتطلب مفكراً مجتهداً منفتحاً على الحياة والواقع، ويدرك ضغوطاتها ومشكلاتها، ملماً بقضايا العصر وأفكاره وثقافته وبكلمة واحدة: المفكر المجتهد المثقف، وإلّا فالمجتهد المنغلق على الواقع والجامد على فهم الآخرين للنص والبعيد عن ثقافات العصر ومتطلباته وتحدياته المتجددة والمتسارعة التي تفرضها الثورات المتكاملة في الاتصالات والمواصلات والتكنولوجيا والطلب والهندسة الوراثية والبايولوجيا والاقتصاد وحركة المال والسياسة الدولية وغيرها،

فضلاً عن التحديات التي تفرضها أساليب ووسائل تطبيق الشريعة بكل مجالاتها، هو شخص لا يمكنه الخوص في قضايا التجديد، لأنه سيعكس صورة سلبية منفرة عن الشريعة السمحاء والدين الحنيف ومن هنا نرى إنَّ الإمام الخميني وضع شروطاً جديدة للاجتهاد، أبرزها القابلية على تحديد حاجات المجتمع أو العصر وتحديد مصالح المجتمع وفهم الواقع.

خامساً: إنَّ فكرة القراءات المختلفة للدين والمبنية على منهجيات علمية مستوردة بعيدة عن ضوابط العقيدة وغربية عن جنس الشريعة، كمنهجية الهر مونيطيقيا (التأويل تسامحاً) والأركولوجيا (الحرفيات) والتاريخانية هي فكر اعتباطية وفضفاضة وغير دقيقة من الناحية العلمية. ونحن لا ننكر الاختلاف في فهم النص وفي فهم الموضوع وفي اعتماد القواعد الفقهية والأصولية وفي قبول الحديث وغيرها، ولكنه اختلاف مؤطّر بالضوابط التي تفرضها الشريعة، أي للمنهجية الخاصة بكل علم من العلوم الاسلامية، كما انه اختلاف بين المفكرين والمجتهدين، وليس بين كتّاب وصحافيين وعلماء اجتماع وفلاسفة ورجال سياسة وبالتالي فالتعددية (بلورااليسم) لا توزِّع الحقيقة بنسب متوازنة على كل صاحب الرأي، بل إن الحقيقة واحدة وثابتة ويبقى أن المفكرين والمجتهدين يبذلون كل ما في وسعهم من جهد للوصول إليها من خلال الكشف عن الحكم أو الأسلوب الشرعي، في إطار المنهجية الاسلامية المستخرجة من جنس الشريعة وغايات الدين وإلّا فهذا اللون التغريبي الذي يطرح تحت شعار التعددية والقراءات المتنوعة وفي إطار منهجيات وضعت لعلوم أخرى واخترعتها بيئات أخرى ومناخات علمية ودينية مختلفة عنّا هي مثال صارخ للانفلات الفكري الذي يسمح لكل فرد من أفراد الأمة الاسلامية أن يكون له

قراءته ورؤيته الخاصة بالدين، وبالتالي سيأتي اليوم- إذا أذعنا لهذه المنهجيات- الذي لا يبقي فيه من شريعة الله إلّا أشباح أحكام أو معتقدات ممسوخة مفصّلة على مقاس كل صاحب هوى.

سادساً: إنَّ التجديد لا يتناول الأطروحة الدينية أو الدين بعينه أو ثوابت الدين، فهذه الثوابت (أي الأصول الاسلامية المقدسة) خالدة خلود الدين الخاتم، لأن «حلال محمد حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة» ولا يمكن تحت أي ذريعه من الذرائع الاجتهادية في مقابل الثوابت وتجديد الاصول المقدسه اللهم إلّا في اطار القواعد الاستثنائية الزمنية التي حددتها الشريعة نفسها، وسبقت الإشارة إليها، أما التجديد فمساحته الفكر الاسلامي والموروث والمعاصر، أي الانتاج الفكري الاسلامي للمفكرين المجتهدين المتقدمين والمتأخرين، وكذلك في فهم الثوابت الاسلامية وقواعد وأصول هذا الفهم، وفي اكتشاف قضايا جديدة (مناهج، نظريات، علوم، رؤى) في المصادر المقدسة، وأخيراً في أسلمة بعض المناهج والنظريات التي وضعها الانسان في الحقول المحايدة العامة وبالتالي فهي مساحة متغييرات بأكملها.

سابعاً: إن التجديد مرجعية ثابته لصيقة بها، وهذه المرجعية يتم الرجوع اليها عند اختلاف في الفهم والنتائج، وإلّا فالتجديد لا يتحرك في الفراغ ولا ينطلق من فراغ، بل إن له فضاءه الذي يجول فيه، وهذا الفضاء هو مرجعية التجديد والاجتهاد المتمثلة في القرآن الكريم والصحيح من السنة الشريفة، وفي أدوات فهم الاصول المقدسة والكشف عن حقائقها كالعقل والاجماع وغيرهم.

في طريق الى تجديد

في ضوء التصورات التي طرحتها هذه الدراسة، يطرح السؤال التالي نفسه:

ما العمل لتحقيق التجديد المنشود؟، وللاجابة على هذا السؤال نرى أن من الضروري تحقيق وعي أشمل وأدق للاسلام من أدلته الأصلية، وندرك حقيقة مقاصده وغاياته ولابد أن نعيد فتح باب الاجتهاد على مصراعيه، في إطار ضوابطه وعلى أصحاب الاختصاص في علوم الدين (المفكرون المجتهدون) أن لا يسمحوا لغير المتخصصين بالعبث في شريعة الله ومعتقدات الإسلام تحت ذريعة الاجتهاد والتجديد أو ذريعة تفصيل الدين على مقاس العصر، أو التضحية بالأصالة في مذبح المعاصرة والتضحية بالتراث في مذبح التجديد، والتضحية بالشريعة في مذبح التعددية، والتضحية بالدين في مذبح العلم، فهذه الذرائع أو الثنائيات المستوردة لا وجود لها في مبادىء الاسلام الخالدة، لأنها ثنائيات أنتجتها العقلية الغربية في العصور التي أُعقبت ما يسمي بالنهضة الأوروبية، بهدف إقصاء الدين عن الحياة، وهي إشكالية نابغة من الصراع بين الكنيسة ودعاة العلمانية (لائيسم).

و بالنظر لاتساع دائرة التغيير في الحياة وسرعة التطور، نرى أن قابلية التجديد على استيعاب هذا الواقع تتطلب آليتين:

الأولى: آلية الاجتهاد الجماعي، وتتلخص في تشكيل لجان اجتهادية من مجموعة من المفكرين المجتهدين لبحث أو جملة مواضيع، ثم تتكامل نظراتهم ورؤاهم بعد التداول والمناقشة للخروج بحكم شرعي أو نظرية أو نظام اسلامي في مجال معين. وهناك تجربة مجمع الفقه الاسلامي بجدة، الذي نأمل أن تكون فيه لجان اجتهادية ثابتة تؤدي عملها على مدار السنة؛ لملاحقة التطورات الهائلة المتسارعة التي تشهدها البشرية ومن شأن الاجتهاد الجماعي استيعاب كل الموضوعات واختصار الزمن والخروج بأفضل الآراء.

الثانية: آلية التكامل بين المفكرين المجتهدين وأصحاب الاختصاصات العلمية والمهنية الأخرى، من خلال استشارة المفكرين المجتهدين لهؤلاء المتخصصين في الموضوعات الجديدة والاستعانة بهم في فهم العلوم والمناهج الجديدة وقضايا الواقع المتنوعة والمعقدة، وفي تحديد مصالح الأمة والدولة، إذ يتم تداول هذه الموضوعات في لجان أو مجالس مشتركة، ثم الخروج بالرأي أو الاجتهاد الأفضل الذي يحقق مصالح الأمة ويكيِّف الواقع لينسجم مع غايات الشريعة.

و هذه الآلية تمت تجربتها في الجمهورية الإسلامية الإيرانية، ولا زالت تأتي ثمارها وتتمثل في « مجمع تحديد المصلحة » الذي يتكون من فقهاء واختصاصيين في مختلف المجالات، ويمثلون النخبة التي تخطط للسياسات العامة للأمة والدولة، ثم يعرضونها على ولي الأمر (القائد) لإقرارها ولابد من اخضاع تجارب تطبيق الشريعة والنظم الإسلامية في بلداننا إلى التقييم المستمر، أي القيام بعملية رصد علمية لنتائج هذه التجارب (على الطبيعة)، مثل تجارب تطبيق الاقتصاد الإسلامي والبنك الإسلامي والنظام القضائي والنظام السياسي ونظم التكامل والتعاون الاجتماعي والنظام التعليمي وغيرها وستكون نتيجة هذا الرصد العلمي من خلال الدراسات والبحوث وضع مناهج ومبادىء وتفاصيل علوم الاسلامية الاختصاصية، كعلم الاقتصاد الإسلامي وعلم الاجتماع الإسلامي وعلم النفس الإسلامي وغيرها.

التجديد للمستقبل

لاشك أن التاريخ الإسلامي شهد ظهور مجددين عظام، بل وموجات رائده من التجديد، وكانت كل حركة تجديد فكري تختص بها بواقعها وظروفها، أي أنها حركة تجديد لزمانها. وهكذا فان المحاولات الحالية للتجديد الفكري التي تقوم بها

الطليعة المتنورة من المفكرين المجتهدين، هي تجديد لزماننا هذا، ويبقى أن للمستقبل تجديده ورجاله ولكن في الوقت نفسه فإن المخططات الكبرى في مجالات السياسية الدولية والإعلام والاقتصاد والثقافة وغيرها، والتي يعدّها من يعبِّرون عن أنفسهم ب (سادة العالم) و(دعاة التفوق)، وتسارع الأحداث وتراكم المتغيرات والطفرات المتلاحقة في مجال العلم والتكنولوجيا، تجعل الحاضر لحظة غير محسوسة، وتجعل البشرية تعيش في المستقبل دائماً، إذا ما تكشف عنه الدراسات المستقبلية الغربية، يضعنا في حيرة مما يحدث الآن وفي المستقبل، وهو ما يعبِّر عنه أحد مفكري الغرب بـ(صدمة المستقبل)، لأن ما تم التخطيط له قبل عشرين عاماً ظهرت نتائجه الآن، وما يتم التخطيط له الآن ستظهر نتائجه بعد عشرين أو خمسين عاماً. وحيال ذلك فلابد أن يكون للاسلام وللفكر الاسلامي موقفه مما سيحدث في المستقبل أو مما يتم الإعداد له من الآن. ويتمثل هذا الموقف في استعداد الفكر الإسلامي للمستقبل ومحاولة امتصاص مفاجئاته وصدماته، وهو موقف ندعو إليه. ولهذا فأنا أدعو لتدارس موضوعة الفكر الاسلامي المستقبلي الذي ينطلق من اشكاليات الحاضر وحيثياته، ويستشرف المستقبل وتحدياته وخياراته، ثم يخطط له في محاولة لاكتشاف بدائله المنشودة وبنائه والتحكم به فمثلاً نظم الحاضر التي أعدّها الآخرون، كالعولمة والأنسنة، ستتبلور بمرور الزمان وتظهر نتائجها النهائية في المستقبل، وكذلك الكثير من الاكتشافات، كما يحدث في علم الجنتيك (الهندسية الوراثية)، فإنَّ نتائجه لابد أن ستظهر في المستقبل وهكذا فإن الشريعة والفقه وعلم الكلام الإسلامي لا بد أن يكون لها رأيها في كل ذلك، وتستعدله، لتكون بمستوى تحديات المستقبل وضغوطاته. وعلى هذا الأساس فإنَّ منهجيات وأفكار ورؤى تُطرح الآن، وهدفها وضع الفكر الإسلامي بمستوي

قضايا المستقبل، كفلسفة الفقه وفقه المقاصد وفقه الأولويات وعلم الكلام الجديد والتحول في الاجتهاد وأسلمة أو تأصيل العلوم الاجتماعية والإنسانية، وحتى التطبيقية، وغيرها، هي بأكملها مطروحة للبحث والتداول والمدارسة بين دعاة التجديد الأصيل في الفكر الاسلامي، بهدف نقل الفكر الاسلامي من المعاصر إلى المستقبلي، وبذلك فنحن نقدِّم الخدمة المثلى للجيل الاسلامي الذي ينشأ اليوم ويمسك بزمام المستقبل، حين نعدّله الأحكام والنظم والنظريات التي تستوعب عصره وهي في الواقع- وقبل كل شيء- خدمة للجيل الحاضر، الذي يرى تحديات المستقبل ماثلة أمام عينه ويستشعر ضغوطاتها وآلامها؛ لأن الحاضر هو المستقبل، بعد أن أخذت البشرية تفقد إحساسها بالزمن الحاضر. وهذه الدعوة لا تعني- بأي حال من الأحوال- الهروب إلى الأمام وحرق المراحل والعبور على الأزمنة، بل على العكس، هي دعوة للاندكاك بالواقع ولاستحضار السنن الكونية والعمل بالنصوص الإسلامية المقدسة.

مصادر البحث

- القرآن الكريم.
- ابن ابي طالب الامام علي، نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح.
- الآمدي، عبد الواحد التميمي، غرر الحكم ودُرر الكلم.
- التسخيري، محمد علي، حول الدستور الاسلامي في مواده العامة.
- التسخيري، محمد علي، الظواهر العامة في الاسلام.
- التسخيري، محمد علي/ أثر الزمان والمكان في الاجتهاد (حوار).
- الحر العاملي/ محمد بن الحسن، وسائل الشيعة الى تحصيل الشريعة.
- الخامنئي، على، الأدب والفن في التصور الاسلامي.
- الخميني، روح الله الموسوي، صحيفة النور.
- الريسوني، احمد، نظرية المقاصد عند الامام الشاطبي.
- الصدر، محمد باقر، الاسلام يقود الحياة.
- الصدوق، ابن بابويه القمي، علل الشرايع.
- الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن.
- الفخر الرازي، التفسير الكبير.
- العلواني، طه جابر، اصلاح الفكر الاسلامي بين القدرات والعقبات.
- غارودي، روجية، الاسلام دين المستقبل.
- الكليني الرازي، الاصول من الكافي.
- المطهري، مرتضى، احياء الفكر في الاسلام.
- المطهري، مرتضى، الاسلام ومتطلبات العصر.
- المؤمن، على، الاسلام والتجديد..... رؤى في الفكر الاسلامي المعاصر.
- النيسابوري، مسلم، الصحيح.

الأسس الفقهية لنظام الحكم

عند السيد الشهيد محمد باقر الصدر

❐ قاسم المعدل الإبراهيمي

تمهيد كثيرون هم الرجال الذين انحنت قامة التاريخ لهم إجلالاً واحتراماً لما أسدوه للبشرية من اياد بيضاء نقية، وقدّموه للعلم والمعرفة من خدمات جليلة.

لكنّ ما يميّز السيد الشهيد محمد باقر الصدر ﷺ عن غيره، أنه كان يشتمل على صفات قلّما اجتمعت في رجل: إذ ضمّ إلى سعة معلوماته، وتنوّعِ اهتماماته، عمق النظرة، ومنهجيةَ الفكرة، ودقّة التحليل، وعرفية النتيجة، وسعة البحث، وعصرية الموضوع، وجزالة اللفظ... فلم يَضح للفقه والأصول ألفاً، حتى صار في سائر العلوم كالمعرفة والفلسفة والاقتصاد مؤلفاً. ولم يُمسِ بالعلوم عالماً حتى غدا فيها ناقداً، فمفكراً، فمنظّراً.

و مع هذا كلّه لم يشغله العلم عن مجتمعه، بل أدرك أوضاع عصره، وتحسّس حاجات مجتمعه، واستشعر ما يراوده من شكّ، وما يختلج في نفسه من ريب، فبادر إلى موضع الشبهة ومكمن الداء، فعالجه بما علم معالجةَ الحكيم الحاذق، فكان أن ترك من الكتب في العقيدة والفلسفة والمنطق والاقتصاد والسياسة ما أثرى به الفكر، وأبدع فيها بما لا يدانيه به أحد، فضلاً عن أن يضاهيه.

لكن بعض هذه العلوم طبعه بآرائه، وطوّره بنظراته، وأشبعه ببحثه، وبعضها لم تسمح له يد الغدر والخيانة بإتمامه، وإن أشار فيه إلى مبانيه وآرائه.

و من جملة ما تركه ناقصاً مبتوراً نظريته في نظام الحكم. فإنّه لم يتناول ذلك ببحث في كتبه ومؤلفاته، وإنّما تعرّض له في مقالات أواخر أيامه، والتى طبعت ضمن سلسلة (الإسلام يقود الحياة).

لكنّ هذه المقالات لم يلحظ فيها أن تكون بحثاً فقهياً واستدلالياً، بل كان الغرض منها تثقيف الطليعة المؤمنة، والجيل الواعي على الفكر الإسلامي الأصيل، وإعطائه نظرة مختصرة عن شكل النظام الإسلامي وركائزه وأبعاده.

و من هنا، فقد رأينا نتناول بالحث بعض الخطوط والملامح التي رسمها السيد الصدر ﷺ لنظام الحكم الإسلامي بالبحث، واستكشاف مبانيه الفقهية فيها، علّنا نقدّم بذلك خدمة ف سبيل إحياء بعض أفكاره.

نظام الحكم إدارة وإشراف

البحث عن نظام الحكم في الإسلام لا يمثل عند السيد الصدر ﷺ مجرد بحث عن الآلية التي يطرحها الاسلام لإدارة أُمور المجتمع، ولا كيفية تخريجها من الناحية النظرية شرعاً، ورسم الأُطُر القانونية المحدّدة لطبيعة العلاقة بين الجهاز الحاكم والرعية، وبين العاملين في الجهاز الحاكم أنفسهم، وبين أفراد الرعية أنفسهم أيضاً، وحقوق وواجبات كل طرف من هذه الأطراف تجاه سائر الأطراف، بل يرتبط ذلك كلُه بالمبادئ والغايات والأهداف الربوبية لمسيرة المجتمع البشري كلُه، والقائمة على أساس من رؤية تصوّرية كونيَة جامعة. فكل بحث ينصب على تحديد آليات الحكم وأُطره الظاهرية، مع قطع النظر عن الأهداف المرسومة له، بحثٌ شكلي لا يتجاوز القشرة إلى اللُّب ولا الظاهر إلى الأعماق.

و من هنا، حاول السيد الصدر ﷺ في بحوثه التنظيرية لرسم معالم الحكومة الاسلامية صبَّ البحث منذ البداية على محورين هما:

١ـ خطّ الخلافة.

٢ـ خطّ الشهادة.

و يعبّر الأول عن حكم وضعي يجعل بمقتضي قول الله للملائكة: ﴿ **إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً** ﴾ [البقرة/٣٠] نوعاً من السلطنة لجميع أفراد النوع البشري، المتمثل بآدم عليه السلام على اختلاف مذاقاتهم واهتماماتهم في كل ما حوته أرجاء هذا الكون الفسيح المعبّر عنه بالأرض في الآية، والمستلزم إعطاءهم قدرة تكوينية على التصرف فيه أولاً، وإصدار حكم تشريعي بجواز التصرف والانتفاع بما في الكون في الجملة ثانياً، إن لم يُستفَد من ذلك أصل وقاعدة فقهية يرجع إليها لإثبات جواز الانتفاع والتصرف في كل ما يشك في جوازهما فيه وعدمه، كأصله الإباحة والبراءة مثلاً، تماماً كما استُفيد جواز تصرّف صاحب المال في ماله- تكليفاً ووضعاً أو تكليفاً أو وضعاً فقط ـ من رواية « الناس مسلّطون على أموالهم »[1].

و يعبّر الثاني عن حكم وضعي أخر يمنح المولي بموجبه للعارفين بمقاصد الشريعة وأحكامها العامة والخاصة، حقّ الإشراف والتدخل، بل والتعديل والتصحيح لمسيرة البشرية، وذلك بمقتضي قوله تعالى: ﴿ **وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ** ﴾ [النحل/٨٩] وقوله: ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا** ﴾ [النساء/٤١].

فنظام الحكم عند السيد الصدر قدس سره ينفك منذ البداية إلى وظيفتين:

إحداهما: وظيفة إدارة المجتمع وتمشية أُموره.

و **الأُخرى**: إحراز انطباق هذه الإدارة على الموازين والمعايير والأحكام، وانصبابها ضمن محور الغايات والمبادئ والأهداف الإلهية.

و يتولّى كل واحدة من هاتين الوظيفتين جهاز محدد له خصائصه وبرامجه وإمكاناته.

و قد تجمع خصائص كلا الجهازين في أفراد معيّنة فيتّحد القائم بالوظيفتين كما

قد تفترق فيتعدّد.

و كيفما كان، فالسيد الصدر ﷺ قائل بالتفكيك بين السلطات منذ البداية، فهو يقول: « وضع الله سبحانه وتعالى إلى جانب خط الخلافة ـ خلافة الانسان على الأرض- خطّ الشهادة الذي يمثّل التدخّل الربّاني من أجل صيانة الانسان الخليفة من الانحراف، وتوجيهه نحو أهداف الخلافة الرشيدة »[٢].

آيات الكتاب وخلافة الأمّة

جرت عادة الفقهاء لدى البحث عن ولاية الفقيه خصوصاً، ونظام الحكم في الاسلام بصورة عامة على عدم التعرّض إلى الآيات، بل ربّما إلى مطلق الأدلة الدالة على خلافة الأمة. ولعلّ الدافع إلى ذلك ارتكاز منهج النيابة والنصّ في أذهانهم، لما له من خلفيّات قويّة ترتبط بخلافة الأئمة عليهم السلام مع ما استتبع ذلك من تميّز في المنهجية الفكريّة والعاطفية لعلماء الشيعة فضلاً عن عوامها، ممّا ساقهم بنحو شعوري أو لا شعوري إلى البحث عن الدليل في أحاديث السنّة والروايات بعد وضوح عدم النصّ في الكتاب على النصي في عصر الغيبة، أو لسريان غلبة الاعتماد على السنّة في الاستدلال الفقهي عموماً إلى هذه المسألة، فلم يستند فيها إلى آيات القرآن غفلةَ رغم وجود الدليل عليها منه، أو لعدم حمل الفقهاء الاستخلاف المذكور على معنى الحاكمية وإدارة المجتمع.

و أيّاً كان السبب، فلم يتعرّض من فقهائنا إلى الاستدلال بالآيات على خلافة الأمة غير السيد الصدر ﷺ، الذي استدلّ عليها بآيات الاستخلاف[٣]. وتوريث الأرض[٤]، والحدود[٥].

الأوليان بإرادة الغلبة وتسلّم زمام الحكم، كما يدلّ على ذلك تفريعه الحكم في بعضها عن الاستخلاف كقوله تعالى: ﴿ **يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ**

﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ [ص/٢٦] وقوله ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس/١٤] وبه يندفع إرادة معنى آخَر غير ما ذكر.

و الأخيرة باستفادة الولاية للأمة من تعلّق الأوامر فيها بضمير خطاب الجماعة المراد بها المسلمين الدالّ على أنها المكلفة بإجراء الحدود التي هي من وظيفة الحاكم.

ولا يرد على الاستدلال احتمال إرادة الجعل التكويني لا التشريعي من الجعل الإلهي فيها، فيكون بمعني الإيصال إلي سدة الحكم غير الدالّ بحالٍ على المشروعية.

فإنه لو فرض لم يضرٍّ باستفادتها إن لم تكن من إسناد الجعل حتى التكويني إلى الله في كلامه الكاشف لا عن موافقة ذلك لإرادته التشريعية فحسب، بل عن امتنانه أيضاً فلا أقلّ من دلالة قوله: (لننظُر كَيفَ تعمَلون) على عدم سخطه من أصل الوصول إلى السلطة المساوق للإمضاء المثبت للإباحة الاقتضائية على أقل التقادير، وإناطة رضاه وسخطه بما يعمله المستخلف بعد ذلك، إنما الوارد كون الآيات المستدل بها لا دلالة لها على المطلوب.

آية الاستخلاف:

أما آية استخلاف آدم عليه السلام الأرض فلا بدّ من استظهار أمور:

أولاً: كون المراد بآدم عليه السلام فيها النوع البشري.

ثانياً: كون ذلك على سبيل الاستغراق.

ثالثاً: أنّ الاستخلاف حاكمية تشريعية، معناها كون كل فرد من أفراد

الإنسان هو خليفة الله في أرضه، بما يقتضي ذلك من سلطنة له على الكون مطلقة وغير محدودة، إلّا من قبل الله المستخلف أو لمزاحمتها لسلطنة الإنسان الآخر ما لم يتنازل عنها لصالح غيره.

و ينتج عن ذلك ثبوت الولاية للأمة، بمعنى دخالة رأي كل فرد في تعيين الحاكم عليه. وهي كما ترى إذ لو قبلنا الأولين كما هو الظاهر من القرائن المحتفة بالآية لكون الله تعالى بصدد الخلقة واعتراض الملائكة على الطبيعة البشرية غير المختصة بفرد دون آخر، فلا نقبل الاستخلاف إلّا بمعني الحاكمية والسلطنة بالنسبة إلى سائر الكائنات الموجودة في الكون غير الداخل فيها المشتركون معه في النوع من أبناء الإنسان على سبيل الجزم؛ لعدم خروجهم عنه بعد فرض كون المقصود بآدم عليه السلام هو النوع البشري أولاً، ولكون الحاكمية المفترضة للإنسان على الكون بالقياس إلى سائر الأنواع من الكائنات فيه كما تدلّ عليه القرائن المتقدمة ثانياً.

الآيات الأُخرى:

و أمّا الآيات الأُخرى فمضافاً إلى ورودها في وقائع خاصة مما لا يستفاد منها كبرى كلية قاضية بتعلق أمر الحكومة بالأمة دائماً عدم بعد إرادة الاستخلاف التكويني المساوق- ما تقدم- لمعني الظهور والغلبة والسلطنة على مقدّرات الأمور في الأرض، المقتضي مع كون الخطاب لأمة معينة استئثارها بها دون غيرها من الأمم، وهو لا يعني ثبوت الحاكمية التشريعية للأمة بالأصالة.

آيات الحدود:

نعم، تبقي آيات الحدود قد لا يقصد من خطاب جماعة المسلمين بها إلّا تكليفهم بإجرائها، لا لأن الولاية ثابتة للأمة بالأصالة، بل لأنها من تكاليف الأمة على كل حال. أي وإن كان الحاكم واصلاً من طريق غير الأمة كالتسلّط بالقهر

والغلبة لكون موجبها آفة اجتماعية. مع أن التكليف المعبر عنه بـ (عليه) غير معنى الولاية المعبّر عنها بـ (له).

ثم لو فرضنا تمامية ذلك كلّه، واجه القول بخلافة الأمة اصطدامها بخلافة الأنبياء والأئمة عليهم السلام المجعولة لهم بالنصب لا من طريق الأمة، وهو ما جعله السيد الصدر قدس سره استثناء من أصل الكلي القاضي بكون ولاية أمر المجتمع بيد الأمة، فهو يقول: « وخلافة الجماعة البشرية في مرحلة التغيير الثوري الذي يمارسه النبي صلى الله عليه وآله باسم السماء ثابتة مبدئياً من الناحية النظرية، إلّا أنها من الناحية الفعلية ليست موجودة بالمعني الكامل، والنبي صلى الله عليه وآله هو الخليفة الحقيقي من الناحية الفعلية، وهو المسؤول عن الارتفاع بالأمة إلى مستوي دورها في الخلافة »[٦].

و قد ورد عليه بأنه استثناء غالبي لعدم خلوّ الأرض من لدن خلقه آدم عليه السلام وإلى عصر الغيبة من نبي أو إمام كما دلّت على ذلك الروايات أيضاً، لكن المستشم من كلام السيد الصدر قدس سره إنكار كونه كذلك، فإن دور النبي والإمام دور المصلح لمسيرة المجتمع عند انحرافها، وهو ما يحصل على فترات متباعدة نسبياً وخلالها تكون الخلافة بيد الأمة.

و كيفما كان، فإن جعل الله سبحانه وتعالي الولاية للأنبياء والأئمة، كما في قوله تعالى في ولاية نبينا محمد صلى الله عليه وآله: ﴿ **النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ** ﴾ [الاحزاب/٦] وقول رسول الله صلى الله عليه وآله في ولاية علي عليه السلام: « من كنت مولاه فعلي مولاه »[٧]. إن حملت على جعل الخلافة لهما، فهو مناف لجعلها للأمة ما لم تعالج بإيقاع الطولية بينهما أو إعمال تقييد فيما، أو إيقاع التزاحم بينهما، وإن حملت على جعل الشهادة لهما والولاية للممارسة التغيير الثوري المطلوب، فلا منافاة حينئذ، لكنه ربما بلغ مرتبة اقتضى من النبي والإمام اسلام زمام الأمور بيده عملياً، ولعل كلام السيد

الشهيد ﷺ ناظر إلى الأخير، ومعه فلا مجال للإشكالين السابقين.

ولاية الفقيه وخلافة الأمة

اختلف الفقهاء في ثبوت الولاية للفقيه وعدمها بين قائل بالثبوت، كالشهيد الثاني[٨] والمحقق الكركي[٩] والنراقي[١٠] والنجفي[١١] و غيرهم، بل ادّعى الكركي الاتّفاق عليه، حيث قال: « اتّفق أصحابنا رضوان الله عليهم على أن الفقيه العدل الإمامي الجامع لشرائط الفتوى المعبّر عنه بالمجتهد في الأحكام نائب من قبل أئمة الهدى صلوات الله وسلامه عليهم في حال الغيبة في جميع ما للنيابة فيه مدخل... »[١٢] و بين قائل بعدمها كالشيخ الأنصاري (رضي الله عنه)[١٣] والسيد الخوئي (رضي الله عنه)[١٤]، وحينئذ فيجوز اتخاذ أي نظام من أنظمة الحكم لا يتعارض مع الأحكام؛ لعدم الدليل على لزوم العمل بنظام معين، والأصل الإباحة.

نعم، لا بدّ للجهاز الحاكم أياً كان شكله من الرجوع إلى الفقيه في كل قضية يشكّ في منافاتها لحكم من أحكام الشريعة، من باب رجوع الجاهل إلى العالم؛ لئلّا يبتلي بمخالفة الأحكام الشرعية.

و كيفما كان، فالشهيد الصدر ﷺ لا يعتقد بثبوت الولاية بمعني الخلافة للفقيه في مرحلة تحرّر الأمة من سلطان الطاغوت وملكها أمر نفسها، بناء على ما أسّسه من أصل أوّلي من أن الخلافة حق الأمة. وأثبته بالآيات القرآنية الكريمة. حيث يصرح في كتاب خلافة الإنسان قائلاً: « وأما إذا حرّرت الأمة نفسها، فخطُّ الخلافة ينتقل إليها، فهي التي تمارس القيادة السياسية والاجتماعية في الأمة بتطبيق أحكام الله وعلى أساس الركائز المتقدّمة للاستخلاف الربّاني ».[١٥]

و كذا في اللمحة التمهيدية، حيث يقول: « إن السلطة التشريعية والسلطة

التنفيذية قد أُسندت ممارستها إلى الأمة، فالأمة هي صاحبة الحقّ في ممارسة هاتين السلطتين بالطريقة التي يعينها الدستور. وهذا الحق حقّ استخلاف ورعاية مستمد من مصدر السلطات الحقيقي وهو الله تعالى»[١٦].

لكن، ربما توهّم البعض ذهاب الشهيد الصدر ﷺ إلى ثبوت الولاية بمعنى الخلافة للفقيه، ولعلَّه استفاد ذلك من بعض عباراته الموهمة في كتاب ال «اللمحة» مثلاً، حيث ذكر نيابة الفقيه العامة للإمام عليه السلام في أكثر من موضع منه[١٧]، متمسكاً في بعضها بالتوقيع الشريف الذي رواه إسحاق بن يعقوب[١٨].

لكن، وخلافاً للتصور المذكور، لم يكن الشهيد الصدر ﷺ بصدد إثبات منصب الولاية بمعنى الخلافة والإدارة بذلك، نعم، هو يرى ثبوت الولاية بمعنى الشهادة له، وقد صرّح بذلك عدّة مرّات:

١ـ فهو يقول في إحدى نقاط خلاصة الـ«لمحة»، بعد ذكره التوقيع الشريف: «فإن هذا النص يدلّ على أنهم المرجع في كلّ الحوادث الواقعية بالقدر الذي يتّصل بضمان تطبيق الشريعة على الحياة، لأنّ الرجوع إليهم بما هم رواة أحاديثهم وحملة الشريعة، يعطيهم الولاية بمعني القيمومة على تطبيق الشريعة وحق الإشراف وحق الإشراف الكامل من هذه الزاوية»[١٩].

٢ـ وفي أُخرى يقول: «الخلافة العامة على أساس قاعدة الشورى التي تمنحها حق ممارسة أُمورها بنفسها ضمن إطار الإشراف والرقابة الدستورية من نائب الإمام»[٢٠].

٣ـ وفي نقطة ثالثاً يقول: «فكرة أهل الحل والعقد التي طبقت في الحياة الإسلامية، والتي تؤدّي بتطويرها على النحو ينسجم مع قاعدة الشورى وقاعدة الإشراف الدستوري من نائب الإمام إلى افتراض مجلس يمثل الأمة وينبثق عنها

بالانتخاب »[٢١].

فهو يصرح بوضوح بأن الفقيه نائب الأمام عليه السلام في الإشراف وا لرقابة دون أن يكون له حق التصرف في أمور الأمة، ولا في تغيير تشريعاتها التي لا تتنافى مع الشريعة ومقاصدها.

و في الحلقة الرابعة[٢٢] صرّح الشهيد الصدر قدس سره بذلك أيضاً، حيث قال: « وتميّز في هذه المرحلة [مرحلة غيبة الإمام عليه السلام] خط الشهادة عن خط الخلافة بعد أن كانا مندمجين في شخص النبي أو الإمام؛ وذلك لأن هذا الاندماج لا يصح إسلامياً إلّا في حالة وجود فرد معصوم قادر على أن يمارس الخطّين معاً، وحين تخلو الساحة من فرد معصوم، فلا يمكن حصر الخطين في فرد واحد.

فخط الشهادة يتحمل مسؤولية المرجع على أساس أن المرجعية امتداد للنبوة والإمامة على هذا الخط.

و هذه المسؤولية تفرض:

أولاً: أن يحافظ المرجع على الشريعة والرسالة، ويردّ عنها كيد الكائدين، وشبهات الكافرين والفاسقين.

ثانياً: أن يكون هذا المرجع في بيان أحكام الإسلام ومفاهيمه، يكون اجتهاده هو المقياس الموضوعي للأمة من الناحية الإسلامية، وتمتدّ مرجعيّته في هذا المجال إلى تحديد الطابع الاسلامي لا العناصر الثابتة من التشريع في المجتمع الإسلامي فقط، بل للعناصر المتحركة الزمنية أيضاً باعتباره هو الممثل الأعلى للإيديولوجية الإسلامية.

ثالثاً: أن يكون مشرفاً ورقيباً على الأمة، وتفرض هذه الرقابة عليه أن يتدخل لإعادة الأمور إلى نصابها إذا انحرفت عن طريقها الصحيح إسلامياً، وتزعزعت

المبادئ العامة لخلافة الإنسان على الأرض.... وأما خط الخلافة الذي كان الشهيد المعصوم يمارسه.... (فإذا) حرّرت الأمة نفسها فخط الخلافة ينتقل إليها، فهي التي تمارس القيادة السياسية والاجتماعية في الأمة بتطبيق أحكام الله، وعلى أساس الركائز المتقدمة للاستخلاف الربّاني »[٢٣].

و من هنا، يتضح أن السيد الشهيد ﷺ لا يرى للفقيه حق تولّي القيادة السياسية ولا الاجتماعية في الأمة، ولا هو مسؤول عن عملية تطبيق أحكام الله سبحانه فيها، وتشريع القوانين التي يحتاج إليها نظام الأمة، ممّا يرد فيها نصّ في كتاب أو سنة، ولا دليل من إجماع أو عقل، فإن السلطتين التنفيذية والتشريعية يجب أن تنبثقان عن الأمة باعتبارها حقاً خوّله الله تعالى إيّاها كما تقدم في الـ « لمحة ».

غاية الأمر أن الفقيه قيّم وليّ علي الأمة، بمعنى مشرف رقيب عليها من أن تزيغ وتنحرف وتضلّ عن الطريق بمخالفتها الأحكام الأولية والثانوية واتجاهات الشريعة، فيتدخل لإعادة الأمور إلى نصابها. وهذا أيضاً نوع من الولاية كما هو واضح.

فما أشكل عليه به بعض أساتذتنا[٢٤]، من أن ممارسة الأمة ملء منطقة الفراغ إنكارٌ لولاية الفقيه رأساً، غير صحيح.

نعم، السيد الصدر ﷺ يرى ثبوت الولاية للفقيه على الأمة بمعني ممارسته صلاحيات كلا الخطين، أعني خط الخلافة والشهادة معاً، ما دامت الأمة محكومة للطاغوت ومقصية عن حقّها في الخلافة، كما صرّح به نفسه في الحلقة الرابعة من حلقات (الإسلام يقود الحياة)، حيث قال: « وأما خط الخلافة الذي كان الشهيد المعصوم يمارسه، فما دامت الأمة محكومة للطاغوت ومقصية عن حقها في الخلافة

العامة، فهذا الخط يمارسه المرجع، ويندمج الخطّان حينئذ ـ الخلافة والشهادة ـ في شخص المرجع»[٢٥].

و الملاحظ مما أفاده الشهيد الصدر ﷺ بكلماته المتقدمة، إدعاؤه ثلاثة مناصب للفقيه:

الأول: التمثيل الأعلى للدولة.

الثاني: الإشراف والرقابة على حركة الأمة.

الثالث: الولاية العامة ـ خلافة وشهادة ـ على الأمة في زمان قصورها.

و الظاهر أن مستند المنصبين الأول والثاني هو التوقيع الشريف الذي رواه إسحاق بن يعقوب، كما تقدّمت الإشارة إلى ذلك ممّا نقلناه من عبارة اللّمحة التمهيدية.

و التوقيع الشريف رواه الكليني عن إسحاق بن يعقوب، قال: «سألت محمد بن عثمان العمري أن يوصل لي كتاباً قد سألت فيه عن مسائل أشكلت عليّ، فورد التوقيع بخطّ مولانا صاحب الزمان عليه السلام: أمّا ما سألت عنه أرشدك الله وثبتك... [إلى أن قال]: وأما الحوادث الواقعه فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا، فإنهم حجتي عليكم وأنا حجة الله»[٢٦].

لكنّ الفقهاء استدلوا به على الولاية، وقرّبوا الاستدلال بالتوقيع المذكور بأحد التقريبات التالية:

التقريب الأول: أن الظاهر من الحوادث مورد الإرجاع جميع الحوادث لا حوادث مخصوصة، وذلك للعموم المستفاد من لام الجنس الداخلة عليها، ومن الواقعة ما يقع لاحقاً لا سابقاً أو فعلاً من باب استعمال المشتق فيما يحصل منه التلبّس بالمبدأ فيما بعد، ومن رواة الحديث المرجوع إليهم الفقهاء، لا بما هم رواة

ولا فقهاء، أمّا الأوّل، فلعدم الرواية فيما لم يقع، وأما الثاني، فلوضوح الروجوع فيه إليهم عند الشيعة ممّا لا يستدعي السؤال، فلم يبقَ إلّا الرجوع إليهم بما هم ولاة. فالرواية أمرت المؤمنين تكليفاً بالرجوع إلى الفقيه بالمطابقة، وجعلت له الولاية وضعاً بالملازمة.

و هذا البيان يمكن أن يناقش فيه من جهتين:

الأولى: إن كون اللام الداخلة على الحوادث لام الجنس غير معلوم، فلعلّها كانت لام عهد إلى حوادث وردت في سؤال السائل، ومع وجود مثل هذا الاحتمال فالرواية مجملة.

لكن هذه المناقشة مردودة باستبعاد إرادة ذلك منها؛ لتعارف الإجابة عن مثلها من قبل الإمام عليه السلام أو الإحالة على فقيه بعينه كما صنع في غيرها من الأسئلة، لا أن يحيلها على عموم الفقيه، فالظاهر أن السؤال عن عموم ما يقع من الحوادث في مستقبل الزمان بنحو ناسب إحالتها على عموم الفقيه.

الثانية: إن استظهار كون المرجوع إليهم الفقهاء بما هم ولاة غير متعيّن، إذا لعلّ السائل كان بصدد استبيان المرجع- في عصر غيبة الإمام عليه السلام - في مستحدثات المسائل ومستجدات الأمور، ممّا لم يرد به نصّ خاص بعد، إذ كان الإمام عليه السلام هو الناهض ببيان أحكامها. والفقهاء عصر الحضور وإن كان يرجع إليهم لمعرفة الأحكام الشرعية، لكن بمقدار لا يتجاوز حدود النص، بحيث يكون الرجوع إليهم بما هم رواة أقرب منه بما هم الفقهاء ومستنبطون، فإن وجود الإمام عليه السلام كان يغني عن إعمال النظر، وانتزاع القواعد الأصولية والفقهية، والخوض في حيثيات المسائل، ولذا صرّح غير واحد ممّن كتب في تاريخ الفقه والفقهاء ومراحل الاجتهاد، بأن الاجتهاد المعروف لدينا اليوم إمّا لم يكن موجوداً في عصر الأئمة، أو

كان بأبسط أشكاله[٢٧].

و عليه، فربما أثار قرب وقوع الغيبة الكبرى للإمام عليه السلام قلقاً في نفس السائل حول من يجيب على المسائل المستجدة والأمور الحادثة فيها، فأرجعه الإمام إلى الفقهاء مرشداً بتعبيره رواة أحاديثنا إلى كفاية ما يحملونه من تراث روائي ضخم بهذا الفرض المهم.

فالإنصاف أن المناقشة في الاستدلال بهذه الفقرة في محلّها.

التقريب الثاني: تتميم الدليل السابق بالقول إنّ إطلاق التعليل الوارد في ذيل الفقرة بـ« إنّهم حجّتي عليكم وأنا حجة الله»، يثبت الحجية لهم في تمام ما الإمام فيه حجة حتى الأمور حتى الولائية.

والجواب: إن التعليل المذكور لم يعلم استفادة الإطلاق منه لاتصاله بما يصلح لتقييده، فإن الحجية ليست من قبيل العلل الحقيقية أو الاعتبارية ذات المفهوم المحدّد، بل هي مفهوم اعتباري كلّي مشكّك تابع لجعل الجاعل سعةً وضيقاً وإطلاقاً وتقييداً، كإذن المالك في التصرف فيما يملكه، فإنه علة لجواز التصرف فيه، لكن تحديد مورده يؤدّي مع اتصاله إلى تقييد علّته أيضاً بنحو يستكشف منه عدم إطلاقها أو إجمالها فيقتصر على القدر المتيقن وهو المورد المذكور، ومعه فلا يثبت بضم ذيل التوقيع إلى صدره تعميم للأمر بالرجوع في جميع الأمور حتى الولائية.

التقريب الثالث: تتميم الاستدلال المتقدم بالذيل المذكور بنحو آخر، كأن يقال: إنّ جعل الإمام عليه السلام الحجية للفقهاء من قبله يقتضي كونه حكماً ولائياً بنصبهم نواباً عنه فيما له من الصلاحيات. فإن الأمر بالرجوع إليهم لا يعدو أن يكون إرجاعاً لهم بما هم مبينون للأحكام الشرعية أو بما هم حاكمون: والأول لا يقتضي النصب من قبله، بل من قبل الله سبحانه مباشرة وبلا واسطة؛ لأنهم

يؤدّون ذلك إليه فأمّا يكون ذلك جائزاً بحكم الله أو حراماً بخلاف الاحتمال الثاني، حيث إنهم يؤدون عنه عليه السلام فيما هو متروك له.

وهذا النحو من الاستدلال لا إشكال عليه، فهو تام على الظاهر.

لكن، قد يورد على الرواية المذكورة بضعف السند بإسحاق بن يعقوب، فإنه لم يوثق صريحاً في الروايات ولا في كتب الرجال.

و أجاب عن ذلك أستاذنا السيد الحائري ـ أدام الله بقاءه- بالقول بأن الكليني روى التوقيع المذكور عن إسحاق بن يعقوب مباشرة، فروايته عنه مع ملاحظته أن التوقيع لم يكن يرد إلّا علي الخواصّ من أصحاب الأئمة عليهم السلام ـ لا تكون إلّا عن معرفة الرجل وجلالته وإطلاع منه عليه إذ المحدّث عن توقيع ورد إليه- مع ملاحظة ما للتوقيع من خصوصية لا يكون إلّا في أسمى مراتب الوثاقة، أو أحطّ درجات الخباثة والخيانة؛ واحتمال الجهالة فيه منتف؛ لأن التوقيع لم يكن يرد إلّا على الخواصّ من الأصحاب، ولو فرض ادعاؤه من مجهول بإراءته من قبل المحدثين.

و حينئذ فمن غير المعقول للمحدّث الكليني رحمه الله أن يروي التوقيع عن إسحاق ابن يعقوب ما لم يكن موثوقاً لديه، فإن روايته عن كذاب أو مجهول دون التأكُّد من صحّة ادّعائه بعيد غايته عن مثل الكليني رحمه الله.

و لنا على ما ذكره السيد الحائري ملاحظات:

الأولى: إنّنا بحثنا في كتب الحديث ومنها الكافي، فوجدنا عدداً كبيراً من الروايات المتضمّنة لتواقيع وردت على بعض الأشخاص. ولاحظنا أن أكثر من روى عنهم ورود التوقيع عليهم من المجاهيل، وكثير ممن رواها أجلّه معروفون، فلو فرض وجود التزام من الرواة الأجلاء بعدم الرواية عمّن أخبر بورود التوقيع

عليه إلّا إذا كان ثقة لزم ـ مضافاً إلى بعد الالتزام بتوثيقهم حتى من قبل صاحب المبني نفسه ـ بُعد كونهم ثقات في أنفسهم مع عدم ورود توثيقهم في كتب الرجال.

الثانية: إن ما ذكر من وجود خصوصية للتواقيع تميّزها عن سائر الروايات لم يثبت؛ لأن كثرة ورود الروايات المتضمنة لورود تواقيع على بعض من عاصر الأئمة عليهم السلام في كتب الحديث، وبلوغها هذا الكمّ الهائل مع اتّصاف أكثر رواتها بالجهالة، ينفي وجود الخصوصية المذكورة، فالظاهر على هذا أن الرواة كانوا يتعاملون مع التوقيع كالرواية بلا فرق بينهما.

الثالثة: إن جملة من التواقيع المذكورة سيقت لغرض خاص، كبيان وجود بعض الأئمة عليهم السلام ممن شك في تولدهم أو إثبات الإمامة لهم عن طريق نقل الكرامات التي أظهروها. وهذا المقدار يكفي بإثباته تحقق التواتر الإجمالي الذي لا يعني فيه بصحة سند الروايات المساقة لعموم تعلق الغرض بإثبات كل واقعة بخصوصها كي يتوقف في إسناد أدلتها.

و لهذا السبب نجد أكثر هذه التواقيع مرويّة في الكتب المؤلفة لمحاججة الخصم في الإمامة، ككتاب الغيبة للطوسي رحمه الله والاحتجاج للطبرسي رحمه الله وإكمال الدين للصدوق رحمه الله، ودلائل الإمامة للطبري، وكشف الغمة للأردبيلي رحمه الله وغيرها.

و عليه، فلا ينبغي التعويل كثيراً على مثل هذه الروايات خصوصاً التوقيع المبحوث عنه، بإعتباره لم يرد في الكافي، وإنما هو نقلٌ نقله الشيخ الصدوق رحمه الله في كتبهما المتقدمة غير المعدّة للفتوى الكاشف عن عدم الاعتماد عندهم عليه.

الرابعة: إن ما ادّعي من عدم ورود التواقيع الشريفة إلّا على الخواص من ثقات أصحاب الأئمة عليهم السلام غير تامّ إذا لاحظنا وجود بعض الروايات الصحيحة

التي جعلت الجواب عن الكتاب واجباً كوجوب ردّ السلام.

ففي الكافي عن عدة من الأصحاب، عن أحمد بن محمد وسهل بن زياد جميعاً، عن ابن محبوب، عن عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: « ردّ جواب الكتاب واجب كوجوب ردّ السلام، والبادي بالسلام أولي بالله ورسوله »[٢٨].

والرواية مطلقة شاملة لعصر الغيبة الصغرى وغيرها، وللخواصّ والثقات وغيرهم. وزمان الغيبة الكبرى خارج تخصّصاً من جهة عدم وصول الكتاب إلى المكاتب كي يجب الجواب.

ومع وجود مثل هذه الرواية لا مجال للقول بأن التواقيع الشريفة لم تكن ترد إلّا على خواص الثقات، إذ بموجبها يجب على الإمام عليه السلام الردّ على كل كتاب يرفع إليه.

ولو فرضنا عدم التزام الفقهاء بمثل هذا الوجوب، فلا أقل من أن ردّ جواب الكتب هو مقتضي الخلق الإسلامي الرفيع الذي لا ريب يتحلّي الأئمة عليهم السلام به. ربما منعت من ذلك ظروف التقيّة، لكن لا مع غيبة الإمام عليه السلام فإنه لا خوف عليه حينئذ.

وعلى كل، فالظاهر أن المبني المذكور غير تام، ومعه يسقط التوقيع عن الحجية.

لكنّ الشهيد الصدر قدس سره يري صحة واعتبار التوقيع المذكور، ولعل السبب ما ذكره السيد الحائري أو غيره، لكنّه يرى أيضاً أن الحجية التي أثبتها الإمام عليه السلام للفقهاء ثابتة لهم بما هم علماء للدين وحملة للشريعة، فتكون الحجية الثابتة لهم مقيّدة بما لو كان تدخلهم ونظرهم منبعثاً عن هذه الصفة لا مطلقاً.

إلّا أن نصب الإمام عليه السلام رواة الحديث حجة من قبله على الناس، هل يلزم منه توليتهم منصب الشهادة والإشراف والرقابة حركة الأمة وتطبيقها الأحكام الشرعية في الجانب التنفيذي، وملء منطقة الفراغ بقوانين تناسب مقتضيات العصر والزمان في الجانب الشرعي، كما ذهب إليه الشهيد الصدر قدس سره ؟ أم توليتهم المنصب المذكور مع جعل ملء منطقة الفراغ بيد الفقيه الشهيد المنصوب من قبل الإمام عليه السلام ؟ أم يقتضي فوق ذلك بحيث يكون الفقيه منصوباً من قبل الإمام عليه السلام في كل ما يرتبط بالجماعة البشرية من أمور ؟

الحقّ صحة ما ذهب إليه الشهيد الصدر قدس سره في الجملة؛ لأن مقتضى آيات الاستخلاف للإنسان، وتوريث الأرض للبعاد الصالحين، ثبوت حقّ التصرف ـ أعني السلطة التنفيذية ـ لهم من الله سبحانه، كما أن مقتضي أية الشورى وغيرها إناطة ما يتعلّق بهم من أمور لهم.

و أمّا ملء منطقة الفراغ، فتارة تكون فيما توجد في مورده عناصر ثابتة مستنبطة من الكتاب والسنة من قبيل السياسة الخارجية والسياسة الاقتصادية، وأُخري فيما لا توجد من قبيل قوانين المرور والأحوال المدنية وغيرها.

فالقسم الثاني ممّا لا إشكال في دخوله تحت عنوان ﴿ **وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ** ﴾ [الشورى/٣٨]، وخروجه عن صلاحيات الفقيه بالكامل.

و **أما القسم الأول**: فقد يقال بدخوله ضمن صلاحيات الولي باعتباره المطلع على العناصر الثابتة في الشريعة، فوضع العناصر المتحركة ضمنها ميسور له دون غيره.

لكنّ هذا غير صحيح، فإنّ ترك هذه المنطقة فراغاً من قبل الشارع، إنما هو مراعاة لمقتضيات الزمان وطبيعة العصر، مما هو مناط تشخيص العرف. ومن هنا،

فإن هذا القسم من التشريع ينطوي على جانبين، جانب الثبات الذي يرتبط بالشارع المقدس، وجانب الحركية الذي لوحظ فيه مراعاته لمتطلبات العصر ويرتبط بالناس.

وعليه، فما نراه أن على الفقيه أن يرسم ويحدّد العناصر الثابتة المذكورة؛ ليتم سنّ القوانين والتشريعات في إطارها، ثم عرضها عليه مرةً لملاحظة مدى تطابقها مع العناصر الثابتة المحدّدة أولاً، وهذا المعني قد حققه سماحة ولي أمر المسلمين آية الله السيد الخامنئي بعد التعديل الذي أدخله على مجلس تشخيص مصلحة النظام.

لكنّ الشهيد الصدر ﷺ يرى كفاية أن تقوم الأمة بملء منطقة الفراغ بالقوانين المناسبة ضمن إطار مجلس الشورى ومجلس الحل والعقد بتعبير السيد الشهيد ﷺ حتى في هذا القسم، ولعله ملاحظات لجانب الحركية من هذا القسم، ثم تعرض على الولي الفقيه، فإن وجدها ضمن إطار العناصر الثابتة للشريعة الإسلامية أقرّها، وإلّا أعادها لتعاد صياغتها من جديد.

و مهما يكن، فالصورتان لا تعارض بينهما، لأن المهم تحقيق وقوع العناصر المتحركة ضمن العناصر الثابته للشريعة مع إناطة جانب الحركية بالأمة أو من يمثلها، سواء كان بتحديد العناصر الثابته من قبل الفقهية قبل تشريعها من قبل مجلس الشورى ثم إقرارها، أو بملاحظة وقوعها كذلك بعد التشريع وإمضائها.

و كيفما كان، فالشهيد الصدر ﷺ إن كان قائلاً بالولاية والنيابة، فإنما يقول بها فيا يخص الشريعة والحفاظ عليها وجعل الإمام عليه السلام له حجة يأتي في هذا السياق.

و هو ما يستلزم أن يكون لرأيه حكومة على سائر القوانين والتشريعات والتطبيقات الجارية في البلاد؛ لوضوح أن ما دلّ على منح الأمة حق الخلافة

والتشريع ضمن مبدأ الشورى غير مطلق، لتقييد الخلافة بعدم مخالفتها لأوامر المستخلف وأغراضه، والشورى بكونها في الأمور الراجعة لهم المستفاد من قوله ﴿ وَأَمْرُهُمْ ﴾، لا ما كان أمراً راجعاً لله سبحانه.

و توهّم أن عدم ممارسة الفقهاء التشريع أصلاً ولو في ملء منطقة الفراغ يؤدي إلى إنكار ولاية الفقيه رأساً[٢٩]، غير صحيح؛ لوضوح أن السيد الصدر ﷺ يثبت الإشراف وحق التدخّل للفقيه، وهو ما يحتاج إلى نصب من قبل الإمام عليه السلام أيضاً، ونصب الإمام عليه السلام الفقيه كحامل للشريعة يتطلب وقوع الفقيه في موقع أعلى السلطات وتمتعه بحق الأشراف والرقابة على السلطتين التنفيذية والتشريعية، والتدخل حيث يتطلّب المقام ذلك.

و بذلك يثبت وفاء التوقيع المذكور بكلا المنصبين الأولين للفقيه.

و أمّا المنصب الثالث، وهو تولّي الفقيه نيابة عن الأمة جميع الأمور الثابتة لها زمان تحرّرها، فلعله لأدلة الأمور الحسبية التي يشكّل الفقيه القدر المتيقن ممن له القدرة على التصدي لها. لكننا نرى بمقتضي الارتكاز المتشرّعي، وبمعونة روايات مثل: « الفقهاء أُمناء الرسل »[٣٠]، و« الفقهاء حصون الاسلام »[٣١]، وغيرها. إن الفقيه لا يتمتع بمجرد الإشراف والرقابة على سير الأمة تخرج عن الخط الذي رسمته الشريعة لها، بل يتمتع مضافاً إلى ذلك بمنصب المحافظ والأمين على الإسلام والشريعة، الذي يستشرف المستقبل ويحدد الأهداف والمقاصد، بل والوسائل أيضاً في حركة الأمة ومسيرتها عبر التاريخ.

و من هنا، فإن ما رسمه السيد ولي أمر المسلمين من توسعة صلاحيات مجل تشخيص مصلحة النظام، ليشمل رسمه السياسة العامة للبلاد تدخل ضمن ما قرّره الشارع من وظائف واختيارات للفقيه.

و بالملاك نفسه نري ثبوت الولاية للفقيه في زمان قصور يد الأمة عن ممارسة حقّها في الحكم، فإنه أيضاً مسؤول عن تولّي كل الأمور الكفيلة بإيصال الأمة الاسلامية المعتقدة إلى مرحلة استلام السلطة من دون حاجة إلى الاستدلال بالأمور الحسيبة.

و هكذا نثبت بالارتكاز الولاية للفقيه، بمعني أنه الأمين الحفيظ على الإسلام، معزّزا ذلك بسيرة فقهائنا الأعلام خلال المدة الماضية منذ زمان الغيبة وإلى وقتنا الحاضر، حيث كانوا هم المدافعين عن حياض الإسلام وبيضته، والذابين عن حماه، والمتحملين أعباءه ومخاطره، والممارسين لجميع التصرفات المتوقف عليها ذلك.

هذا وللبحث في نظام الحكم برأي الشهيد الصدر ﷺ تتمة، وقد آثرنا الوقوف عند هذا الحدّ، سائلين المولى الرحيم أن يوفق الإسلام والمسلمين لكل سبل الخير والصلاح، إنه نعم الموفق.

الهوامش

(١)ورد الحديث بلا سند في بحار الأنوار٢ : ٢٧٢ح ٧ وعوالي الآلي ١: ٢٢٢، ٤٥٧ و٢: ١٣٨، ٢٠٨؛ ونهج الحقّ:٤٩٤ وفي بحار الأنوار: ((إن الناس...)). (م) .

(٢)خلافة الانسان وشهادة الانبياء: ٢٠ .

(٣)أُنظر للمثال ؛ البقرة: ٣٠؛ الأنعام: ١٦٥؛ الأعراف: ٦٩ و٧٤ و١٢٩؛ يونس: ١٤ و٧٣؛ فاطر:٣٩؛ النمل:٦٢؛ وغيرها .

(٤)أُنظر للمثال الأعراف: ١٠٠ القصص:٥؛ الأعراف ١٢٨ .

(٥)أُنظر للمثال: النساء ٥٨ .

(٦)خلافة الانسان وشهادة الأنبياء: ٤٢.

(٧)أصول الكافي ١: ٢٨٦. (م)

(٨)روض الجنان:٢٩٠ .

(٩)جامع المقاصد ٢: ٣٧٥؛ رسائل الكركي ١: ١٤٢ و١٤٣ .

(١٠)عوائد الأيام:٥٣٦ .

(١١)جواهر الكلام ١٥:٤٢و ٢١ و٣٩٥.

(١٢)رسائل الكركي ١: ١٤٢ .

(١٣)المكاسب : ١٥٣ .

(١٤)التنقيح في شرح العروة الوثقي ١: ٤١٩؛ مصباح الفقاهة ٥: ٥٢ .

(١٥)خلافة الانسان وشهادة الانبياء: ٥٣.

(١٦)لمحة تمهيدية عن مشروع ستور الجمهورية الإسلامية: ٢٣ .

(١٧)المصدر السابق: ٢٥ و٣٢ .

(١٨) المصدر السابق: ٣٢ .

(١٩)المصدر السابق: ٣٢-٣٣ .

(٢٠)المصدر السابق : ٣٣.

(٢١)المصدر نفسه .

(٢٢) جاءت الحلقة الأولى من سلسلة (الاسلام يقود الحياة) تحت عنوان (لمحة تمهيديّة عن مشروع دستور الجمهورية الإسلامية)، والثانية (صورة عن اقتصاد المجتمع الإسلامي)، والثالثة(خطوط تصليّة عن اقتصاد المجتمع الإسلامي)، والرابعة (خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء)، والخامسة (منابع القدرة في الدولة الإسلامية) والسادسه(الأسس العامة للبنك في المجتمع الإسلامي).(م)

(٢٣)خلافة الانسان وشهادة الأنبياء: ٥١- ٥٢ .

(٢٤)ولاية الأمر في عصر الغيبة: ١٤١ .

(٢٥)خلافة الانسان وشهادة الأنبياء : ٥٣ .

(٢٦) رواه الصدوق في كمال الدين ٢:٤٨٣ عن محمد بن محمد بن عصام الكليني، عن الكليني عن إسحاق بن يعقوب. وانظره أيضاً في : الوسائل ٢٧: ١٤٠؛ بحار الأنوار ٢: ٩٠ و٥٣: ١٨٠.(م)

(٢٧) راجع مثلا الشهيد + في (المعالم الجديدة للأصول) لدى حديثه عن تطوّر معنى (الاجتهاد). م .

(٢٨)أصول الكافي ٢: ٦٧٠ .

(٢٩)ولاية الأمر في عصر الغيبة: ١٤١ .

(٣٠)أصول الكافي ١: ٤٦. (م) .

(٣١)أصول الكافي ١: ٣٨. (م) .

خـــــط الثـــورة

القسم الثاني من كتاب دروس في الثورة الإسلامية

❐ آية الله محمد مهدي الآصفي

خط الإمام في مسيرة الثورة، كان من أعظم مكاسب هذه الثورة المباركة بالتأكيد رغم ضخامة، وأهمية كل مكاسب الثورة في الحقول السياسية والفكرية والاقتصادية والجهادية.

وعلى قدر أهمية هذا الخط، وقيمته ودوره في بناء الثورة، واستمراريتها، تكون مسؤوليتنا تجاه الخط وحمايته.

وخلال السنوات القليلة التي قبل الثورة، وبعدها لم يتعرض للخطر شأن من شؤوننا، كما تعرض الخط. فلقد كان هذا الخط موضع استهداف أعداء الثورة الإسلامية، قبل الثورة وبعدها.

وأعداء الثورة عندما يستهدفون خط الثورة، فإنما يستهدفون قلب الثورة، ويعلمون إنهم إذا أصابوا الخط فإنما يصيبون المقتل من جسم الثورة.

فإن الخط قلب الثورة وعقلها وروحها وقيمها، ومن دون الخط لا تزيد الثورة على أن تكون مؤامرة على الجهاز الحاكم في البلد واستبدال وجوه بوجوه أخرى.

إن مصدر قوتنا، وارتباطها بالأمة وتفاعل الأمة معها، هو وجود خط الإمام في صلب الثورة.

ووجود الخط هو الذي يجمع الناس حولها ويربط الناس بها، ويحشد الأمة حولها، ويدعوا الأمة إلى الوقوف إلى جنب الثورة والتضحية للثورة. ولذلك كان الإمام يقول في خضم الصراع مع بني صدر، وكتلة من الذين تسلّقوا جدار الثورة

واندسّوا في صفوفها، واحتلوا مواقع حساسة، في لحظة غفلة من الأمة، ثم بدؤوا يستعرضون عضلاتهم السياسية أمام الناس... كان الإمام يقول لبني صدر في خضم هذا الصراع « إن هؤلاء الناس لا يريدونك أنت ولا أنا، أنما يريدون الإسلام ».

إن قضيتنا الأولى والأهم من هذه الثورة المباركة، مسألة الخط، وأما المسائل الأخرى فدورها دور ثانوي في مكاسب ومسائل الثورة.

لم يكن الهدف من الثورة، الأرض، أو النفط، أو المال، أو السلطة، وإنما كان الهدف الأساسي من هذه الثورة أعادة الخط الإسلامي الأصيل إلى صلب المجتمع، وتحكيم الأصول الإسلامية في الحكم، وتحرير الناس من الطاغوت، وتعبيدهم لله تعالى.

وتحكيم هذه الأصول تعيد إلينا ـ بالتأكيد ـ السيطرة على الأرض، والمال، والسلطة، ولكنه شيء آخر غير النفط والمال، والأرض، وأسمى منها جميعاً.

تحريف الثورة:

لقد حاول ـ بجهد وخبث ـ بعض المندسّين في صفوف الثورة في أيامها الأولى، أن يحرفوا الثورة عن خطها الإسلامي الأصيل ورسالتها، إلى رسالة نفطية، ويجعلوا هذه الانتفاضة والثورة الإسلامية الكبرى امتداداً للحركة التي قادها الدكتور مصدق.

ولكن قائد الثورة الإمام الخميني ـ حفظه الله ـ كان واعياً لهذه المحاولات التحريفية لخط الثورة، ورسالتها فأعلن أن الأمة « إنما ضحت في هذه الثورة بأفلاذ أكبادها، وأعزائها من أجل الإسلام، وليس من أجل النفط ».

وإذا عاد الإسلام إلى حياتنا ومجتمعنا فإننا نملك كل شيء، بما فيه النفط،

والأرض، والسيطرة، وكان الإمام يقول... « إننا دفعنا ثمن هذه الثورة غالياً، فلا نتركها عرضة للأطماع والألعاب السياسية ـ وحفنة من السياسيين المحترفين في اللعبة الدولية ».

لقد كان انتصارنا نحن في هذه الثورة قبل كل شيء انتصاراً في الخط، ولأول مرة في تاريخنا السياسي المعاصر يبرز الخط الإسلامي الأصيل على الساحة السياسية والدولية إزاء الخطين: اليمين واليسار، وما بينهما من خطوط، واتجاهات.

ويبرز الخط الإسلامي باتجاهه الأصيل المستقيم، في وقت استنفذ فيه الخط اليميني، والخط اليساري قدرتهما على البقاء، ولم يعد لهما ذلك البريق الخاطف الذي كان يحيطهما أول الأمر.

وقد عرفت أمتنا إن هذه الخطوط والأفكار الدخيلة لم تعد تحمل مقومات البقاء، وأثبتت خلال هذه الفترة من الممارسة السياسية فشلها على الساحة السياسية، والاقتصادية والثقافية والاجتماعية في حياتنا. وشاء الله تعالى أن يبرز الخط الإسلامي على الساحة السياسية في وقت هزيمة الخطوط الفكرية والسياسية الأخرى.

الأعماق الحضارية لخط الإمام:

والخط الذي تبنّته الثورة وسارت عليه، تمتد أصوله، وجذوره إلى دعوة الأنبياء والمرسلين ، وليس فيه شيء جديد، إلا ما يتعلق بظروف التطبيق والعمل. والثورة تتحرك على خطى أولئك الصديقين الذين حمّلهم الله تعالى حكمته ورسالته على خطى إبراهيم، ونوح، وموسى، وعيسى ورسول الله عليهم صلوات الله وسلامه، وعلى خطى أهل البيت رسول الله .

كما تستمد الثورة فاعليتها، وفهمها لأسلوب التحرك، والعمل من حياة هؤلاء القادة، وتحرّكهم، وعملهم في المجتمع، وعلاقتهم بالله تعالى وبالناس.

وعي المحنة:

ثم تستمد الثورة تصوراتها، وفهمها لخط التحرك السياسي والجهادي، من خبراتها وتجاربها على طريق الإسلام خلال هذه السنوات المباركة، ولا أقول العجاف، بل سني المحنة.

لقد زوّدتنا هذه السنوات التي عشناها في مواجهة التيارات الكافرة التي دخلت بلادنا وبيوتنا، وفي مواجهة الغزو السياسي والفكري والعسكري للغرب والشرق، وفي مواجهة عملاء الاستكبار الغربي والشرقي في بلادنا، وفي أتون المحنة، وزحام المشاكل، وفي وسط الابتلاءات السياسية الكبيرة، وفي داخل الزنزانات وتحت التعذيب، وفي دار الهجرة، وفي مواجهة اللعب السياسية، وفي مواجهة محاولات الاستكبار الغربي والشرقي لإجهاض الثورة أو تطويقها، أو مصادرتها أو تمييعها، أو تحجيمها، أو ترويضها للعبة الدولية. وفي الفرار والاختفاء من عيون الظالمين، وفي المواجهة المسلحة للطغاة والظالمين، وفي التصدي للمنافقين بعد انتصار الثورة، وفي مواجهة لعب، وأساليب المنافقين الماكرة والخبيثة والوحشية وأخيراً في مواجهة الحرب التي أثارها النظام العراقي ضد الثورة بإشارة، ودعم، وتبريك من الاستكبار العالمي بكلا جناحيه... أقول لقد زوّدتنا هذه السنوات المباركة التي عشنا فيها في وسط حافل بالعمل والجهاد والتضحية. الكثير من الخبرات، والتجارب والتصورات والرؤى السياسية، والجهادية، والتي ساهمت في تكوين الخط وبلورته، وإبرازه على شكل خط سياسي جهادي متكامل.

كما أن هذه الفترة الحافلة بالمحنة والابتلاء، والعمل، والجهاد كان لها تأثير الكبير في تعميق الوعي الثوري الإسلامي، والوعي الحركي، والجهادي في أمّتنا،

وتعميق إيمانها بالخط، وتفاعلها مع خط الإمام.

فلو لا هذه المحن المتوالية التي تعاقبت على الأمة بعد الثورة، ولولا المواجهات الوحشية للمنافقين، والتصديات الأمريكية الفاشلة للثورة، والمحاولات التجسسية للاستكبار الشرقي، والحصار الاقتصادي والحرب.. لو لا هذه المحن والابتلاءات المتوالية، التي تعاقبت على أمتنا بعد الثورة، لم يبلغ الوعي السياسي، والحركي للخط، هذه المرحلة من النضج عند جميع الناس، على اختلاف مستوياتهم.

إن الشيء الذي يألفه الناس تاريخياً في المجتمعات، هو أن الوعي السياسي يتحقق دائماً يف طبقة النخبة المثقفة، ولا يتجاوز غالباً هذه الطبقة. وكان الوعي من الخصائص الفكرية لقمة الهرم الاجتماعي ـ في حالات سلامة الهرم والقمة ـ ويندر أن ينزل الوعي السياسي إلى قاعدة الهرم الاجتماعي، حتى في الحالات الصحية للهرم الاجتماعي. فيندر أن نجد إدراكاً صحيحاً للقضايا الاجتماعية، والسياسية المعقدة وحساً سياسياً مرهفاً في الأوساط الشعبية في الشارع والسوق والمعمل والحقل.

في وعي النخبة، ووعي الجمهور:

ومن خصائص هذا الوعي السياسي للخط أنه لم يكن يقتصر على دائرة النخبة المثقفة فقط كما يحصل عادة، وإنما نزل هذا الوعي إلى الشارع، وتمكن من عقلية أفراد النخبة المثقفة المخلصة، ومنحهم حصانة ومناعة فكرية وسياسية، كما منحهم صلابة وقوة، وهذه الحالة تتفق تاريخياً في المجتمعات الإنسانية ولكنها نادرة الاتفاق.

الغوغائية والوعي:

التصور الغربي للمجتمعات البشرية هو أن حالة الغوغائية في الحالة المسيطرة على الأوساط الشعبية والجماهير، والعقل الجمعي هو الذي يوجه التجمعات البشرية، وليس التفكير الموضوعي، والفهم الدقيق والتشخيص الصحيح.

وهذا تصور صحيح للمجتمعات غير الموجهة. ففي المجتمعات غير الموجهة يحكم العقل الجمعي التكتلات والتجمعات البشرية، وحالة الغوغائية تكون هي الحالة الغالبة، وليس الأمر كذلك في المجتمعات الموجّهة.

وقد لاحظنا في تيار الثورة الإسلامية، إن الجمهور استطاع بفضل التوجيه المستمر، أن يتخلص من حالة الغوغائية، ويخضع في تحرّكه السياسي، والجهادي للتشخيص الصحيح والتفكير الموضوعي، ويتناول القضايا السياسية والاجتماعية المعقدة بحس سياسي مرهف، وتشخيص دقيق، وتفكير موضوعي.

وقد كانت هذه القفزة الاجتماعية من أهم خصائص الثورة الإسلامية، حيث استطاع جمهور الثورة أن يواكب التحرك السياسي والجهادي للثورة، في دقة ووعي وذكاء منقطع النظير. لم ينغش الجمهور ولم ينخدع، ولم يغلب أن يزلّ الجمهور عن جادة الحق، والتصور الواعي الصحيح، كان يعود سريعاً، ويصحح خطأه، ويتلافى الخطأ.

لقد أخطأ الجمهور بالتأكيد، في انتخاب أبو الحسن بني صدر رئيساً أول لأول جمهورية إسلامية بتربيته الغربية، ولقد صفق المخططون الأمريكان لهذا الاختيار، وعادت إليهم ثقتهم في خططهم السياسية ومكرهم. لكن سرعان ما عادت الأمة إلى وعيها وتحركت باتجاه تدارك خطئها الكبير، وتجمعت في الشوارع تنادي بسقوط « الشاه الثاني: بني صدر » وخيّبت ظنون الدوائر السياسية الأمريكية.

الثورة الثالثة:

لقد مرت على هذه الثورة، أيام مباركة، ولا نقول سوداء، لأن الفتنة والمحنة في تاريخ الأمم ـ في رأينا ـ مصدر كل بركة ووعي، وحركة.. مرت على الثورة أيام مباركة لم يبق لخط الإمام من رصيد، غير جماهير صلاة الجمعة، والتظاهرات والمسيرات، وتجمعات دعاء كميل، ومجلس الشورى الإسلامي.

وفيما عدا ذلك، فقد كان بني صدر والحفنة من الرجال الذين جاء بهم، يصولون، ويجولون في رئاسة الجمهورية والإذاعة والتلفزيون والصحافة، والمراكز الحساسة، والثقافية، والإعلامية، والعسكرية، وغير ذلك من المراكز الحساسة في الدولة.

وكان الإمام، على قدرته الفائقة على ضبط النفس في المواقع الحساسة، لا يكتم غضبه وكان يصرخ ويغلي عندما يرى أن هذه الحفنة تحاول أن تحرف مسيرة الثورة من اتجاهها الإسلامي الأصيل، إلى اتجاه ليبرالي إيراني ديمقراطي، موالٍ للغرب.

فتحركت جماهير صلاة الجمعة، والمسيرات ودعاء كميل، وهم ينادون «لسنا نتركك وحدك يا أمام كما ترك أهل الكوفة الحسين عليه السلام في يوم الطف». واستطاعت هذه الجماهير أن تعيد المياه إلى مجاريها، وتطرد هذه الحفنة من كراسي الحكم إلى حيث كانوا من مقاهي باريس.

لم يكن بني صدر وحفنته يفقدهم الذكاء السياسي ولم تكن هزيمتهم بسبب قلة الذكاء.. ولكن الجمهور كان على مستوى رفيع من الوعي، والفهم السياسي وكان على استعداد كاف للحضور المستمر في الساحة السياسية.

الحضور المستمر في الساحة السياسية:

بورك في هذا الجمهور، ووعيه وتضحيته، وصبره في سبيل الله تعالى. لم يفارق الساحة السياسية، ولا لحظة واحدة، ولم يغب عن الساحة في تلك اللحظات

الحرجة الحساسة، وظل يتابع الأحداث السياسية وتطوراتها بدقة متناهية ولحظة بعد لحظة، ويكتشف بذكاء وسائل المنافقين وأساليبهم، ويبادر إلى فضحها بكل وسيلة ممكنة. ولم يترك هذه الثورة، لتكون لعبة لحفنة من الرجال المنحرفين للسياسة والألعاب السياسية.

لقد كان لوعي الجمهور السياسي لخط الإمام، وحضوره المداوم في الساحة السياسية، ومراقبته لسير الثورة، وتحرّكها على خط الإمام، وتضحيته في سبيل ذلك كله، من أهم أسباب سلامة وبقاء هذه الثورة المباركة.

مكاسب ومتاعب الخط:

لقد كان وجود الخط في صلب الثورة من أسباب قوة الثورة وبقائها وتحشيد الطاقات المؤمنة حولها، وكان من أسباب سلامة الثورة. فلم يستطيع المنافقون المتسلّلون إلى الثورة من سرقة الثورة. وخط الإمام هو الذي منح الثورة هذه المناعة والحصانة.

كما أن الخط كان مسبباً لكل متاعب الثورة ومشاكلها. فلولا أن الثورة تتحرك على خط لم تكن موضعاً لنقمة وغضب الاستكبار الشرقي والغربي، ولم تكن الثورة.

أن خط الإمام كان سبب نقمة وغضب أميركا وكان سبباً لكل المشاكل التي سبّبتها أميركا للثورة إلى هذا التاريخ..

ولأمر ما، نجد أن وجود خط الإمام يخيف الاستكبار العالمي بهذه الصورة.

بعض مفردات خط الإمام:

مفردات خط الإمام كثيرة، ولكل منها شرح وتفصيل لا مجال لذكره هنا، وإنما نشير هنا فقط إلى بعض المفردات من خط الإمام.

من مفردات خط الإمام:

الثقة المطلقة بالله سبحانه وتعالى، والاعتماد والثقة بالأمة في مسير الحركة، والتعامل مع الأمة من موضع الثقة الكاملة، والصدق والاستقلال الكامل عن الشرق والغرب، واعتماد سياسة لا شرقية ولا غربية، واعتماد الأصالة الإسلامية في التفكير والخط، وعدم الركون إلى الفكر الغربي والشرقي والاتجاهات الفكرية الدخيلة بينهما، والاكتفاء الذاتي في المجال الاقتصادي، والاعتماد على النفس في الإنتاج، واعتماد التقوى في المسؤولية في المراكز الحساسة في الدولة، أكثر من الاختصاص العلمي، دون أن يعين ذلك إلغاء عنصر الاختصاص في المسؤوليات، والمراكز التنفيذية والفنية، وولاية الفقيه في شؤون الحياة، وربط المجتمع بولاية الله تعالى ورسوله عن هذا الطريق، ووصل ما انفصل عن هذه السلسلة الإلهية في حياة الأمة، عن طريق ولاية الفقيه وإعادة الأعراف والمصطلحات الإسلامية من جديد إلى الحياة، ومكافحة الأعراف والمصطلحات النابعة من الحضارات المادية، وتزكية النفس، ومكافحة الهوى، والاهتمام بحضور الأمة في الساحة السياسية، وإعطاء العبادات الإسلامية مداليلها السياسية، كما في صلاة الجمعة والعيدين والحج.

وأيضاً التركيز على التجمعات العبادية الإسلامية كاجتماعات دعاء كميل للتوجه إلى الله تعالى، وتوجيه الناس إلى ذكر الله والعلاقة بالله تعالى، واكتساح الحدود القومية، والإقليمية، والجغرافية، التي رسمها الاستكبار العالمي هذه الفترة لتمزيق شمل المسلمين، وتعميق حالة العداء والنفور والسخط تجاه قوى الاستكبار العالمي، وخاصة أميركا، وتزكية، وتنمية العواطف والأحاسيس الإسلامية إلى جانب الوعي والتعقل السياسي والفكري، والترغيب في الشهادة،

والتذكير بقيمة الشهيد في حياة الأمة، وإعادة فاعلية دور الدم في صنع التاريخ، وتحطيم عروش الطغاة والجبابرة، ومواجهة القضايا السياسية والجهادية بحسم وقاطعية، دون تردد وضعف، والنفس الطويل والهدف والبناء، وتحويل أنظار الناس واهتماماتهم من القضايا الجزئية الصغيرة الملهية، إلى الاهتمامات العالية الكبيرة، كقضية القدس، ومكافحة إسرائيل، وإسقاط النفوذ الأمريكي والروسي في المنطقة، وتحرير مصادر الثروة الإسلامية من نهب الاستكبار العالمي، والإيمان المطلق بأن العاقبة للمتقين، والصبر والثبات لبلوغ هذه العاقبة، وتحويل اهتمامات الدولة في مجال العمران والخدمات، من الطبقة المترفة إلى الطبقات المحرومة، والمسحوقة، وتدريس الأمة وتسليحها لحماية الثورة، والاعتماد على دور الأمة في حماية الثورة وأمنها، واللجوء إلى الأمة بعد الله تعالى، عند كل ملمة ومشكلة، وربط الأمة بتراثها وموازينها الفكرية والحضارية وجذورها وأبعادها التاريخية، مثل إقامة مجالس عزاء الحسين عليه السلام، وطرح القدوات الصالحة في حياة الناس من الأنبياء والأئمة، بدل الوجوه الدخيلة الغربية والشرقية التي تطرحها وسائل الإعلام التابعة للأنظمة العميلة في العالم الإسلامي.

القفزة النوعية:

إن القفزة النوعية التي حقّقتها الثورة في حياتنا الفكرية عظيمة. فقد نقلتنا الثورة من الإيمان بقدرة القوتين الكبيرتين المطلقة، واستحالة الانفلات من دائرة نفوذ هاتين القوتين بشكل من الأشكال إلى مبدأ لا شرقية ولا غربية، والتمرد على نفوذ الشرق والغرب ومكافحة نفوذ سلطان الاستكبار الغربي والشرقي في حياتنا، والهوة بينهما هوة سحيقة عميقة.

ونقلتنا الثورة من مبدأ فصل الدين عن السياسة الذي كان يشكل المبدأ

الرسمي في العالم الإسلامي، والمتبني من قبل الأنظمة وأجهزة التعليم والتثقيف والإعلام الرسمية، إلى مبدأ ولاية الفقيه، وطرح الفقه الإسلامي في ساحة الحكم والإدارة والاقتصاد، وإعطاء الفقيه الولاية في ساحة الحكم والإدارة والاقتصاد، وإعطاء الفقيه الولاية المطلقة على حياة الناس. إن الانتقال من مبدأ (الفصل بين الدين والسياسة) إلى مبدأ (ولاية الفقيه)، قفزة هائلة في حساب التطور، والنضج الاجتماعي.

لقد حققت الثورة قفزات نوعية كبيرة باتجاه خط الإسلام الأصيل، والصحيح، خلال هذه الفترة والنقلة الفكرية والسياسية خلال هذه الفترة القصيرة من عمر الثورة كانت نقلة كبيرة، أكبر من عمر الثورة الزمني بكثير.

مسؤوليتنا تجاه خط الثورة:

إن مسؤوليتنا تجاه خط الثورة بقدر قيمة وأهمية هذا الخط في حياتنا السياسية، وإن حياة الخط وبقاءه وسلامته، مرتبط في حياة الثورة وبقائها وسلامتها. ومسؤولية المحافظة على خط الثورة من التحريف والتمييع، على عهدة كل مسلم يشعر بقيمة هذا الخط وأثره ودوره في حياة المسلمين اليوم.

إن علينا أن نبذل كل جهد للمحافظة على هذا الخط، ونبذل دون هذا الخط الغالي والعزيز، ونرسخ صلة الخط بالأمة وعلاقة الأمة بالخط، وننشر الوعي بالخط في صفوف الأمة، ونكافح كل محاولة تضليلية وتحريفية للخط.

إن علينا أن نعمق الإيمان بهذا الخط في نفوس الناس ما أمكننا ذلك، ونربط الثورة، والخط، والأمة، والإمام ببعض، ونجعل منها قوة واحدة في مواجهة الاستكبار العالمي ـ بإذن الله تعالى ـ.

رسالة الثورة:

لكي يتحرك الإنسان، ويعمل بطلاقة وحرية، لا بد أن يتخلص من كل قيد على رجليه ويديه، يعرقل ويقيد حركته وعمله، وكل ثقل على ظهره يثقله، ويثقل حركته.

وما دامت هناك قيود على يديه وقدميه، وثقل على ظهره، أو كتفه، أو رأسه، فلا يستطيع الإنسان أن يتحرك بطلاقة وحرية.

وهذه السنّة الإلهية تجري في العمل والتحرك الروحي والاجتماعي والسياسي، كما تجري في الحركات العضلية تماماً.

فلكي يتحرك الإنسان في علاقته بالله، وفي علاقته بالمجتمع، ولكي يبدع ويتقدم، ولكي تتفجر طاقاته ومواهبه، لابد أن يتحرر من القيود والأثقال.

ولكي يتمكن المستكبرون من الاستكبار في الأرض وفي حياة الناس، واستضعاف عباد الله... لا بدّ لهم من تقييد الإنسان، وأثقاله لعرقلة تحرّكه، وإبطاء سيره وعمله، فلا يستطيع الإنسان بعد أن يتحرك أو يعمل بطلاقة، ولا تتفتح مواهبه وكفاءاته، ولا يستطيع أن يبدع أو يتقدم أو يبادر. ذلك أن الإنسان ينطلق من التحرك والعمل، عندما يتحرر من كل قيد وثقل. فإذا أثقلته الأثقال، وقيّدته القيود، تتعطل حركته، وتجمد مواهبه، ويتوقف عن الإبداع والمبادرة والإقدام.

ولذلك فإن تقييد الإنسان وأثقاله هو (إفساد) للإنسان، وتحطيم لشخصه، وتجميد لمواهبه وكفاءاته.

فإذا فسد الإنسان تحوّل من شخصية مبدعة، قوية، مؤثرة، كفوءة، مبادرة، شجاعة، مخططة، حرة، خاضعة لله، متمردة على الهوى والطاغوت... إلى

شخصية ضعيفة، تابعة، وامّعة، وخائفة، وقلقة، وخاضعة للهوى والطاغوت، ومقطوعة عن الله تعالى، وهذه هي مظاهر الفساد في شخصية الإنسان. فإذا فسدت شخصية الإنسان يسهل انقياده، ويأمن الطغاة جانبه، ويسهل إخضاعه، وتركيعه، وتسييره، وتسخيره لمطامع وأهواء الطغاة والجبابرة.

وهذا هو (الاستضعاف) للإنسان، واستدراج الإنسان إلى (الضعف)، وتفريغ الإنسان من القيم الإنسانية والمواهب التي رزقه الله تعالى.

الإصر والأغلال (العوائق):

والأداة التي يستعملها المفسدون في الأرض، لإفساد الإنسان، هي (الإصر والأغلال) حسب تعبير القرآن الكريم. والإصر هو الثقل الذي يثقل حركة الإنسان، والأغلال هي القيود التي تعرقل تحرك الإنسان.

فهناك نوعان من العوائق، أو هناك نوعان من أدوات الإفساد، يستعملها المفسدون لعرقلة تحرك الإنسان وإفساده، نوع يثقل حركة الإنسان ويبطئه، وهو (الإصر)، ونوع آخر يقيده عن الحركة ويعطل طاقاته وإمكاناته ويقيّده بشكل مطلق، وهو (الأغلال والقيود).

والفرق بينهما أن الأغلال تصد الإنسان عن التحرك مطلقاً وتشل الحركة، بينما الإصر يثقله ويبطئ تحرّكه.

فالجهل من (الأغلال) التي تغل الإنسان، وتعصب عينيه، وتسلب سمعه، وتعطّل فهمه وإحساسه وإدراكه، وإذا تعطل فهم الإنسان وإدراكه لم يتمكن من أي عمل أو حركة إيجابية.

والهوى من (الأغلال) التي تغل الإنسان وتعمي قلبه وبصيرته، وتعطل قلبه

وتسلبه البصيرة.

والخوف من (الأغلال) التي تشل حركة الإنسان مرة واحدة، وتسلبها كل قدرة على التحرك، والعمل، والمبادرة، والإقدام.

واليأس من (الأغلال) التي تعطل روح الإنسان ونسلبه الأمل، وإذا فقد الإنسان الأمل في الحياة تحوّل إلى ميت يتحرك بين الأحياء.

واللهو من (الأغلال)، التي تلهي الإنسان عن العمل الجاد، وتصرفه عن الجد.

إلى غير ذلك من الأغلال والقيود التي تعيق تحرك الإنسان في الحياة.

والترف والبذخ في الحياة الدنيا من الإصر، الذي يثقل الإنسان ويبطئ تحركه، وعمله.

وكثرة الجدل والمراء من (الإصر) الذي يثقل الإنسان، أينما وجد المرء والجدل. وإذا كره الله تعالى قوماً ابتلاهم بالجدل والمراء.

والكسل، وإيثار العافية، والراحة من (الإصر) الذي يثقل حركة الإنسان.

والأعراف والعادات والتقاليد الجاهلية من (الإصر) الذي يثقل تحرك الإنسان ونموه، ويعتّم رؤيته تجاه الآخرين، ويعرقل التعاون، والعمل الجمعي في سبيل الله، ويعدّ النفوس للخلافات، والمشاكل، والمتاعب، التي تثقل كاهل العمل، ونمو الإنسان، وتكامله وغير ذلك من الإصر.

وللمفسدين والمستكبرين وسائل، وطرق خبيثة، وماكرة كثيرة لزرع هذه الأغلال والآصار في حياة الناس، ولهم في ذلك تجارب وخبرات، وسنن، يتوارثونها جيلاً عن جيل.

فالتضليل الإعلامي، والتربية السيئة، وإثارة الخلافات، والنعرات، والإرعاب، والإرهاب، وتوسيع وتقوية دوائر الأمن، والمباحث، والتفرقة الإقليمية، والقومية، وإشاعة الفساد واللهو، وإشاعة الألعاب الرياضية وإعطاءها دوراً أساسياً في حياة الشباب، وتحريف الفكر، والثقافة، وتقديم الثقافة المضللة المنحرفة إلى الشباب، ومضايقة الناس في أرزاقهم، وحرمان الناس من العلم والثقافة المفيدة النافعة وإقحام الأعراف والتقاليد والعادات الدخيلة والغربية عنا إلى مجتمعنا... وغير ذلك كثير من الوسائل والأساليب، التي يستعملها المستكبرون في زرع الأغلال، والآصار في حياتنا الاجتماعية، والسياسية، وفي تعطيل الإنسان المسلم، وتجميده وتفريغه من القيم، والاهتمامات الرفيعة، وأخيراً إفساده.

الاستضعاف:

وبذلك يفسد الإنسان، ويفرغ من كل محتواه الإنساني، ويفقد كل قيم الإنسان، ومواهبه.

يفقد الشجاعة والمبادرة.

ويفقد القدرة على الإبداع، والتخطيط.

ويفقد الصبر، والثبات والصمود.

ويفقد الحياء، والعفة.

ويفقد القدرة على التمرد على الطاغية، والتحرك والثورة والجهاد.

ويفقد الأصالة، والاستقلالية.

ويفقد الثقة بالله، والاتكال على الله، والاعتماد عليه.

ويفقد الاعتماد على النفس.

ويفقد قابلية النمو، والنضج والتكامل.

ويفقد الفهم، والإدراك، والوعي.

ويفقد الصلة بالله، والإخلاص، والأسى بالله، والحب لله، والبغض لله.

ويفقد القدرة على مكافحة الهوى.

ويصيبه الضعف، والخور، والجبن، وبلادة التفكير والإحساس، والجهل، والإتكالية، والهزيمة النفسية، والصلافة، والاستهتار، والركون للظالم، والانقياد له، والانقطاع عن الله، والعمى، والصيم في القلب، وحب الدنيا، وطول الأمل، والاستسلام للهوى والطاغوت.

فيتحول من إنسان مبدع قائد، إمام، إلى سلعة رخيصة، واقعة بيد الطغاة والظالمين، وذلك سقوط الإنسان، وفساده.

وهذا هو معنى الفساد.

فإن إفراغ الإنسان من قيمه، واهتماماته، وتعطيل طاقاته، ومواهبه، وإعدام كفاءاته، وقدراته التي رزقه الله تعالى إفساد له.

يقول تعالى:

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾ [البقرة/٢٠٤ـ٢٠٥].

فالإفساد سعي في الأرض لإهلاك الحرث والنسل، ويقول تعالى **﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾** [البقرة/٦٠].

فالفساد أن يعثوا الإنسان في الأرض، ويبيد ويقطع ما أوصله الله، ويفسد ما رزق الله الإنسان.

وإذا أفسد الإنسان، ضعف، وإذا ضعف، سهل الاستيلاء عليه، والاستكبار عليه. والقرآن الكريم يعبر عن إفساد الإنسان بـ« الاستضعاف» اقرأوا الآية الرابعة من سورة القصص: ﴿**إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ**﴾ [القصص/٤].

إن فرعون لكي يعلوا في الأرض، ويستكبر، لابد أن يفرق الناس، ويجعلهم شيعاً، ويستضعف منهم طائفة، ويذبح طائفة أخرى وهذا هو عمل المفسدين ﴿**إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ**﴾، ولذلك قلنا إن الإنسان إذا فسد ضعف، وإذا ضعف سهل الاستعلاء، والاستكبار عليه.

والمفسدون هم الذين يعملون لاستدراج الناس إلى الفساد، والضعف واستضعاف الناس لاستبعادهم، والتحكم عليهم، وسلب إرادتهم، وحريتهم، وكرامتهم.

رسالة رسول الله ﷺ في حياة الناس:

والرسالة التي بعث الله بها النبي ﷺ، هي لإزالة هذه الأغلال عن أيدي الناس وأرجلهم، ورفع الأثقال والآصار عن أكتافهم، وظهورهم.

﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ**﴾ [الأعراف/١٥٧].

وهذا الدور هو الدور الأساسي لرسول الله ﷺ ولكل الأنبياء والمرسلين.

وهذه المهمة هي واحدة من ثلاث مهمات ـ تعدّدها الآية الكريمة ـ في رسالة رسول الله ﷺ:

١ـ التوجيه: ﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾.

٢ـ التشريع: ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾.

٣ـ التحرير: ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾.

فتحرير الإنسان من الأغلال، والآصار من أهم أعمال الأنبياء عليهم السلام. ومن أهم بنود رسالتهم، ومسؤولياتهم الإلهية.

وإذا تحرر الإنسان من الأغلال، والآصار لم يستطع طاغية، ولا جبار أن يستعلي أو يستكبر عليه، ولا سبيل إلى إذلاله وتركيعه، وانقياده.

وعندما تزول هذه العوائق (الأغلال والآصار) عن حياة الإنسان، ينمو الإنسان نمواً سوياً، ويأخذ حظه من النضج، والكمال بصورة طبيعية، وتنفتح مواهبه، وكفاءاته، وقدراته، بصورة طبيعية، وبيسر، وينزع إلى الله تعالى نزوعاً فطرياً، ويتجه إل الله تعالى في حركة تكاملية.

مبدأ الجهاد:

ومن هنا ينبثق (الجهاد) في الإسلام، فإن هؤلاء المفسدين المستكبرين في النتيجة هم الذين يصدون الناس عن التحرك، والتكامل والنمو، ويعيقون حركة الإنسان إلى الكمال عن طريق الإفساد، ووضع الأغلال والآصار.

والقضاء على هؤلاء المفسدين هو السبيل لإنقاذ الإنسان، وتحريره، وذلك هو لباب مبدأ الجهاد في التشريع الإسلامي.

رسالة الثورة الإسلامية:

ونعود ـ بعد هذه الجولة من مفاهيم وأفكار الثورة ـ إلى رسالة الثورة الإسلامية.

واجهت الثورة أمامها ركاما هائلاً من الأغلال والآصار في الفكر، والثقافة والتربية والأخلاق والأعراف، والتقاليد والمصطلحات، والحضارة، ودوائر الدولة، والمدارس، والمعاهد، والصحافة، والإعلام... وفي كل مجالات الحياة.

وقد تكوّن هذا الركام من العوائق خلال خمسين سنة من كم أسرة بهلوي في إيران، كما تراكم في سائر أقطار العالم الإسلامي خلال فترة الركود، والسبات الطويلة في العالم الإسلامي.

وكان لا بد للثورة أن تؤدي رسالتها دوراً في إزالة هذه الآصال والأغلال، عن الإنسان المسلم في إيران، وفي كل العالم الإسلامي.

ولم يكن دور الإنسان المسلم خارج إيران دوراً ثانوياً للثورة، بالنسبة للإنسان المسلم في إيران، فليس للثورة حدود وقومية أو إقليمية، أو سياسية، وكان لا بدّ للثورة أن تمارس رسالتها في تحرير الإنسان المسلم في كل بقاع العالم الإسلامي.

تصدير الثورة:

وكان لا بد للثورة أن تجتاز الحدود الدولية المألوفة، وتتخطى العقبات والحواجز، وميادين الألغام، لتفتح طريقها إلى الأقاليم المتعطشة إلى الثورة من العالم الإسلامي، ولتمارس رسالتها في تحرير الإنسان المسلم وتخليصه.

ولذلك فقد كان تصدير الثورة من أولى اهتمامات وشعارات الثورة، وقد حمله الإمام نفسه، ونادى به، منذ أيام الأولى للثورة.

أن رسالة هذه الثورة رسالة إسلامية وإنسانية عامة، لا تحددها منطقية ولا إقليم، ولا لغة، ولا عرق، ولا طائفة، ولا مذهب.

وما دام في المنطقة الإسلامية إنسان مسلم يرزح تحت الأغلال، والقيود، فإن الثورة مدينة آلية، ومسؤولية تجاهه، في أقصى الشرق كان هذا الإنسان، أم في أقصى الغرب، ولا تبرّأ ذمة الثورة إلا عندما تكسر كل القيود، والأغلال عن أيدي كل المسلمين.

إن التصدير للثورة كالهواء للإنسان، يموت إذا انقطع عنه. فإن من سنن الله تعالى من الثورات والحركات: إن الثورة لا تقف في مكانها، وعند حد معين، فإما أن تتقدم، وتنمو، وأما أن تتراجع وتذبل ولذلك فإن الثورة الإسلامية إذا لم تتقدم وتكتسح من أمامها الحواجز، والسدود فإنها تذبل وتتأخر.

فليست مسألة التصدير، والتوسيع للثورة مسألة ترفيّة من مسائل الثورة، وإنما هي من الصميم من حاجات الثورة وضروراتها، وبدونها لم تحقق الثورة أهدافها.

الطبيعة الاقتحامية للثورة

إننا نعلم جيداً، إن القوى الاستكبارية لم تترك الثورة تتقدم، وتتوسع على حساب مصالحها، من دون مشاكل ومتاعب. وإنها تستعمل كل الوسائل الممكنة، للحيلولة دون تقدم الثورة، وتوسّعها.

فلا بد أن تمتلك الثورة الشجاعة الكافية لاقتحام الحواجز، واكتساح العوائق السياسية.

إن الثورة تصطدم ـ بالتأكيد ـ بكثير من الأعراف السياسية، والدولية. وأعداء الإسلام سوف يرصدون لمواجهة الزحف الإسلامي كل إمكاناتهم،

ويتناسون كل مشاكلهم وخلافاتهم، وسوف تواجه الثورة جبالاً من المشاكل أمامها، ولكن شيئاً من ذلك لا يجوز أن يعيقها، وإن الثورة لا بدّ أن تمتد وتتجاوز المشاكل، ولا يجوز أن تتردد الثورة لحظة واحدة في أن تتجاوز الحدود وتمتد إلى ما وراء الحدود.

(وطبعاً نقصد بذلك، التوسّع، والامتداد الفكري، لا العسكري، وسوف نوضح هذه الحقيقة فيما بعد، وإنما استعجلنا هنا في هذا الإيضاح، لئلا يؤدي إلى الالتباس) وإن مما لا يجوز في ثورة إسلامية ذات أهداف عالمية واسعة، أن تقف خلف الحدود المقفلة خجلي، مترددة، كما لو أن هيئة دبلوماسية تريد أن تدخل بلداً أجنبياً لغرض المفاوضات السياسية.

إن الثورة لا تحتاج إلى إجازة مرور واجتياز، وليس في الأرض بلد غريب عليها، ولا ناس غرباء عنها، وبهذه الروحية الحركية الثورية، يجب أن تعمل الثورة وتكتسح من أمامها الحواجز، والعوائق، وتذلل العقبات لتصل إلى كل الطبقات المستضعفة، والمحرومة من العامل الإسلامي، كما يصل الماء إلى أراضي صالحة غنية وعطشى.

هذه الحالة الاقتحامية هي جزء لا يتجزأ من الثورة، ومن دونها لا تستطيع الثورة أن تحقق غرضاً، أو تؤدي دوراً ثورياً إسلامياً في الأرض.

الجمهورية الإسلامية دولة وثورة:

إن الجمهورية الإسلامية دولة، وثورة، ولكل منهما أعرافه، وحدوده، وقانونه، وأصوله. والثورة هي الأساس، والدولة هي الفرع، وللدولة حدودها، ودبلوماسيتها، وسياستها وأصدقاؤها، وأعداؤها، وللثورة متطلّباتها، ودورها، ورسالتها الإسلامية العالمية.

وليس بالضرورة أن تتطابع دائماً دبلوماسية الدولة، والثورة، وأحكامهما،

وحدودهما، وقد لا تستطيع الدولة أن تفرض دبلوماسيتها على الثورة، وتحرّكها. فالهيئات التي تذهب للتفاوض مع حكام السعودية قبل الحج من قبل الجمهورية الإسلامية، لا تستطيع أن تخضع لشروط السعودية الرسمية. وهذه الشروط قد تنسجم مع الظروف الرسمية للدولتين، ومتطلبات العلاقات الرسمية بين الجمهورية الإسلامية والحكومة السعودية، ولكنها لا تنسجم مع متطلبات، وظروف الثورة الإسلامية.

إن الثورة، من خلال أبناءها الحجاج، تريد أن تتحرك في صفوف الحجاج في مكة المكرمة، والمدينة المنورة، وتريد أن تصرخ بهم، وتهتف، وتفجر سخط وغضب الأمة ضد أعداء المسلمين، وضد القوى الاستكبارية وعملائها، وضد الصهيونية، والصليبية، وتريد أن تهتف بموت أميركا، وإسرائيل وروسيا، وأذرعها في المنطقة. وتريد أن تنطلق في صفوف الحجاج من كل العالم الإسلامي لتنشر الوعي والحركة، وتفجّر الطاقات الكامنة في العالم الإسلامي، وتفضح القوى الاستكبارية وامتداداتها وعملاءها في المنطقة الإسلامية، ولتبعث المسلمين من جديد، ولتفجر الأرض براكين وحمماً تحت عروش وكراسي الطغاة والظالمين... والسعودية تريد حجاً وديعاً، هادئاً، من دون مشاكل ولا مزعجات، وتعتقد أن الحج شيء، والسياسة شيء آخر، والإيرانيون يأتون إلى الحرمين الشريفين برسالة سياسية مرعبة وليس برسالة الحج الشريفة، الآمنة الوديعة.

إن السعودية قد لا تفهم رسالة الحج، وقد لا تفهم رسالة الثورة الإسلامية، وقد تفهمها بتجاهل، لأن هذا الحج يشوش عليها الجو والاستقرار، فتطلب من المسؤولين الإيرانيين الالتزام بالهدوء والنظام بالحج، كما لو كان شرطي المرور يطلب من سائقي السيارات الالتزام بالعلامات الضوئية في مقاطع الطرق لسلامة المرور.

ولكن المسؤولين في الجمهورية الإسلامية يفهمون الثورة، ويفهمون رسالة الحج، وليس بوسعهم تجاهل شيء منهما، وهم يأتون للمفاوضة مع حكام السعودية دون أن تخولهم الثورة التنازل عن شيء من حقوقها والتزاماتها. وإن الحج حقل الثورة الخصيب، والتفريط بهذا الحقل الخصيب ـ لئلا يؤدي إلى إزعاج الحكام، والمسؤولين في السعودية ـ يشبه تماماً. كما لو أن الثورة أوقعت مسيرة مليونية في شوارع المدينة، لئلا يغضب شرطة المرور عند تخطي الإشارات الضوئية في مقاطع الطرق.

وإن مراعات أنظمة المرور حتى لا ننكره، ولكن الأولوية لحقوق الثورة، فإذا تعرضت أنظمة المرور، وحقوق الثورة، فالأولوية لحقوق الثورة.

وليس معنى ذلك أن الثورة تريد الإخلال بأمن الحج، والإخلال بالظروف العبادية للحج، ومضايقة الناس من أداء مناسكهم، وممارسة أعمالهم العبادية، أو إيجاد متاعب للنظام السعودي في إدارة الموسم.

فهذا شيء لا يسمح به أحد، ولا تسمح به الثورة نفسها، ولا يسمح به الإمام الذي يقود الدولة والثورة معاً، وإنما معنى ذلك السماح للثورة بأن تصرخ وتهتف فقط في الموسم، وفي الحرمين الشريفين، لإيقاظ النائمين من المسلمين، وفضح الاستكبار العالمي.. وهذا حق طبيعي للثورة، وفي صلب رسالة الحج، والثورة لا تريد أكثر من ذلك، والمسؤولين في السعودية يضايقون الثورة الإسلامية في هذا الحق الطبيعي.

أجل، إن رسالة الثورة تتطلب المبادرات السياسية، واقتحام الحدود، والأعراف، والحواجز، والعوائق، وأن تغتنم أية فرصة لتؤدي رسالتها إلى المسلمين جميعاً.

ولا بد أن تصطدم خلال هذه المسيرة الشاقة بالعقبات، والمتاعب، ولا يمكن أن يخلو طريق الثورة من هذه العقبات والعوائق.

ولا بد أن تكون الثورة مقدامة، وجريئة في اجتياز هذه العقبات، ولا تسمح لنفسها بالتردد والتوقف.

دور المبادرة:

لا بد أن تأخذ الثورة دور المبادرة في مواجهة أعدائها، ولا تقتصر على الأدوار الدفاعية فقط، فإن الأدوار الدفاعية تتسم بالضعف عادة، ويقتصر مفعولها على صد الهجوم، ولا يحقق تقدماً وتوسعاً.

إن الثورة الإسلامية لكي تحقق أهدافها، لا بدّ أن تتسلم دور المبادرة في التصدي لأعداء الثورة، واقتحام مراكزهم وبيوتهم ومعاملهم.

إن للكفر، وللاستكبار العالمي في بلادنا معاقل، وحصوناً، ومراكز للرصد والتجسس، ومعاهد لنشر الأفكار المنحرفة، ورؤوس أموال ضخمة، تؤمّن نفقات هذه المؤسسات، ورموزاً وشخصيات تحرك هذه المؤسسات باتجاه خدمة مصالح الاستكبار العالمي، ووسائل إعلامية ضخمة توجه أفعالها، وتروّض لها الرأي العام.

وهذه القواعد والمراكز والمعاقل لا تزال قائمة، وعلى الثورة الإسلامية أن تبادر إلى اقتحام هذه المراكز، وتستلم دور المبادرة في ذلك، وإذا أصرّت الثورة أن تلتزم بدور الدفاع، فإن وجود هذه المعاقل، والمراكز في الأرض الإسلامية عدوان صارخ على الأرض الإسلامية، والثورة الإسلامية، ولا بد أن تتحرك الثورة تجاهها بقوة، وحسم، ومن دون تردد، في الحدود التي تأمر بها الشريعة الإسلامية.

الاستقرار السياسي:

إن من أهم واجبات الثورة الإسلامية في هذه الفترة، الإخلال فيما تسمّيه قوى الاستكبار العالمي بـ «الاستقرار السياسي في المنطقة»، وتشويش الأجواء السياسية على الاستكبار العالمي وامتداداته في المنطقة الإسلامية.

إن الاستكبار العالمي يصطلح على استقرار مصالحه السياسية بـ «الاستقرار السياسي»، وهذا (الاستقرار) في الحقيقة، استقرار لمصالح الاستكبار العالمي، واستقرار لامتداداته وعملائه، واستقرار للاستمرار في نهب خيرات المنطقة بأمان وسلام، وليس استقراراً للناس في المنطقة، واستقراراً للحالة الاقتصادية، والسياسية في المنطقة الإسلامية، إن الذي يهم هؤلاء من (الاستقرار السياسي) استقرارهم، هم، لا استقرارنا نحن، واستقرار مصالحهم لا استقرار مصالحنا.

إن الاستقرار السياسي الذي تدافع عنه أميركا، ويهم أميركا شيء من هذا القبيل، إن أميركا إذ تهتم باستقرار منطقة الخليج، فإنها تهتم باستقرار مصالحها السياسية والنفطية في هذه المنطقة، وباستمرار النهب، واستنزاف الثروة البترولية في هذه المنطقة الحساسة، بصورة مستقرة، وبدون مشاكل، ومزعجات ومتاعب للإدارة الأمريكية.

فإذا انفلتت المنطقة من القبضة الأميركية، فلا تسقط حرمة الاستقرار السياسي لدى أميركا في تلك المنطقة فقط، وإنما تعمل أميركا المستحيل لاختلاق المشاكل والمتاعب، والإخلال بالأمن والاستقرار، كما حدث ذلك للجمهورية الإسلامية.

إن هذا (الاستقرار السياسي) في المنطقة، والذي يحمي مصالح الاستكبار العالمي، والذي يعيش الاستكبار العالمي في ظلاله في ستر وأمان... هو مما يجب

على الثورة الإسلامية أن تقتحمه، وتشوشه.

الصفة الإيجابية لتصدير الثورة:

و (الاقتحام) و(التشويش) و(الإخلال)، بالاستقرار السياسي في المنطقة... كل ذلك يأتي بمفهومة الإسلامي الإيجابي البنّاء، وليس بالمفهوم السلبي التخريبي.

فلسنا نقصد بذلك، القيام بأعمال تخريبية، أو الاحتلال والغزو العسكري، وإنما نقصد به أن ننشر في المنطقة الإسلامية الوعي الثوري والحركي، ونعمل لإيقاظ هذه الأمة الراقدة، من سباتها الطويل، وننشر الفضائح السياسية للاستكبار العالمي ونبعث الحياة، والحركة في الأمة، ونقطع أيدي سماسرة، وعملاء، وأجهزة الاستكبار العالمي عن منابع الثروة الطبيعية في بلادنا.

إن هذه السلسلة من الأعمال الإيجابية البناءة، تؤدي إلى سلب الاستقرار عن المصالح التابعة للاستكبار العالمي في المنطقة الإسلامية، وزعزعة قواعدهم السياسية.

وهذا هو أفضل وجوه تصدير الثورة وأسلمها. إن الوعي هو الجسر الذي تتحرك عليه الثورة الإسلامية إلى العالم الإسلامي. ونحن واثقون من سلامة هذا الجسر، وقدرته على نقل وتصدير كل أوضاع الثورة، وظروفها وشروطها ومكاسبها.

أن تصدير الثورة يتلخص في كلمة واحدة وهي: أن نقول لكل الطبقات المحرومة والمستضعفة من العالم الإسلامي، أن الذي جرى في إيران، يمكن أن يجري في أي منطقة أخرى من المناطق المحرومة والمضطهدة من العالم الإسلامي.

وإن الذي جرى في إيران، لم يتطلب من الأمة غير عزيمة، وإرادة لا تلين، ووعي وفهم وتضحية وحركة، وقد أودع الله تعالى هذه الكنوز في كل الأمم والشعوب على نحو سواء.

وإن الأمة المسلمة في إيران، عندما أسقطت أكبر معاقل أميركا في المنطقة، لم تكن تملك غير صدر عامر بالإيمان، وقبضات ترتفع في وجوه الظالمين، وصرخات تهتف بسقوط الظالمين، وحفنة من الأحجار على أرصفة الشوارع ترمي بها الدبابات، والمجنزرات، وتواجه بها دوي المدافع في الشوارع.

إن رسالة الثورة في العالم الإسلامي هي كسر حاجز الخوف. فليست الأسلحة الفتاكة التي يملكها المستكبرون والطغاة هي التي تكبل الناس عن الحركة، والتمرد، والثورة، وإنما (الخوف) و(الجبن) و(إيثار العافية، والراحة) و(حب الدنيا)، والفرار من الموت الشجاع والركون إلى الموت الذليل.

ورسالة الثورة، التي تصدرها للعالم الإسلامي هي كسر حاجز الخوف، وانتزاع حب الدنيا من النفوس الضعيفة، وفك الأغلال عن الأيدي، وزرع الشجاعة والإقدام في النفوس، وتفجير الطاقات الكامنة في الأمة.

تفجير الطاقات:

وإن الله تعالى قد أودع في الإنسان كنوزاً من الطاقات، والقدرات، والكفاءات والشجاعة والإقدام والصلابة والثبات، والصبر، والوعي والإدراك والعاطفة والعقل... كما أودع في الطبيعة كنوزاً من الثروة الطبيعية، وإن ذخائر المواهب الإلهية في الإنسان أعظم بكثير من ذخائر الثروات الإلهية في الطبيعة.

وجريمة الاستكبار العالمي ليست فقط في نهب ثرواتنا الطبيعية، واستنزافها وإنما فيما هو أهم، من نهب واستنزاف الثروات الطبيعية، إن الاستكبار العالمي

تمكّن خلال هذه الفترة من سيطرته، ونفوذه على العالم الإسلامي، أن يدفن هذه المواهب الإلهية في الإنسان المسلم، ويقتضي عليها وينتزعها منه، ويحول دون ظهورها وبروزها، وإن هذه السرقة أكبر من سرقة آبار النفط ومعادن الحديد، والنحاس أنها سرقة الإنسان، وجريمة سرقة الإنسان أعظم من جريمة سرقة الحديد والنفط، والنحاس.

إن الاستكبار العالمي استطاع أن يدفن هذه المواهب في الإنسان المسلم، ويسلب اعتماده على الله، وعلى نفسه، ويحوّله إلى كائن يتّكل على الغرب في كل شيء، حتى في لغته، وتقاليده، وأعرافه وبنظم بيته، وخياطة ملابسه.

ورسالة الثورة إعادة الثقة ـ إلى الإنسان المسلم ـ بالله تعالى وبنفسه، وإعادة الحيوية إليه، وتفجير الطاقات الكامنة في عقله وقلبه، وبعث الإنسان المسلم من جديد إلى صلب الحياة، ليمارس دوره خليفة لله تعالى، وإماماً، وقائداً على وجه الأرض، وليس في هذه الرسالة سلب أو تخريب أو إخلال بالمعنى السلبي، الذي يشيعه الإعلام المشبوه في بلادنا.

الدولة الاسلامية، دولة عالمية

❐ عبد لكريم آل نجف

مقدمة

قبل الدخول في صميم البحث لابدَّ من التطرق إلى جهات الأهميّة التي يحظي بها الموضوع الذي نحن بصدده وهو عالميّة الدولة الإسلاميّة ويمكننا تحديد جهات الأهميّة بالنقاط التالية:

١ـ سند فراغ في مجال ضروري وحيوي

إذ لم يوجه المعنيون من الكتّاب والمفكرين الإسلاميين العنايّة الكافيّة بهذا الموضوع، وما هو مسطور في الكتب إشادات عامة بعالميّة الإسلام وقابليته على دمج الأجناس وصهر القوميات وإذابة الفوارق بين الأوطان، وبعض النظر عن أهميّة الموضوع وحيويته فإن سد الفراغ يشكل بحد ذاته غرضاً كافياً للاهتمام وبذل الجهد.

٢ـ بلورة نظريّة غائبة أو غير مكتملة

إن عالميّة الإسلام مبدأ كلي، ومن الضروري عدم الاكتفاء ببيان هذا المبدأ ومدى إيجابيته ومصداقيّة الإسلام فيه، بل تجاو ذلك إلى الحرص على ترجمته وتحويله إلى مبادئ تفصيليّة ونظريات متكاملة في المجالات السياسيّة والاجتماعيّة والقانونيّة طبقاً لطريقة « لنا إلقاء الأصول وكم التفريع ». وبمقتضى ذلك تصبح عالميّة الإسلام رافداً أساسياً من روافد تكوين النظريّة السياسيّة وبناء الدولة في الإسلام.

لقد درس علماء السياسة موضوعة الدولة بإسهاب طبقاً للمنهج الوضعي المعتمد لديهم وحلّلوها إلى عناصر وأركان، وعلى المفكر الإسلاميّ أن لا يواكب هذا المنهج

ويحذر من الدعايّة القائلة بأن العلوم حياديّة بين الأديان والايديولوجيات لأن هذه الدعايّة صادقة في العلوم الطبيعيّة وكاذبة تماماً في العلوم الانسانيّة كعلوم الاجتماع والنفس والتربيّة والسياسة،؛ لأنّها قائمة على أساس علماني، أي أنها ذات جذر وانتماء ايديولوجي خاص وبالتالى لا يمكن وصفها بالحياد، ومن النماذج البارة لذلك علم السياسة الذي حلل الدولة إلى عناصر ثلاثة، الشعب والإقليم والسيادة، وهي عناصر مستوحاة من المناخ العلماني القائل بأن « الدين لله والوطن للجميع » وسيأتي في طيِّ هذه الدراسة أن عنصر السيادة يمثل الخلل الأخلاقي في النظريّة الغربيّة ونقطة الافتراق الأساسيّة بينها وبين النظريّة الإسلاميّة في حقل الدولة العالمية، وهذا يعني ضرورة الشروع بتأسيس علم سياسي إسلامي في حق الدولة العالمية، وهذا يعني ضرورة الشروع بتأسيس علم سياسي إسلامي يقوم بتحليل الدولة ونشأتها وخصائصها طبقاً للمنهج الإسلامي، وهكذا الأمر في العلوم الإنسانيّة الأخرى، وفي صورة واحدة فقط يمكن تفهم حيادياً العلوم الانسانيّة وهي ما إذا تخلّى الخبير في هذه العلوم عن الاحتكار العلماني لهذه العلوم وتصور إمكانيّة ظهور نظريات دينيّة إيجابيّة قادرة إدارة دفة الحياة الإنسانيّة في الحقول المختلفة أساس الوحي السماوي، أو بتعبير آخر، تخلي عن الاحتكار الغربي القائم أساس ما اعتبره الغربيون بديهيات، كبديهة « العلمانية » التي لا نقاش فيها لديهم فجعلوها بسبب ذلك أساساً تقوم العلوم الإنسانية.

٣ـ تكريس خصيصة إسلاميّة أصيلة في المجتمع

إن العالميّة خصيصة إسلاميّة أصيلة ومشرفة وباعثة على الافتخار بما ننتسب اله من دين وأمة وتأريخ. وحينما نتحدث عن دولة عالميّة ونكتب عنها فإنما نريد من وراء ذلك السعي إلى تكريس هذه الخصيصة وتعميقها أكثر، بخاصَّة في هذا العالم الذي أصبح يحنّ إلى الدين والسماء ويحلم بالألفة العالميّة والإنسانيّة وينفر

من القوميّة وحروبها.

إننا لا نستطيع التحدث عن تجربة إسلاميّة ودولة إسلاميّة ما لم نأخذ بكل جزئيات الإسلام وأبعاده ومعالمه. والعالميّة ليست جزءاً ولا بعداً من الإسلام فحسب؛ إنها روح تسري فيه، ومنهج حاكم عليه. فلابد أن تعطي أهمية.

٤ـ تنقيّة المجتمع من الشوائب

لا ينكر احد أن المجتمع الإسلاميّ يحمل في داخله تركة ثقيلة ومؤسفة من الانحرافات التي حصلت في التأريخ الإسلاميّ عن خط الإسلام الأصيل ومنهجه القويم، ومن جوانب ذلك العصبيات القبليّة والقوميّة والوطنيّة التي حصلت في التأريخ الإسلاميّ بدءاً من قضيّة السقيفة ذات المنطق القبلي المتعصب ومروراً بالمعركة التي شغلت المسلمين من الأندلس إلى الهند مدة طويلة وأطلق ها تسمية « شعوبية » وانتهاءاً بانهيار الخلافة العثمانيّة والدولة القاجاريّة في تركيا وإيران وقيام دولتين قوميتين مكانهما.

و ليس من شك أن مثل هذه التركة تترك آثارها السلبيّة ثقافة المجتمع وأجوائه النفسيّة والأخلاقية، ولعل أيسرها تقويّة جانب العصبيّة وإضعاف روح الأخوة والانفتاح الاسلامي.

و إذا اضفنا المرحلة المعاصرة المشبعة بالتغريب والثقافة القوميّة استطعنا أن ندرك حجم الشوائب ونوعيتها التي طرأت على المجتمع الإسلاميّ وكدّرت صفوه، وفي حالة كهذه لا يسعنا إلّا أن نتساءل: كم هي حاجة ملحَّة وضروريّة إلى طرح المفاهيم الإسلاميّة الأخلاقيّة العالميّة وتأكيدها وتعميقها في المجتمع والدولة؟

٥ـ مواجهة الخطر القومي

إن خط الشهادة بما يمثِّل من سلطة إلهيّة سماويّة الكون والإنسان يتكون من ثلاث مراحل، هي: مرحلة التوحيد، ومرحلة النبوة، ومرحلة الإمامة. وإذا ما تابعنا السير التأريخي لهذا الخط وهذه السلطة وجدنا الخصم الأساسي والمشترك في كل المراحل هو العصيبة. فالعصيبة هي التي دفعت إبليس للاعتراض على الذات الجليلة في مسألة السجود لآدم إذ قال مستنكفاً ﴿**أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ**﴾ [الاعراف/١٢]، وهذه هي محنة التوحيد مع العصيبة، والعصيبة هي التي واجهت النبوات دائماً. قال تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ**﴾ [الزخرف/٢٣] فهي محنة الأنبياء وأخيراً هي المشكلة التي واجهت الإمامة إذ قال المعترضون على عليه السلام لا تجتمع النبوة والخلافة في بيت واحد، وإذا راجعنا الخطاب الذي ألقاه أبوبكر في مؤتمر السقيفة وجدناه مشحوناً بالعصيبة. فهي محنة الإمامة أيضاً.

وفي التأريخ السياسي الحديث واجه المسلمون القوميّة بوصفها خطراً أشد من الإلحاد والماركسية، فهي التي أسقطت الخلافة العثمانية، وهي التي جزأت المسلمين إلى دويلات، وهي التي مهدت للتغريب والتبعيّة الغربية، وهي الخطر الذي من الممكن أن يستزل النهضة الإسلاميّة الحديثة إلى منافرات محليّة وخصومات إقليمية.

و هذا يعني أن البحث والكتابة عن عالميّة الإسلام ودولته عمل من شأنه تحصين الجبهة الداخليّة ضد الخطر الكبير الذي يواجهها.

٦ـ المساعدة نشر الإسلام وتسويع رقعته

إنَّ هناك مؤشرات متزايدة تدلل على أن الإنسان المعاصر غدا مهيئاً لتقبل الإسلام وتفهمه واعتناقه، وبالتالى على إمكانيّة الشروع بفتوحات اسلاميّة جديدة من طرف المسلمين إذا تحلّوا بالكفاءة والجدارة الأزمة لهذا الدور التأريخي.

وهناك مؤشرات أخرى متزايدة أيضاً تدلل تنفر الإنسان المعاصر من القوميّة والعصيبات، وتشير إلى انفتاح والميل إلى الإلفة الإنسانية، ومن هنا فإن البحث في عالميّة الإسلام ودولته سيحقق غرضاً رسالاً وانسانياً كبيراً إذ سيرشد الانسانيّة إلى العلاج الناجح ويعمق في داخلها روحيّة الانفتاح الاسلام، ولا يشك أحدٌ في أن هذه وظيفة رسالة ينبغي على جميع المسلمين القيام بهذا واستثمار هذه الفرصة التأريخيّة المؤاتيّة لها.

مفهوم الدولة العالمية

و قبل البحث في عالميّة الدولة الإسلاميّة لابدَّ أولاً من تحديد مفهوم الدولة العالميّة وما هو المعنى المقصود بهذا العنوان؟

المفهوم الشائع لهذا العنوان في أغلب المؤلفات السياسيّة حتى الإسلاميّة منها يدلُّ على أن الدولة العالميّة هي الدولة التي تبسط سلطانها على أوطان وقوميات مختلفة بغضِّ النظر عن المحتوي الايديولوجي لها، وسواءً أكانت مكتفيّة برقعة معين من الأرض أم طامحة إلى السيادة على المعمورة كلها، وحينئذٍ يكون النموذج الواضح لها هو النظم الامبراطورية، ولذا نجد كاتباً كأحمد حسين يتحدث في سياق دعوته إلى الحكومة العالميّة الواحدة عن النظم الامبراطوريّة في التأريخ على أنها حكومات عالميّة كانت هي السَّائدة في التاريخ الانساني وهي التي عرفها للتاريخ أكثر من غيرها[1] ومن وجهة نظره فإن قيام الدولة العالميّة من جديد « لن يحتاج إلى اجراءات ثوريّة أو تطورات حادة وعنيفة فما على قادة الدول إلا أن يتخذوا من ميثاق هيئة الأمم الحالى نقطة الأساس والمنطلق وإدخال بعض التعديلات على ميثاقها لسدِّ الثغرات التي كشفت عنها التجربة والتطبيق »[2].

فالمسألة من وجهة نظرة دستوريّة إداريّة وليست ايديولوجيّة عقائدية!! بل إنَّ هذا المعني ينطبق على ما هو أسوأ من ذلك، ففي العديد من المؤلَّفات يجري إطلاق

تسمية « الدولة العالمية » على الحكومة اليهوديّة التي يحلم اليهود بإقامتها على العالم.

و في ثلاثينات القرن الميلادي الحالى روّج الغرب لفكرة الدولة العالميّة الواحدة، وظهر لها أنصار في بعض بلدان العالم الاسلامي، ولكن الموقف العام كان معارضاً لها لما تحمله من طابع استعماري. وكذا نجد كاتباً كأنور الجندي يعدُّها ضمن الدعوات الهدامة. فقد كتب يقول: « لقد علا صوت الدعوة العالميّة في مصر والعالم الإسلاميّ في الثلاثينات وحمل لواء الدعوة اليها أمثال سلامة موسي وغيره ولم تكن قد تكشفت بعد تلك الغايات البعيدة »[٣] و« قد استمدت هذه الدعوات وجودها من منطلق مغلوط ومن منطلق استعماري في الأساس هو ما أطلقه اسم رسالة الرجل الأبيض إلى العالم الملوّن، والهدف الكامن من وراء هذه الدعوة هو سوق الناس جميعاً إلى الولاء والعبوديّة للسيادة الغربيّة الحاضرة، وتذويب الفكر الإسلاميّ في أتون العالميّة أو احتواء مقدراته ودمجها في مفاهيم وقيم تختلف في جوهرها عن قيم الاسلام »[٤].

و نقل عن هنريك رالف أنه يقول في كتاب له بعنوان « الإنسانيّة والوطنية » : إنَّ النزعة الإنسانيّة يجب أن لا يعتنقها إلا الأمم القوية، أما الأمم الضعيفة فإن لم تستمسك بمقوماتها سحقتها الأمم القوية »[٥].

و ندد المفكر الإسلاميّ الشيخ محمد الغزالى بهذه الدعوة، فقد كتب يقول:

« أما مبدأ العالميّة فهو وإن كان مبدأ الانسانيّة والسلام والخير العام إلا أن أمم الغرب وحكومات الاستعمار جعلته شبكة تصطاد بها ضعاف العقول وتكسر به حدّه المقاومة عند الشعوب المظلومة التي تكون لقمة سائغة لها »[٦].

و ندّد بها أيضاً الأستاذ عباس محمود العقاد وذكر عنها كلاماً مشابهاً لما

سبق[٧].

و من يقرأ كتاب « أحجار على رقعة الشطرنج » للأَميرال وليام غاي كار يجده حاشداً بتأكيدات متوالية على أن فكرة العالميّة قد نشأت من مخططات التلمود والصهيونية.

و هنا نقاط ثلاثة لا بد من بيانها، وهي:

١ـ إن المفهوم الذي تم بيانه للعالميّة هو مفهوم سياسي محض لا تلامسه أي جنبة أخلاقية، وأنه قد أساء ذلك إلى أصل الفكرة العالميّة وجعلها محمّلة بتركة ثقيلة وسمعة مشوّهه بحيث يصعب على من يريد الدعوة اليها مجدداً أن يجد من يصدّق بنزاهة، وهذه صعوبة جديدة تضاف إلى الصعوبات الأصليّة التي تواجه فكرة الدولة الإسلاميّة العالميّة التي تعدُّ من أصول الفكر السياسي الإسلاميّ وضروراته البارزة.

٢ـ إنَّ موقف المعارضين للعالميّة لم يكن دقيقاً، وإنه وقع ضحيّة الخلط بين أصل الفكرة وبين التوظيف الاستعماري الغربي لها. فإن العديد من أقطاب الفكر الغربي دعوا إلى العالميّة ونبذ القوميّة تحت ضغط الواقع المرير الذي عاشه الغرب بخاصَّةٍ والعالم بعامةٍ خلال الحربين العالميتين الأولي والثانية، والذي تم تفسيره على أنه من إفرازات القومية، وهناك عشرات الشواهد والأرقام التي يمكن إيرادها في هذا المجال، ولكن ضيق المجال لا يسمح لنا إلا بذكر شاهد واحد هو أن الفيلسوف الانجليزي المعروف براتراند رسل كان من الدعاة إلى العالميّة ونبذ القوميّة وأنه قد تعرَّض إلى السجن أثناء الحرب العالميّة الثانيّة بسبب دعوتها إلى السلم والتسامح العالمي، وأنه كان يعتقد بدور الجامعات ومؤسسات التعليم الأخرى في تحقيق المجتمع العالمي المطلوب، وكان

يطمح إلى تأسيس جامعة تفتح أبوابها لكل الجنسيات والقوميات ولا ترفض إلا الرافضين للمعاونة العالمية[٨].

و في كتابه « التربيّة والنظام الاجتماعي » نقرأ قوله: « إنَّ القوميّة هي القوة الرئسيّة التي تسوق حضارتنا إلى دمارها »[٩] و« أنه مهما كانت الحاجة الأكثر حيويّة للمستقبل فسوف تكون تنميّة الافكار لامعة للمواطنة العالمية »[١٠].

و لكن العالم السياسي الممثِّل بالنزعة الاستعماريّة المتحكمة في الذهنيّة السياسيّة الغربيّة هو المسؤول عن تحويل هذه الدعوة إلى دعوة هدّامة، وإلا فإنَّ أصل العالميّة بوصفها مبدأ من أفكار القرن العشرين ليست سلبية، وإنما هي مظهر أخلاقي انفلت من قبضة الماديّة المتحكمة في هذا القرن ليعبّر عن أعماق إنسانيّة تحاول التعبير عن ضمير مكبوت.

٣ـ وهذا لا يعني أن تلك الفكرة العالميّة كانت جديرة بالنجاح. فقد كان من الطبيعي أن تقع في الفخ الاستعماري، وتصبح واحدة من أدواته. ولم تكن قادرة وهي في الصورة التي ظهرت فيها والخلفيّة الفكريّة التي انطلقت منها على تجاوز ذلك المصير. ذلك أنَّ العالميّة في أساسها مفهوم أخلاقي متقوّم بحب الانسانيّة وشعور عميق بأصالة الوحدة النوعيّة للبشر وغلبتها على الفوارق المحليّة من لون ولغة ووطن وقومية، وهو شعور موجود لدي كل انسان، ولكنه لا يصبح حقيقة مؤثرة في الفكر والسلوك ما لم يستند إلى عقيدة أخلاقيّة متكاملة، وهذا هو العنصر الغائب في الغرب والذي لا يسمح بظهوره فكرة إنسانيّة حقيقة، وغايّة ما تظهر فيه شعارات قد تكون صادقة، لكنها سرعان ما تصبح مطيّة العدوان والصراع.

ولذا نعتقد أنَّ العالميّة الإسلاميّة هي العالميّة الحقيقة والوحيدة في تأريخ الانسان، وهي العالميّة التي تخدم الجنس البشري وليس فيها خطر أحد، فليست المسألة إداريّة دستوريّة حتى يمكن حلها بهيئة كهيئة الأمم المتحدة، ولا تعليمية حتى يمكن حلها عبر مؤسسات التعليم، وإنما هي مسألة أخلاقيّة روحية. ولذا يعجز مفكر غربي ليبرالى أمثال «رسل» عن فهمها، ولذا نجده يقول «إن الدعوات الوطنيّة إنما نجحت في الأغلب الأعم لإحساسهم أنها تجري مع المصالح الوطنيّة في مجرى واحد، فإذا أريد لنظرة العالميّة الجديدة أن تفلح وتؤتي ثمرها؛ فمن الضروري أن تتمثل للناس موافقة للمصالح الوطنيّة على ذلك المنوال»[١١]. وهكذا فالطريق إلى العالميّة يمرُّ عبر قناة الوطنية، وفي هذا تغليب وتعميق واضح للوطنيّة وجعلها ذات أولويّة على العالمية، وما هو إلا تفسير الماء بعد الجهد بالماء، فالنتيجة هي الوطنيّة لا العالمية. ولا معني لذلك إلا أن الوطنيّة هي قدر الإنسان المرتبط بالأرض، والعالميّة هي قدر الإنسان المرتبط بالسماء، ومن حقنا أن نسأل رسل: هل بإمكان جامعته العالميّة المنشودة أن تنتج يوماً ما مواطناً إنجليزياً يؤيد استقلال الدول النفطيّة ويرى ذلك أنفع للمصالح البريطانيّة من الهيئة الإنجليزيّة؟.

إنَّ الدولة العالميّة حقيقة أخلاقيّة وطموح انساني طبيعي، إلا أنه لا وجود لهذه الحقيقة والطموح إلا في نطاق الاسلام، لأنه العقيدة الوحيدة القادرة دعم المحتوي الأخلاقي للانسان والارتفاع به إلى المستوى الروحي المطلوب والسيطرة على الغرائز وتهذيبها ومنها الغريزة القوميّة التي هي في الحقيقة تعبير اجتماعي عن الأنانيّة الفرديّة وحب الذات.

و في الحقيقة إنّ العالميّة الإسلاميّة تستمد زخمها وخلّاقيتها من عناصر ثلاثة:

١ـ عقيدة التوحيد

فقد وصف إله الإسلام نفسه في أكثر من أربعين مورداً من القرآن الكريم بأنه « رب العالمين » فهو رب كل العالم ومنها عالم الإنسان، فهناك عالميّة كونيّة واسعة الأرجاء، وليس عالم الإنسان إلا جرماً صغيراً من اجرامها، أي أن العالميّة ظاهرة كونيّة قبل أن تكون ظاهرة إنسانية. وتصور كهذا من شأنه تصفيّة الغرور والكبرياء في عالم الإنسان وتعميق الحسّ العالمي وجعله بدرجة غالبة على ما سواه ودعم أصالته في الشخصيّة الإنسانية. وإذا كان الكون منظمة عالمية، فليكن الإنسان بقومياته وأوطانه منظومة عالميّة تابعة للمنظومة الكونيّة المنصهرة في عبوديّة ربِّ العالمين.

و هذا هو الدور الخلّاق الذي تلعبه عقيدة التوحيد في إنجاز العالميّة الإسلامية، فهي مظهر التوحيد في الحياة الاجتماعية، وبقدر ما يوصف الرب بالقدرة والهيمنة على الكون يكون الحس العالمي في شخصيّة الإنسان قوياً مكيناً ومهيمناً على ما سواه.

إن أسرة تفتقد إلى الرب أسرة مفككة متناحرة، وبشريّة ترفض ربوبية « رب العالمين » بشريّة متناحرة مهددة بحروب عالميّة وقنابل ذرية.

٢ـ المحتوى الروحي والأخلاقي

العالميّة تعني شيئاً واحداً هو حبُّ الانسانية، وهذا المعني لا يتم إلا إذا بلغ الحسّ العالمي درجة غالبة على الشعور المحلي، وهذه الدرجة لا تتحقق إلا في إطار عقيدة متوازنة متكاملة تجعل الغيب حقيقة أكبر وأهم من المادة، والروح حقيقة أكبر أعظم من الجسد، ومصالح « الآخر » أولي من مصالح « الأنا » فإن حبَّ الانسانيّة تجسيد اجتماعي لأولويّة الغيب على المادة وتقدم الروح على البدن

وإيثار « الآخر » على « الأنا »، وهذا هو الركن الروحي والأخلاقي الذي تقوم به العالميّة ولا تجده في غير الاسلام.

٣ـ دعم هيمنة العقل على الغريزة

القوميّة غريزة وانفعال ولذا تؤدي إلى الحروب والصراعات، لأن الغريزة لا تعرف القيم، والعالميّة قيمة أخلاقيّة عقلية، ولا بد لمن يرفعها شعاراً أن يدعم هيمنة العقل على الغرائز، وهذا المعني لا يأخذ صورته الكاملة إلا في إطار عقيدة أخلاقيّة متوازنة كالإسلام.

هذه هي الأركان التي تقوم ها العالميّة الاسلامية، وهي بمجموعها تشكِّل القاعدة العقائديّة والروحيّة للدولة العالميّة الإسلاميّة المنشودة.

و هكذا فالدولة العالميّة ليست مفهوماً جغرافياً يقاس بمساحة الأرض التي تسيطر ها تلك الدولة، وإنما هي مفهوم اخلاقي يقاس بالقيم الأخلاقية. فالدولة النبويّة عالميّة وإن لم تستوعب الجزيرة العربيّة بسلطانها. والامبراطوريّة البريطانيّة غير عالميّة وإن استوعبت ثلثي الأرض.

الدولة العالميّة ضرورة إنسانيّة وإسلامية

و بالمفهوم الذي طرحناه للعالميّة أن الدولة العالميّة ضرورة إنسانية، وأبسط دليل على ذلك إجماع البشريّة بكل أديانها وثقافاتها على الاعتقاد بأن نهايّة التأريخ ستشهد قيام هذه الدولة، فالمسلمون يؤمنون بقيام الدولة المهدويّة الواحدة، واليهود يؤمنون بظهور سلطانهم على العالم، والنصارى يعتقدون بعودة المسيح المنقذ، الماركسيُّون يؤمنون بقيام الشيوعيّة الثانية، ومهما كانت هذه الاعتقادات صحيحة أو باطلة إلا أن المستفاد منها شيءٌ واحد هو أن الدولة العالميّة فكرة تعيش في وجدان الإنسان وأحلامه، وأنها فكرة طبيعيه لديه.

و من الأهميّة بمكان أن نتحدث عن ضرورة قيام الدولة العالميّة بالقدر المناسب، تاركين التفصيل في ذلك إلى دراسة خاصة، والضرورة المقصودة تارة إنسانيّة عامة وأخرى خاصة بالعالم الاسلامي.

أما الضرورة الإنسانيّة فهي تجسيد وحدة النوع البشري ورفعته على ما سواه والانسجام مع الفطرة البشرية. قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ [الحجرات/١٣] فهذه الآيّة تؤكد أن الانتماءات المحليّة خلقت لتؤكد الانتماء الإنساني، خلافاً لما هو الحاصل في حياة الإنسان من الغرق في بحر الانتماءات المحليّة والدوائر الضيقة إلى حدود تُنسي الإنسان

انتماءه إلى النوع الانساني، وربمات أدّت به إلى الاعتقاد بانشطار هذا النوع إلى درجات راقيّة وأخرى منحطة كما هو مقتضي النظريّة العرقيّة التي شيّدها عدد من أعلام الفكر الغربي في القرن الميلادي التاسع عشر، وبلورها جوبينو الفرنسي وحوّلها هتلر إلى اتجاه سياسي ومبدأ دولي[١٢]. ولم يكن بإمكان الغرب تجاوز هذه النتيجة البشعة لأنَّ التأكيد على الخصائص المحليّة في سياق حضارة ماديّة لا تعرف القيم لابدَّ وأن ينتهي إلى نكران الوحدة البشرية. ومهما قيل عن إمكانيّة السيطرة على المشاعر القوميّة وإيقافها عند حدود معقولة فإن الواقع العملي يبقى يكذب ذلك ما لم تُحذف الحضارة الماديّة وتقام حضارة أخلاقيّة روحية، وهكذا فإن قيام الدولة العالميّة بالمفهوم الإسلاميّ الأخلاقي لها يشكّل ضرورة إنسانيّة لدعم أصالة الشعور الإنساني أيضاً إنقاذ المجتمع الإنساني من مخاطر القوميّة التي جعلت الألماني ينادي « الماني فوق الجميع » والإنجليزي ينادي « سودي يا بريطانيا واحكمي » وأدت إلى سيادة المشاعر العدوانيّة بين الجميع حتى انتهي الأمر إلى قيام حربين عالميتين.

إن الحرب العالميّة ظاهرة جديدة أفرزتها الحقبة القوميّة في تاريخ الانسان، وهي تدلل على أن الانطلاق من الخصائص المحليّة يؤدي إلى تمزيق الخصيصة الإنسانيّة والوحدة البشرية، وإن من يريد حمايّة هذه الخصيصة وهذه الوحدة ه أن يجعلها منطلقاً له بحيث تكون الخصائص المحليّة ثانويّة ومتكيّفة معها، وهذا ما لا يتم إلا في إطار أخلاقي روحي من شأنه مكافحة طغيان « الأنا » المحليّة وخلع القيادة عنها وإخضاعها لقيادة « الأنا » العالمية، ومن هنا فإن نداءات العالميّة التي صدرت في أعقاب الحرب العالميّة الأولي واشتدت بعد الحرب العالميّة الثانية، وأفرزت ظهور عصبة الأمم أولاً، ثم تطورت إلى صورة هيئة الأمم المتحدة ليست

كافيّة لمواجهة الخطر القومي.

و ليس صدفة أن يشهد نهايّة القرن العشرين اشتداداً لنداء العالميّة ومصحوباً بصحوة دينية، فإن هذه الصحوة تمثل في أحد جوانبها تطوراً نوعياً في نداء العالمية، كما أن غلبة الإسلام في هذه الصحوة تدلل أن هذا النداء يسير باتجاه العالميّة الاسلامية.

و من جوانب الضرورة الانسانيّة للدولة العالميّة أيضاً أن ما تحمله من صفة الإطلاق الانساني وعدم الخضوع للقيود المحليّة يمثِّل الصفة النموذجيّة للأهداف التي ينبغي أن تحملها الدولة. ذلك أن الهدف الذي ينخبه الإنسان لحياته لا يكون خلّاقاً ما لم يحمل صفة الإطلاق واللا نهائية، وهذه الصفة تنطوي بطبعها على **بعدين:**

١ـ **البعد الخلّاق** الذي يستنفر أكبر الطاقات الجسدية، فإن الهدف المحدود يستنفر طاقات محدودة، والهدف غير المحدود يحرّك الإنسان في مسيرة غير محدودة وينتزع منه أكبر طاقاته. فلو جعلنا هدف الإنسان محصوراً ببلده فإن هذا الهدف سيتحقق في يومٍ ما، وعند ذلك يصبح الإنسان عابثاً بلا هدف، بينما إذا وسِّعنا دائرة الهدف لتشمل الانسانيّة كلها؛ فسنحقق بذلك الإطلاق على صعيد الدائرة الانسانية، ثم ننطلق باتجاه الدائرة الكونيّة لأننا لا نعبد رب الانسانيّة فقط وإنما نعبد رباً هو «رب العالمين»، وهكذا يتصل الهدف بلا نهائية «رب العالمين» وعلى هذا ال أساس انطلق القرآن الكريم بمخاطبة الانسان: ﴿**يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ**﴾ [الانشقاق/ ٦]. فلا نهاية للكدح حتى تنتهي حياة الانسان.

٢ـ **البعد القيمي**، ذلك أن القيم مطلقة بطبعها، ولا معنى لربط الفضيلة

بدائرة بشريّة أو جغرافيّة معينة، فالشجاعة فضيلة في كل زمان ومكان ومن كل إنسان، والجبن رذيلة من كل إنسان وفي كل زمان ومكان، وسلّم الكمال لا نهاية له؛ لأنه من صفات المطلق سبحانه وتعالى.

و البعدان متكاملان، الخلّاق يفرز الطاقات وينتزع الجهود الانسانيّة بأكبر قدر ممكن، والبعد القيمي يوجهها التوجيه الأخلاقي المطلوب، ولذا كان شعار الدولة الإسلاميّة قوله تعالى: ﴿ **تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا** ﴾ [القصص/٨٣] وقوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ** ﴾ [الحج/٤١] فالكدح الانساني لا نهايّة له وهذا هو البعد الخلاق، والطاقات المنتزعة من خلال هذا الكدح لا تصرف في العلوِّ والعدوان والفساد، وإنّما في إقامة القيم والفضائل « أقاموا الصلاة .... »، وهذا هو البعد القيمي.

بينما إذا جعلنا الوطنيّة أو القوميّة هدفاً للإنسان؛ فإن هذا الهدف وبسبب محدوديته سوف يتجمّد في نقطة معينة وسيصبح الإنسان في تلك النقطة عابثاً لا هدف له، ولأن الفضيلة مطلقة ولا تنسجم مع هدف محدود لذا سيقع هذا الإنسان في المأزق الأخلاقي ويتحوَّل شعوره الوطني والقومي إلى أنانيّة وعدوان وميل راسخ إلى العلو على الآخرين، وهذا ما يمثِّل جانباً من جوانب المشكلة الهدفيّة في الحضارة الغربية، وهي التي تفرز نوازع الدمار والعبثيّة فيها.

يقول براتراند رسل: « الولاء الوطني غير كافٍ وحدة أن يكون مثلاً أعلى لأنه باعتباره مثلاً أعلى ينطوي على انعدام قوة الإبداع »[١٣] ويقول أيضاً: « إنَّ الشعور القومي يتسم بعنصر خفي أو واضح من العداء للغير »[١٤]. ويُنقل عن فولتير قوله: « ما تمني أحد العظمة لبلاده ألا وتمنى التعاسة للآخرين »[١٥].

هذه هي بعض جهات الضرورة الانسانيّة للدولة العالمية، وللعالم الإسلاميّ حسابه الخاص. فإضافة للجهات الانسانيّة العامة أنفاً الدولة الإسلاميّة العالميّة تعدُّ ضرورة للعالم الإسلاميّ لأجل جهات إضافيّة أخرى خاصة به. منها إثبات مصداقيّة الإسلام وتجسيد مبدأ من مبادئه، فإن العالم الإسلاميّ مسؤول عن تطبيق مبادئ الإسلام ونظمه وفي مقدمتها مبدأ العالمية، وتتأكد هذه النقطة أكثر إذا لاحظنا أن الإسلام قد منح المسلمين دور قيادة البشريّة انطلاقاً من قانون سماوي يقضي بإعطاء هذا الدور لأتباع خط النبوات المتمثِّل في مرحلته الأخيرة بالإسلام، والقيام بوظيفة قيادة البشريّة يتطلب الدعوة لمبدأ العالمية، والعمل على تأسيس الدولة الإسلاميّة العالمية.

و من جهات الضرورة الإسلاميّة أيضاً تغذيّة حاجات المجتمع الانساني المعاصر إلى العالميّة وتأديّة ذلك بوصفه وظيفةً إزاء الانسانيّة وإزاء الإسلام نفسه حيث يمكن عن هذا الطريق تحقيق دورة انتشاريّة واسعة جديدة للإسلام.

و من جهات الضرورة الإسلاميّة أيضاً إنقاذ المجتمع الإسلاميّ من التلوّث الغربي بالشعور القومي المفرط لأنَّ القوميّة أكبر وأخطر مفردة غربيّة لوثت بيئة المجتمع الإسلاميّ وجعلته مهدّداً بالتمزق والازدواجيّة بين مفاهيم متناقضة بعضها إسلاميّة نابعة من الأصالة وبعضها غربيّة وافدة عبر الاستعمار.

و من جهات الضرورة الإسلاميّة أيضاً أن العالميّة وإن كانت بعيدة المنال على صعيد الواقع إلا أن حضورها الفعال في الذهنيّة الإسلاميّة لكونها مفهوماً فكرياً وقيمة أخلاقيّة ومبدأً سياسياً دولياً يعد ضرورة لحفظ التوازن الأخلاقي والأصالة الإسلاميّة في المجتمع الإسلامي. وقد آمنا بأنها الخطر الأكبر الذي واجه التوحيد والنبوة والإمامة معاً، ولأجل مواجهة هذا الزخم السلبي الذي تنطوي لابدَّ من

استحضار العالميّة بنحو مستمر ومركّز بما يحمي المجتمع من الانزلاق نحو القوميّة والنزوع نحو العلو. قال تعالى: ﴿ **تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا** ﴾.

وينبغي التذكير هنا أن الحديث عن مكاسب العالميّة الإسلاميّة وجهات الضرورة فيها لا يعني أننا نؤمن بها انطلاقاً من المصالح التي تحققها لنا، فإن الإيمان بها ينطلق بشكل أساسي من كونها قيمة خلقيّة إنسانية، وإنما تجسد تلك المكاسب والضرورات الانعكاس التطبيقي لهذه القيمة الخلقية.

يقول المستر جب في كتابه « حيثما يكون الإسلام »: (إنَّ الإسلام ما زال في قدرته أن يقدم للإنسانيّة خدمة ساميّة جليلة.... فليس هناك أيّة هيئة سواه يمكن أن تنجح مثله نجاحاً باهراً في تألف هذه الأجناس البشريّة المتنافرة في جهة واحدة أساسها المساواة، فالجامعة الإسلاميّة العظمى في افرقيا والهند وأندونسيا، بل وتلك الجامعة الإسلاميّة الصغيرة في الصين وتلك الجامعة الضئيلة في الابان لتبين كلها أن الإسلام ما زالت له القدرة التي تسيطر كليّة على أمثال هذه العناصر المختلفة الأجناس والفئات، فإذا ما وضعت منازعات دول الشرق والغرب العظمى موضع الدرس فلابد من الالتجاء إلى الإسلام لحسم النزاع »[١٦].

الابعاد العالميّة للدولة الاسلامية

و تتجسَّد عالميّة الدولة الإسلاميّة من خلال عدة أبعاد يمكن الاشاره إلى أهمها في النقاط التالية:

القيادة العالمية

عُرّفت الدولة بتعريفات عديدة منها التعريف القائل بأنها « جماعة من الناس استقرٍّ بهم المقام على وجه الدوام في إقليم معين وتسيطر هم هيئة حاكمة تتولّى شؤونهم في الداخل والخارج »[١٧]. وأركانها هي شعب وإقليم وسيادة، وقد يعبر عن السيادة بالسلطة أو الحكومة، فالبلد الذي ليس له شعب لا يسمي دولة، والشعب الذي لا يملك إقليمياً لا يستطيع أن يكوّن دولة، ولذا لا تعد « إسرائيل » دولة، والبلد الذي ليست له سيادة لا يُعد دولة، كالبلدان الخاضعة للسيطرة الاستعمارية.

و إذا تعمّقنا في تحليل هذا التعريف والأركان الثلاثة المنبثقة عنه، نجدة مستمدَّاً من المفهوم القومي، فالمقصود بالشعب جماعة من الناس ذات انتماء قومي خاص، والمقصود بالإقليم أرض معينة لجماعة معينة من الناس، والمقصود بالسيادة حق الشعب في اختيار الطريق والمصير الذي يحددة، فهي سيادة بالمعني القومي والعلماني، وإذا توغلنا في التحليل أكثر وجدنا أن نظريّة السيادة تمثَّل نقطة الخلاف الأساسيّة بين الفكر السياسي الليبرالى « القومي- العلماني ». والكفر السياسي

الاسلامي. ويمكننا إبراز هذه النقطة من خلال السؤال التالى: لمن السيادة؟ لله أم للإنسان؟

فإذا كانت السيادة لله سبحانه وتعالى، فما على الإنسان إلّا التسليم والخضوع للإرادة الإلهيّة والقانون السماوي، وحيث إنَّ الله سبحانه لا يتجسِّد في وجود مادي ولا يمارس هذه السيادة بشكل حسّي، ولذا فإن السيادة الإلهيّة تتمثل في الجانب التشريعي، وما على الإنسان إلّا الانصياع للشرائع السماويّة التي جاءت متسلسلة حتى ختمت بالإسلام، فهو الشريعة الإلهيّة الصحيحة الوحيدة منذ ظهورها وحتى اليوم الأخير للحياة الإنسان على الأرض.

و حينما إذا ألقينا نظرة على القرآن وجدنا أن خط النبوات قد أعطي قيادة البشريّة إلى الأتقياء الصالحين من أتباع هذه النبوات حتى وصلت نوبة الإسلام، فجُعلت هذه القيادة بيد الصالحين من المسلمين، قال تعالى: ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ** ﴾ [البقرة/١٤٣] ﴿ **وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ** ﴾ [آل عمران/١٤٠] ﴿ **وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ** ﴾ [الحج/ ٧٨] وبالتالى فإن القيادة الإسلاميّة للمجتمع الإنساني هي التجسيد الطبيعي للسيادة الإلهيّة على الأرض.

و إذا كانت السيادة للإنسان كما هي النظريّة السائدة في الحياة الدوليّة المعاصرة؛ فمن الطبيعي أن ينظر كل إنسان إلى الدائرة القوميّة التي ينتمي إلىها والبقعة الجغرافيّة التي ينتسب لها، فينقسم المجتمع البشري إلى أوطان وقوميات،

ويدَّعي حينئذٍ كل شعب وقوميّة حق السيادة على نفسه وأرضه.

و هكذا يتضح أن نظريّة السيادة الإلهيّة تفرز بشكل طبيعي دولة عالميّة بحيث لا معني للدولة القوميّة عند من يؤمن بهذه النظرية. وإن نظريّة السيادة البشريّة تفرز وبشكل طبيعي أيضاً دولة قوميّة بحيث لا معني للدولة العالميّة عند من يؤمن بهذه النظرية. وهذه معني ما قلناه آنفاً من أن الدولة العالميّة لا تتحقق إلّا في إطار حضارة روحيّة أخلاقية. وقد عبّر روبرت م. ماكيفر عن هذه الفكرة بصورة أخرى حينما ذكر أن شكل الحكومة العالميّة لا يصبح ممكناً « إلّا إذا تخلّت الدول التي تؤلف النظام الدولي عن حرصها إقامة هذا النظام وتسويّة المنازعات التي تنشب بينها على أساس مبدأ السيادة »[١٨]، أي إذا تمّ التخلي عن نظريّة السيادة البشرية.

و غالباً ما تُتخذ الحكومة العالميّة وذريعة للعدوان على الشعوب والقوميّات الأخرى لتحقيق أهداف توسعيّة نأخذ في مداها الأخير صورة تشكيل النظم الإمبراطورية، وقد تبين في ما سبق أنها الصورة الزائفة وليست الحقيقيّة للدولة العالمية، وأنها من إفرازات ومساوئ العصبيّة القومية.

إن نظريّة السيادة البشريّة تمثِّل الركن الركين لليبرالية الغربية، ومن حق الباحث أن يتساءل عن المبرّر المنطقي والمسوّغ العقلي الذي جعل الغرب يؤمن بهذه النظريّة ويرفض السيادة الإلهية. ذلك أن النظريات تقوّم من جهتين: الجهة الواقعيّة والجهة الاجتماعية، والمقصود بالجهة الواقعيّة الأسس العلميّة أو الفلسفيّة التي تقوم ها النظرية، والمقصود بالجهة طبيعة عطاءات هذه النظريّة وما تقدِّمه للمجتمع الانساني من نتائج إيجابيّة أو سلبية.

و الحقيقة أنَّ الانتخاب الغربي لهذه النظريّة انطلق من الجهة الاجتماعيّة وعلى

أساس تحليل ناقص، ولم ينطلق من الجهة الواقعية، وهذا هو الخلل الفلسفي أو العلمي العميق الذي يعتري الليبرالية الغربية، فإن نظريّة السيادة البشريّة لا تتم ولا يعقل الأخذ بها إلّا على أساس إلحادي وبعد الفراغ من مناقشة المسألة الكونيّة الكبرى المتمثِّلة بمسألة الإيمان والإلحاد، فإذا ثبت الإلحاد أصبح بإمكان الإنسان الادِّعاء بالسيادة لنفسه، وإذا لم يثبت الإلحاد لم يعد لهذا الادعاء أساس منطقي، وإذا ثبت الإيمان ثبتت السيادة لله على الإنسان والكون، والليبرالية الغربيّة لم تناقش هذه المسألة ولم تستند إلى أساس فلسفي، بل رفضت الخوض فيها وحدّدت موقفها الاجتماعي بشكل منفصل عنها، على أساس القول بالفصل بين الدين والسياسة، وهو قول لا معني له فإن الدين إن كان حقيقة واقعيّة فلا بدّ للمجتمع من الخضوع للسيادة الإلهيّة والنظام الاجتماعي الديني، وإن لم يكن حقيقة واقعيّة فلابدّ من تصفيّة وجوده الفردي والاجتماعي معاً، فلا معني للاحتفاظ به كممارسة فرديّة ورفضه كممارسة اجتماعية، ولذا وصف السيد الشهيد الصدر الليبرالية الغربيّة بأنها تنطوي إما على خداع وتضليل أو على عجلة وقلة أناة[١٩]. مع التذكير بأن ذلك لا يعني أن الغرب يخلو من فلسفات إلحادية، فهي موجودة لكن العلمانيّة لم تقم على أساس فلسفي، أو بتعبير آخر إنَّ الأساس العلماني لليبرالية الغربيّة لا يمكن تبريره فلسفياً.

و الحقيقة أن الغرب التجأ العلمانيّة تحت ضغط الواقع المرير للكنيسة حينما تحوّلت إلى أساس الظلم والفساد والتخلف والعدوان، وهذا هو التحليل الاجتماعي الناقص الذي قلنا: إنَّ الانتخاب الغربي لنظريّة السيادة البشريّة قد تمَّ على أساس منه حيث اعتبر الغرب أن الدين وبالتالى نظريّة السيادة الإلهيّة تؤدي إلى القول بالحق المقدس للملوك والأباطرة في الحكم بما يشاؤون، وهذه هي

الثيوقراطيّة التي تثير الذعر في الذهنيّة الغربية. مع أن الدين ليس مسؤولاً عن الثيوقراطيّة وما حصل في الغرب ممارسة زائفة نُسبت للدين زوراً وبهتاناً، والدين لا يتمثل بالكنيسة، بل ولا بالمسيحيّة الصحيحة؛ لأنّها محكومة بالنسخ، والإسلام هو الممثِّل للدين ولخط النبوّات، والحاكم الإسلاميّ ليس له حق مقدس بالحكم بما يشاء وإنما مكلف بأداء الوظيفة السياسيّة المنوطة به في إطار العدالة والمصلحة والشورى، ومن دون ذلك يصبح حكمه باطلاً مرفوضاً.

و هكذا نجد أن الجهة الواقعيّة لا تؤيد نظريّة السيادة البشريّة كما أن الجهة الاجتماعيّة لا تؤيّدها أيضاً لأن هذه النظريّة أدت إلى ظهور القومية، وبالتالى فهي مسؤولة عن نتائجها والمساوئ التي أفرزتها.

بينما تحظى نظريّة السيادة الإلهيّة بدعم الجهتين معاً، الجهة الواقعيّة تؤيدها؛ لأنّها مستندة إلى أساس إيماني ونظرة كونيّة توحيدية، ولذا فهي تستمد حقانيتها من حقانيّة التوحيد. كما أن الجهة الاجتماعيّة تؤيدها أيضاً بما مضى من البحث عن أهميّة الدولة العالميّة ومكاسبها وجهات الضرورة فيها؛ وأهمّ ما في هذه النظريّة أنها تنتعش الروح الأخلاقيّة بين أفراد البشريّة حيث يقع الرب سبحانه موقع الأب بينهم ويصبحون ببركة وجوده إخواناً متراحمين ضمن أسرة واحدة. بينما تؤدي النظريّة الأخرى إلى بعثرتهم كما تتبعثر الأسرة بعد غياب الأب عنها حيث يفتقدون إلى المركز الذي يجمعهم ورابطة الأخوة في ما بينهم، بل سيصل التشتت بهم إلى درجة نكران الوحدة البشريّة التي تربطهم، كما هو مقتضي النظريّة العرقيّة التي قسّمت البشريّة إلى درجات نوعيّة متفاوتة من حيث الرفعة والانحطاط.

و من معالم الروح الأخلاقيّة الكامنة في نظريّة السيادة الإلهيّة أن أفراد البشريّة سيتبادلون الاهتمام في ما بينهم، وستصبح حصصهم من ثروات الأرض

متساوية، ذلك أن الرب الرحيم وزع هذه الثروات بينهم بنحو متساوٍ وأوصاهم بأن يهتم كل واحد منهم بالأخر، على غرار ما يفعل الأب في أسرته.

بينما تؤدي نظريّة السيادة البشريّة إلى غياب هذه الروح، وغلبة الاستئثار علي أفراد البشرية. فيقصر كل واحد منهم اهتمامه على الدائرة القوميّة التي ينتمي إليها ويعمل على حصر ثروات هذه الدائرة به فلا ينتفع بها غيره، فيتنعم الأوروبي بثروات بلاده إلى حدّ السفاهة ولا يعطي شيئاً منها للأفريقي وإن مات جوعاً، وتصل البشاعة أعلى درجاتها حينما يقوم الأروبي باستغلال الإفريقي والهيمنة عليه وربما نهب ما عنده من ثروات قليلة. ولم يسأل أحدٌ يوماً نفسه عن المسوّغ الذي يجعل الثروة الظاهرة في هذه النقطة من الأرض خاصة بمن ينتسب إليها دون الآخرين من سكان الأرض. لأنَّ هذا السلوك أصبح بديهياً في ظلِّ سيادة الفكرة القوميّة التي أعطت الثروات طابعاً قومياً انحصارياً، فأصبح القحط والمجاعة وكأنها قدر الإفريقي دون سائر الناس، والرفاه الفاحش قدر الأوروبي دون سائر الناس أيضاً. ومن الطبيعي أن ترفض نظريّة السيادة الإلهيّة هذه الظاهرة لأن للإنسان الحق في الانتفاع بعمله، أما الثروات الخام فلا قوميّة لها ولا وطن. ولو قدّر للإمام علي عليه السلام أن يحكم اليوم لتساوي عنده في العطاء الكويتي مع السوداني.

و قد قال: إن النظريّة الإسلاميّة في القيادة تؤكد على العنصر العربي وكأن القيادة المطلوبة هي القيادة العربيّة الإسلامية، ذلك أن المدرسة السنيّة قد آمنت بشرط القرشيّة في الخليفة، فيما حصرت المدرسة الإماميّة الإمامة في اثني عشر إماماً من ذريّة الرسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته. وهذا يعني اتفاق المدرستين على رؤيّة تعصبيّة للقيادة، فأين هي القيادة العالمية؟

ولدا الإجابة على هذا الإشكال، لابدَّ من طرح المسألة على صعيد المدرستين معاً، فعلى صعيد المدرسة السنية، آمنت هذه المدرسة بشرط القرشيّة في الخليفة استناداً لقول الرسول ﷺ: « الائمة من قريش »، وقد أفاض فقهاء ومفكرو هذه المدرسة في بحث هذه المسألة وتحليلها وتفسيرها وظهرت لهم في ذلك اتجاهات متعددة، ومنهم من رفض اشتراط القرشيّة مثل أبي بكر الباقلاني في القرن الرابع الهجري، وأكثر المحدثين منهم على هذا الرأي حيث اعتبروا شرط القرشيّة « من باب السياسة الشرعيّة المتغيرة بتغير العوامل والظروف، وليست من المبادىء العامة الثابتة بدليل إجماع علماء المسلمين عبر التاريخ الطويل على إقرار ولايّة غير القرشيين »[٢٠]. كما نصَّ على ذلك محمد المبارك، وكتب الشيخ محمد الغزالي يقول: « ومن حق المسلمين في عصرنا هذا وقبله بألف سنة ألّا يفكروا في توليّة أمورهم قرشياً، بل يتحيّرون الكفايّة حيث كانت، ثم يسيرون وراءها خصوصاً بعد ما رسخت أصول الإسلام في أجناس شتي وواتت الفرص شعوباً كثيرة في الشرق والغرب لتخدم هذا الدين »[٢١].

و هذا القدر من الجواب يعدُّ كافياً ظاهرة فكريّة تسود هذه المدرسة، ويمكن إلحاقها بمسألة القرشية، وهي ظاهرة الرَّبط بين العروبة والإسلام، ويمكننا مطالعة آراء أعلام هذه المدرسة في ذلك بوصفه نموذجاً لها. فقد كتب الشيخ محمد الغزالي يقول:

« الرِّسالة التي شَرُفَت به العروبة ليست زعماً بنقاوة الدم أو وهماً بكرامة العنصر، كلا إنها رسالة إنسانيّة تجعل الأمة العربيّة حارسة للأخلاق والمثل العليا، أمنيّة على تراث السماء وصيانة الوحي والدفاع عن قضاياه وأحكامه ضد المنتحلين والمكذِّبين، وهذا معني قوله جل شأنه: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ**

بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[٢٢].

و يقول أيضاً: « إن الإسلام جعل منها- العروبة ـ دائرة عالميّة فسيحة الأرجاء وسعت شتي الدِّماء والألوان »[٢٣]. ويقول أيضاً: « الوطن العربي ليس جزءاً أي جزء من الكيان الإسلاميّ الرحب، إنه مبعث الإلهام ومصدر التوجيه ومكان القيادة »[٢٤]. « وقيادة المسلمين لا يصلح لها إلّا العرب وما ينبغي أن ينازعهم عليها أحد؛ فإنّ الإسلام يقوم على دعامتين جليلتين هما الكتاب الكريم والسنَّة المطهَّرة. والكتاب الكريم كما رأينا نزل بلغة العرب والرسول عربي الحياة والتراث، وما يفقه حقيقة الوحي ومنهج الرسالة إلّا خبير بأدب العروبة، راسخ القدم في بيانها.... يستطيع كل امرئ أن يكون مسلماً عادياً ولكن امرؤ عربي، ولا نعني بالعروبة هنا الجنس بل نعني اللسان »[٢٥] « ونري لزاماً علينا هنا أن نقول إنَّ هذا الشرف المتاح للعروبة لم يجئها من نسبها الأرضي، بل جاءها من رسالتها السماوية »[٢٦].

« ونحن العرب ما نعطي الحق في قيادة روحيّة أو سياسيّة لأحدٍ من الناس إلّا لأن الله اصطفى لغتنا للحق الذي أوحاه وبعث منا النبي الذي ارتضاه.... إن مطالبتنا بحق العروبة في قيادة العالم الإسلاميّ كله وبحقها في إرشاد الجنس البشري أجمع يعود إلى تلك المواريث المقدسة التي آلت إلينا فخلدنا بها وسمت بسموها مكانتنا »[٢٧] « ... وقيادة المسلمين من خواصها الأولى عروبة الشعور والتفكير واللغة والآراء.... »[٢٨] « ... الحرص على بقاء الإسلام نقيّ الجوهر، قريباً للأخذ، مستجمعاً أسباب القبول التي أتي بها من عند الله هو السر في جعل قيادته عربيّة واضحة العروبة »[٢٩] « إن النزعة إلى تسويّة المستعربين بالعرب مهما تباينت أجناسهم الأولى هو مقتضى الإسلام وأن مطالبة أولئك العرب الجدد بحقهم في

ولايّة الحكم ووظائف الإدارة أمر لا غبار عليه، بل الغبار في مصادرته وأن تسميّة هذه النزعة شعوبيّة خطأ ديني؛ لأنّها نزعة إسلامية »[٣٠].

« ... وإنّ أولى المسلمين بزعامتهم أقدر رجل فيهم مصرياً كان أم فارسياً ما دام قد تعرب وحسن إسلامه وشرف بدينه على غيره من البيوتات العربيّة ... ».[٣١]

و يمكننا تلخيص كل هذه النصوص والأقوال في نقاط أربع:

١ـ إن العروبة دائرة عالميّة وسعت شتّى الألوان والأجناس وأن الأمة العربيّة مارست الأخلاق والوحي والقيم وأن لها رسالة إنسانية، وهذا هو معني الآيّة « كنتم خير أُمة .... »

٢ـ إن قيادة المسلمين لا يصلح لها إلّا العرب، وأن من خواصها عروبة الشعور والتفكير والآراء واللغة، وأن هناك مواريث مقدّسة جعلت العروبة هي القائدة للعالم الإسلامي، وأن الوطن العربي هو مكان القيادة ومصدر الإلهام، وأن من شرائط الحاكم الإسلاميّ أن يكون متعرباً.

٣ـ إن المسلمين يقسمون إلى عرب ومستعربين وقوميات لم تستعرب بعد، وأن التسويّة بين العرب والمستعربين في المناقب والولايات ليست شعوبيّة وإنما نزعة إسلاميّة صحيحة.

٤ـ إن المقصود بالعروبة اللسان وليس الجنس.

و لو أن الشيخ الغزالي تمسّك بالنقطة الرابعة ولم يتجاوز حدودها لكان كلامه مقبولاً، فإن دور اللغة العربيّة في الفقاهة والاجتهاد وإدراك حقائق الفكر الإسلاميّ الأصيل أمر لا ينكره مسلم، وحيث إنّ الرأي السائد بين المسلمين هو اشتراط الاجتهاد في الحاكم الاسلامي، لذا فإن إدراك العربيّة إدراكاً كافياً يمكننا اعتباره خصيصة من خصائص الحاكم الاسلامي.

لكن الشيخ الغزالي لم يقف عند حدود اللغة بل تجاوزها إلى البيئة الاجتماعيّة والجغرافيّة وهذا هو العنصر الذي يجعل آراءه بعيدة عن الروح العالميّة للإسلام. فلو كانت العروبة عنده هي اللغة فقط فما معني وصفها بأنها دائرة عالميّة وسعت شتى الألوان والأجناس؟ وما معني أن الأمة العربيّة هي حارسة القيم والوحي والفضائل؟.

ألا يعني ذلك أنه ينظر إلى بيئة اجتماعيّة معينة؟ وما معني أن يكون الوطن العربي مكان القيادة ومصدر الإلهام؟ وأن من خواص القيادة الإسلاميّة عروبة الشعور والتفكير والأراء واللغة؟ ألا يفهم من ذلك الانتماء القومي والجغرافي؟ ولا معنى لتقسيم المسلمين إلى عرب ومستعربين وقوميات لم تستعرب بعد إلّا اعتبار العرب القوميّة القائدة للمسلمين بحيث تسعى القوميات الأخرى إلى الانتماء إليها والانسلاخ عن جلدتها الخاصة بها.

ولو كانت العروبة عنده هي اللغة فقط، فما معني هذا التمجيد والإطراء وتقديم الامتيازات الرفيعة لها؟ فإن اللغة لا تستدعي ذلك كله، وهو ما يدلُّ على أنه يقصد المعني القومي للعروبة.

إنَّ الإسلام - وكذلك الشرائع السابقة عليه ـ لم يصب أياً من أحكامه على عنوان قومي أو وطني أو قبلي، وموضوعه الدائم هو الإنسان المجرَّد عن هذه العناوين. وآية (كنتم خير أُمة...) لا تدل على معنى قومي، لأن الأمة الممدوحة فيها أُمة الإسلام، ولكن ما دام الإسلام يهمل الزاويّة القوميّة فلابد أن يكون معني الآيّة هو امتداح جماعة الحق التابعين للرسول ﷺ بغض النظر عن انتمائهم القومي، وهذا هو المعني الصحيح للأمة في الإسلام فلا يمكن أن يكون المقصود بالآيّة غيره.

إن ربط الإسلام بالعروبة ظاهرة فكريّة خطيرة، فمع أن القرآن الكريم قد

هدِّد المسلمين الأوائل بأن يستبدلهم بغيرهم بما يفهم منه أن الإسلام لا يرتبط ببيئة اجتماعيّة معينة وأنه لكل البشريّة إلّا أن العلاقة بين الإسلام والبيئة العربيّة في المرحلة الأولى منه جعلت الكثير من المفكرين يعتبرونها وكأنها من مقوِّمات الإسلام، وهذه الظاهرة تؤكد على ضرورة ترسيخ مفهوم العالميّة الإسلاميّة وصقله في المجتمع الإسلاميّ أكثر فأكثر، وتدلل على خطورة المنزلق القومي بخاصّة عند من ترتبط التجربة الإسلاميّة بيئتهم.

هذا كله على صعيد المدرسة السنية.

أما علي صعيد مدرسة أهل البيت عليهم السلام فإن حصر الإمامة في اثني عشر إماماً من أسره واحدة لا يدل على معنى تعصبي، إذ أن هذه الإمامة لم تتقوّم بالوراثة والنسب حتى تكون إمامة أسريّة أو قبليّة تعصبيّة وإنما تتقوم بالنص الإلهي والعصمة والأفضليّة على سائر الخلق بالعلم والعمل. وهذه المقومات تنسجم تمام الانسجام مع النظرة العالميّة في الإسلام، فإن النص الإلهي يعني انتخاب السماء لهؤلاء الأئمة لكونهم قيادةً خالدة للبشرية، وربما كانت الحكمة في هذا التدخل السماوي في أمر القيادة البشريّة هو تسيير الدورة الحضاريّة الأولى للإسلام تحت إشراف سماوي مباشر حتى يأخذ المجتمع الإسلاميّ الاستعداد والتجربة الكافيّة لخوض الدورات اللاحقة بنفسه ودون الاعتماد على دور سماوي مباشر، وذلك في مرحلة قيادة الفقهاء النائبة عن القيادة المعصومة، كما أن العصمة تعني بلوغ الإمام مستوي القمّة في الطاعة وهي تتساوق مع المفهوم العالمي للقيادة الإسلامية. وهكذا في المقوّم الثالث للإمامة وهو الأفضليّة على سائر الخلق بالعلم والعمل.

عالميّة القانون

و للدولة الإسلاميّة قانون ينظّم العلاقات الاجتماعيّة على أساس الخصائص الانسانيّة وباستبعاد تام للخصوصيات المحلية، بما يتساوق مع المحتوي العالمي لهذه الدولة.

و إذا ما ألقينا نظرة على الخطابات القرآنيّة وجدناها دائماً تنادي « يا أيها الناس، الإنسان، الذين آمنوا، الذين كفروا... » وليس في أي منها استنهاض لأي عنوان تعصبي محلي، فلا نجد فيها نداء « يا أيها العربي، المكي، القرشي » ومن الطبيعي أن تنعكس هذه اللغة على الشريعة؛ فنجدها شريعة تعتمد في معالجاتها القانونيّة على الخصائص الإنسانيّة الأصيلة كالعمل والإيمان، ولا تُدخل في حساباتها الخصوصيات المحليّة كالقرابة والقبيلة والوطن والقومية. وهذا محور تخصصي واسع يحتاج إلى فرصة كافية والاستدلال والاستشهاد، وأنسب نقطة فيه يمكن الإشارة إليها الآن مسألة المواطنة في الدولة الإسلاميّة حيث لم تدخل الأرض ولا القوميّة كأسس في هذه المسألة، وإنما الأساس فيها هو الإيمان بالدولة الإسلاميّة وبدار الإسلام والاستعداد للدفاع عنها والجهاد من أجل اتساعها، فمن يلتزم بهذا الأساس يستحق اكتساب صفة المواطنة والانتساب للدولة الإسلاميّة ومن واجب الدولة أن تمنحه جنسيتها ما لم تكن هناك ظروف استثنائيّة قاهرة لا تسمح بذلك. وبذا تخرج المواطنة عن المفهوم التعصّبي وتأخذ مفهوماً عالمياً.

المجتمع العالمي

و البعد العالمي الثالث في الدولة الاسلامية، إنها دولة ذات مجتمع عالمي تنصهر فيه القوميّات والألوان والأوطان في بوتقة العقيدة، وكلما ارتفع النداء « لا

اله إلّا الله» اندكّت طواطم العصبيّة فيه ونهضت خصائص الانسانيّة المتمثلة بالقيم والفضائل والكمالات الأخلاقية.

إنَّ المجتمع الإسلاميّ تسوده فكرة الجماعة خلافاً للمجتمع الأوروبي الذي تسوده فكرة الصراع[٣٢]، وعندما نتعمّق في دراسة هذا الفارق العميق بينهما نجد أن فكرة الجماعة وروحيتها أمر طبيعي في مجتمع تهيمن عليه القيم الدينيّة والأخلاقيّة كما لو كانت أسرة يديرها أب مقتدر كفوء، وأن سيطرة فكرة الصراع وروحيته على مجتمع مادي كذلك أمر طبيعي كما لو كانت أسرة افتقدت قطبها الأبوي وتشتت أمرها بسبب أهواء الأبناء، فالمجتمع الديني يعيش تحت شعار « يد الله مع الجماعة» والمجتمع المادي يعيش تحت شعار « الصراع من أجل البقاء» وهذا معني قوله تعالى: ﴿ **مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ** ﴾ [الانفال/٦٣].

إنَّ فكرة الصراع هي التعبير الطبيعي عن قوميّة المجتمعات الحديثة، كما أن فكرة الجماعة تمثّل التعبير الطبيعي والصادق عن المحتوى العالمي للمجتمع الإسلامي، وهي فكرة تتكامل مع مبدأ الولايّة بين المؤمنين، قال تعالى: ﴿ ... **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ** ﴾ [التوبة/٧١].

الثقافة العالمية

إنَّ الأساس العقائدي الراسخ للدولة الإسلاميّة من شأنه إفراز ثقافة تتمسّك بالخصائص الإنسانيّة النبيلة وتتعامل مع الخصائص المحليّة بحيطة وحذر وتحفّظ، فإنَّ الثقافة المحليّة على ثلاثة أنواع:

- ثقافة مطابقة للإسلام، أفرزتها الأجيال الإسلاميّة السابقة.
- وثقافة مستفادة من الجاهليات السابقة على الإسلام، أو من المبادئ

الهدّامة والفلسفات المضادة له الناشئة في زمان وجوده.

- وثقافة ليست مطابقة ولا مخالفة للإسلام.

النوع الأول: إسلامي يستحق الانتشار والتبني، والنوع الثاني: منحرف ينبغي تصفيته، والنوع الثالث: مقبول بشرط أن لا يعلوا أو يساوي الثقافة الإسلاميّة من حيث درجة الاهتمام والتبني، لأن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه، فما في المجتمع من رسوم وأعراف وتقاليد وفنون وأفكار وممارسات محليّة تُعد ثقافة من الدرجة الثانيّة ويتم التعامل معها على أساس أن تكون الثقافة الإسلاميّة هي الأبر والأهم؛ لأنّها كلمة الله، ولابدَّ أن تكون كلمه الله فوق كلمه الناس التي هي من النوع الثالث الذي يمكن القبول به، وأما إذا كانت من النوع المنحرف فلابدِّ من تصفيتها باعتبارها وجوداً غير مشروع في المجتمع الاسلامي.

و هكذا تتحكم الثقافة الإسلاميّة الأصيلة بالثقافة المحليّة وتحافظ الدولة الإسلاميّة على صفتها العالميّة في الميدان الثقافي.

علاقات ما وراء الحدود

و تنعكس العالميّة بشكل جلي على العلاقات الخارجيّة للدولة الإسلامية، فهي تعيش وسط دائرتين صغيرة وكبيرة، الدائرة الصغيرة هي الدائرة الإسلامية. والثانيّة هي الدائرة الإنسانية، وعلاقتها بالدائرة الإسلاميّة تقوم على أساس حمايّة المسلمين، والدفاع عن قضاياهم وتقديم المساعدات الممكنة لهم، وعلاقتها بالدائرة الإنسانيّة تتمثّل بالعمل على نشر الدعوة الإسلاميّة وحمايّة المستضعفين ومقاومة أعمدة الاستكبار ورؤوس الفتنة التي تحول دون وصول شعاع التوحيد إلى قلوب الناس، هذا هو النهج الإسلاميّ العالمي في العلاقات الخارجية، وهو يواجه في الظروف الراهنة مشكلتين: مشكلة داخليّة وأخرى

خارجية. وكلتاهما ناشئتان من النظرة القوميّة الأنانيّة الاستئثاريّة الضيقة.

أما المشكلة الداخليّة فهي التصور بأن هذا المنهج يكلِّف إقليم الدولة تكاليف سياسيّة واقتصاديّة باهظة ويستنزف الموارد الداخليّة للبلد، وهو تصور ناشئ من الاعتقاد بأن ثروات إقليم الدولة حقٌ خاص لسكانه دون سائر المسلمين، وهو اعتقاد ينافي النظرة الإيمانيّة وما تستلمه من حسن الظنِ بالله، وأن الأرزاق بيد الله يقسمها كيف يشاء، وأنَّ الله قد جعل لفقراء المسلمين حقوقاً على أغنيائهم، وأن على المسلمين التناصر بينهم وأنهم يدٌ واحدة على من سواهم، كما أنه ينافي النظرة السياسيّة الصحيحة لأن التناصر بين المسلمين في مبدأ متبادل بينهم، فحينما يجب على الدولة الإسلاميّة أن تنصر المسلمين يجب على المسلمين في الوقت نفسه نصرة الدولة الإسلامية، وهذا ما يجعل المسلمين قوة دوليّة هائلة، ويُكسب الدولة الإسلاميّة اقتداراً هائلاً.

إنَّ الأحزاب الشيوعيّة العالميّة هي التي جعلت الاتحاد السوفيتي السابق القدرة الثانيّة في العالم وقدرة المسلمين تفوق قدرة هذه الأحزاب، وبإمكانها أن تجعل الدولة الإسلاميّة القدرة الأولى في العالم شريطة أن يكون المنطلق هو الإسلام لا الأغراض النفعيّة البراغماتيّة أو الاستعلائيّة القومية.

و أما المشكلة الخارجية؛ فهي التعارض مع القانون الدولي الذي يعدُّ هذا النهج نوعاً من التدخل في الشؤون الداخليّة للدول الأخرى. إلّا أن المجتمع الدولي الراهن يخضع لميزان القوة والضعف أكثر من خضوعه للقانون الدولي، فالدولة القويّة تستطيع أن تفرض منهاجها مهما كان، والدولة الضعيفة لا تكاد تحصل على ما يقدمه القانون الدولي لها، وأكبر دليل على ذلك السلوك العدواني الإسرائيلي والأمريكي الصارخ الذي يؤطِّر باستمرار بإطار القانون الدولي.

وبإمكان الدولة الإسلاميّة أن تتجاوز هذه المشكلة من خلال اقتدارها المنطلق من العقيدة والقيم والأخلاق وحمايّة المسلمين والمستضعفين لها.

الهوامش

(١)حسين احمد، الأُمة الانسانية، ص ٣٨٨.

(٢) المصدر نفسه .

(٣) الجندي، أنور، الإسلام والدعوات الهدامة، ص ١٥٩.

(٤)المصدر نفسه ص ١٥٨.

(٥)المصدر نفسه ص ١٥٨.

(٦)الغزالي، محمد، حقيقة القوميّة العربية، ص ٢٠٠.

(٧)العقاد، عباس محمود، ساعات بين الكتب ص ٢٩٨.

(٨)العقاد، عباس محمود ردود وحدود ص ١٤٠-

(٩) رسل، براتراند، التربيّة والنظام الاجتماعي، ص ١٣٨-

(١٠) المصدر نفسه ص ١٢٧.

(١١)العقاد، عباس محمود، ردود وحدود، ص ٢٤١.

(١٢)حلل كاتب هذه السطور النظريّة العرقيّة وردّ عليها في دراسة منشورة في مجلة التوحيد الهدد ((٧١)) ص ٤٩.

(١٣)القبانجي، صدر الدين، المذهب السياسي في الإسلام، ص ١٢٥.

(١٤)مغنية، محمد جواد، الإسلام والعقل، ص ٢١٠.

(١٥)الحنبلي، حمدي، الإنسان العقائدي، ص ١٨٣.

(١٦)عبد ربه، عبد الحافظ، الثورة الاجتماعيّة في الإسلام، ص ٣٣٤، نقلا عن كتاب ((حيثما يكون الإسلام)).

(١٧) منصور، علي علي، الشريعة الإسلاميّة والقانون الدولي العام، ص ٨٩.

(١٨)ماكيفر.م. روبرت، تكوين الدولة، ص ٢٠٢ ترجمة حسن صعب.

(١٩)انظر: الصدر، محمد باقر، فلسفتنا، ص ١٩.

(٢٠)المبارك، محمد، نظام الإسلام الحكم والدولة ص ٧١.

(٢١)الغزالي، محمد حقيقة القوميّة العربيّة ص ١٧٤.

(٢٢) المصدر نفسه ص ٥٦.

(٢٣)المصدر نفسه ص١١١.

(٢٤)المصدر نفسه ص ٥١.

(٢٥)المصدر نفسه ص ١٤ و١٥.

(٢٦)المصدر نفسه، ص ١٦.

(٢٧)المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٢٨)المصدر نفسه ص ١٧.

(٢٩)المصدر نفسه ص ١٨.

(٣٠)المصدر نفسة ص ١٧٦.

(٣١)المصدر نفسه ص ١٧٣.

(٣٢) الصدر، محمد باقر، اقتصادنا: ص ٢١، ط ١٣.

بحوث من «تفسير الميزان»

الأنبياء والبشرية في القرآن الكريم

❐ محمد علي الريحاني

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة/٢١٣].

نظرية القرآن في نوعية المراحل الأولى للخليقة:

النظرة الاجمالية: تعرضت هذه الآية الشريفة لمواضيع ثلاثة هي:

أ ـ **الوحدة الفطرية الأولى**: فالإنسان الأول دفعته فطرته بصورة رئيسية إلى تكوين مجتمعة الأول الذي كان يتصف بالوحدة بشكل طبيعي.

ب ـ **بدء الاختلاف**: وكان طبيعياً أن تنوع المستويات وتختلف الحظوظ باختلاف الفرص الخارجية من جهة واختلاف المزايا الجسمية والفكرية من جهة أخرى، ومن هنا نبع الإحساس البسيط بالحاجة إلى نظام ينتظم المجموعة البشرية ويعطي كل ذي حق حقه على أساس من العدالة، ومن هنا أيضاً نعرف أنَّ مشكلة النظام هي أعمق مشكلة واجهها الإنسان من حيث تاريخها وصعوبة حلها وآثارها على حياته العامة.

ج ـ **ضرورة الدين**: ومع ضرورة النظام من جهة وضعف الإنسان الطبيعي عن وضع القانون الكامل من جهة أخرى فقد توجهت رحمة الله للبشرية فكانت أن أنزلت إليها قانونها الكامل الذي يناسب تلك المرحلة من حياة البشرية، ولما لم

يكن أي قانون يؤدي دوره الفعال في حياة المجتمع بدون عقيدة، وقبل ذلك لما لم يكن للإنسان أن يعيش حياة الغباء والبعد عن الحقيقة الكونية الهائلة التي تمسك السماوات والأرض أن تزولا والتي لها الأمر من قبل ومن بعد، فقد ابتني النظام على أساس عقائدي شامل، وأصبح يسمي المجموع من العقيدة والقانون (ديناً). وكان لابدَّ للدين من أنْ يستكمل نفوذه ويفرض طاعته، فكان التبشير بالنعم الإلهية من جهة، والإنذار بالعقاب الإلهي عند العصيان من جهة أخرى، كما كان لابدَّ للدين من أن يفرض طابعه وروحه في المجال العام للمجتمع الإنساني فقدم العبادات بصيغ مختلفة:

كإطار للتنفيذ من جهة وكشعار عام للمجتمع المتدين من جهة أخرى.

إلى هنا والوحدة الفطرية التي نقضها الاختلاف السابق قد تحولت إلى وحدة على أساس من الدين، وذلك سير طبيعي، ولكن القرآن يحدثنا عن الانحراف المبدأي القائم على أساس:

الاختلاف المبدأي: فبعد أن توضحت للبشرية التي أوتيت كتب الله تعالى معالم هذه الكتب تماماً ووعت معارفه وأصولها نمت في البعض منها عوامل كثيرة دعتها الى التحريف في العقيدة والاختلاف في الدين أولا، والذي تبعه بصورة طبيعية أيضاً الاختلاف في الأمور الأخرى، ومن هنا فذلك بغي وظلم من أفراد الإنسان أنفسهم بعد أن تبينت لهم معالم الرشاد ومنحتهم السماء رحمتها الواسعة فالاختلاف إذن على نوعين: اختلاف طبيعي ينشأ كما أسلفنا من اختلاف الشروط والاستعدادات، وهو أمر واقع، ولأجله شرع الدين، فجاء يعدل الفطرة بالقوانين الواقعية التي تعترف بها وتحاول أن تعدل في مسيرتها.

و هدى الله سبحانه المؤمنين إلى الحق المختلف فيه بإذنه والله يهدي من يشاء

إلى صراط مستقيم.

و اختلاف عقائدي: استند الى بغي الباغين وظلمهم وتفرعت منه نتائجه السيئة التي كانت لها آثارها العميقة الجرح في تاريخ الإنسان، وبهذا الإجمال عرضت هذه الآية لحياة الإنسان (الاجتماعية والعقائدية) تاركة التفصيل لما تقرره الآيات المتفرقة في القرآن الكريم والنازلة في شؤون مختلفة، فما هي الصورة التفصيلية إذن؟، إنَّ علينا أن نجمع خيوط الصورة من تلكم الآيات المتفرقة لتكتمل لدينا مفصلة بعد أن عرفناها بصورة إجمالية.

بدء تكوين الإنسان:

و الذي يتحصل لنا من خلال دراستنا لتلك الآيات المتفرقة أنَّ النوع الإنساني المجود بأجياله المتعاقبة، ليس ــ كما يصوره البعض ـ مرحلة متكاملة من نوع آخر حيواني أو غيره جاء نتيجة لقانون التكامل المادي، بعد أن تدرج في مختلف المراحل، وإنما هو نوع أبدعه الله تعالى من الأرض، بعد أن لم يكن شيئاً، بمعنى أن السماء والأرض وما عليها كانت ولم يكن هناك إنسان مطلقاً ثم خلق الله تعالى زوجين اثنين من هذا النوع، إليهما تنتهي هذه الأجيال جميعها.

قال تعالى في محكم كتابه الكريم: ﴿ **إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ** ﴾ [الحجرات/١٣].

وقال تعالى: ﴿ **خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا** ﴾ [الأعراف/١٨٨].

و قال تعالى: ﴿ **كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ** ﴾ [آل عمران/٥٩].

أما الفرضيات الطبيعية المعروفة اليوم فلنا معها حديث آخر عند البحث عن

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ﴾.

الإنسان: جسم وروح

و قد أنشأ الله سبحانه هذا النوع ـ حين أنشأه- مركباً من عنصرين جوهريين هما المادة التي تشكل جسمه، والروح التي تشكل العنصر الفعال المحرك للمادة، وهذان العنصران متلازمان ما دامت الحياة الدنيوية، وبعملية الموت تفترق الروح الحية عن الجسم الميت فيرجع الإنسان إلى الله تعالى، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون/١٢ـ١٦]. فالآيات تتحدث عن مراحل النشوء المادي للإنسان إلى أن تصل المادة إلى المرحلة التي تصبح فيها مستعدة لقبول الروح وهما يعبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾ وفي هذه المعني ورد قوله تعالى ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [ص/٧٢].

والأوضح من هذه الآيات قوله تعالى ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠) قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [السجدة/١٠ـ١١] والآية نتحدث عن استبعاد الكافرين لعملية البعث وارجاع العظام البالية والأجزاء النخرة مرة ثانية والرد عليهم بأن ملك الموت يتوفاهم ويضبطهم فلا يدعهم، فهم غير أبدانهم إذن، فأبدانهم وإن تفرقت شتى في الأرض، لكنهم أي لكن نفوسهم غير ضالة ولا مستهلكة، وتفصيل البحث في معطيات القرآن في حقيقة الروح له مجال آخر.

نعمتان: الفكر والتسخير

فقد وهب الله تعالى الإنسان هذه الطاقة الفكرية الخلاقة التي بها يتميز عن باقي الموجودات الحية فهي من مقومات شخصيته العامة، وبهذه النعمة الكبرى يستطيع أن يقوم بعملية تخزين للصور الذهبية التي تمر عليه بالملايين في حياته واسترجاع الصور المخزونة عندما يحتاج الى ذلك وكذلك عملية تمثل للصور الحاضرة وحدس للصور الآتية بملاحظة القرائن الدالة عليها ومن هنا فيمكن أن نقول: (إنَّ لها إحاطة من نوع معين بجميع الحوادث).

قال تعالى: ﴿ **عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ [العلق/٥].

قال تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ** ﴾ [النحل/٧٨].

و كانت النعمة الثانية أنْ سخّر له كل شيء وخلقه موجوداً يقبل الارتباط بكل شيء ويمكنه الانتفاع من كل أمر سواء كان ذلك بالاتصال به أو جعله واسطة إلى غاية من غاياته، وهذا ما نلاحظه بوضوح في هذا البناء الفكري الانساني، وتلك الفنون التي أنتجها ذلك البناء.

قال تعالى: ﴿ **خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا** ﴾ [البقرة/٢٩].

و قال تعالى: ﴿ **وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ** ﴾ [الجاثية/١٢].

العلوم العملية:

و كانت من نتيجة هاتين النعمتين (الفكر والتسخير) أن يمتلك قدرة رائعة على تكوين مجموعة من العلوم والإدراكات التي تشكل المرحلة من مراحل النفوذ إلى الأشياء والتصرّف فيها، وتسخيرها للانتفاع والحفاظ على مجرى حياته الخاصة

والخارجية العامة.

و لتوضيح ذلك نحتاج إلى عملية تجريد للذهن ونظر دقيق للإنسان، وبحيث يفرض الباحث نفسه يرى الإنسان لأول مرّة وهو يقوم بعملية فكرية يبتغي من ورائها القيام بأمر حياتي ما.

فأنّا والحال هذه نجده يزج إلى ميدان فكره الكثير الكثير من الإدراكات والأفكار المتشعبة الجهات والمتسعة الأطراف، التي أوجدتها وجمعتها الحواس الظاهرة والباطنة في الانسان، أو كانت نتيجة للتصرفات الابتدائية أو المتكررة للقوة الفكرية.

وإذا أمعنا النظر في نفس هذه العلوم والإدراكات فإنا نجدها على قسمين: فالقسم الأوّل منها هي العلوم والادراكات التي تحكي عن الخارج فقط دون أن تتدخل في تكوين إرادة معينة أو صدور فعل معين، من قبيل مفاهيم: الأرض والسماء والماء والهواء، والانسان والفرس ونحو ذلك من التصورات. ومعاني قولنا: (الأربعة زوج، والماء جسم سائل، والتفاح أحد الثمار)، وغير ذلك من التصديقات، وهي علوم وإدراكات نشأت نتيجة التفاعل الحاصل بين الأشياء الخارجية والحواس والوسائل الإدراكية، وكذلك من قبيل الكليات المعقولة كعلمنا الناتج من ملاحظة أنفسنا نحن أي هذه (الأنا) التي يشعر بها كل فرد.

و **القسم الثاني**: وهو من قبيل قولنا: (إنَّ هناك حسناً وقبحاً، وما ينبغي أنْ يفعل وما يجب أنْ يترك والخير تجب رعايته، والعدل حسن، والظلم قبيح، ومن قبيل مفاهيم (الحكومة والمحكومية، والرئاسة والمرؤوسية، والعبودية والمولوية)

هذه الأفكار هي التي لا يتم فعل إرادي إلا بتوسيطها وأعمالها للوصول إلى الأهداف وتحقيق وسائل السعادة.

و هي أمور لا تحكي عن واقع موضوعي ثابت بصورة مستقلة عن أفهامنا كما هو الأمر في القسم الأول فليست هي نتيجة التفاعل بين الواقع الموضوعي والقوي الحسية في الإنسان، بل هي أمور أنشأناها نحن وألهمناها نتيجة الإحساسات التي تقتضيها القوى الداخلية العاملة والمولدة بنزوعها نحو العمل، ونفورها عما لا يلائمها إذ نتيجة لذلك تحدث صور في الإحساسات الباطنية كالشوق والبغض، والحب والميل مما يبعثنا بالتالي إلى اعتبار وإنشاء هذه الإدراكات من معنى الحسن والقبح وينبغي وما لا ينبغي ويجب ويجوز إلى غير ذلك، وبتعبير جامع فإنَّ العلوم من النوع الأوّل إنّما تتحدث عما هو كائن، بينما تتحدث العلوم من النوع الثاني عما ينبغي أنْ يكون من الأمور العملية لذا سميناها بـ (العلوم العملية) وسنستوفي البحث فيها أيضاً في محلها.

و قد ألهم الله تعالى الإنسان هذه العلوم العملية ليمنحه القدرة على أن يدخل مرحلة العمل والتصرف في الواقع الخارجي ليقضي الله أمراً كان مفعولا قال تعالى: ﴿ **الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى** ﴾ [طه/٥٠].

و قال تعالى ﴿ **الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى** ﴾ [الاعلى/٢ـ٣].

فالآيتان تتحدثان عن الهداية العامة لكل موجودة سواء كان ذا شعور أو بلا شعور إلى ما هو كمال وجوده.

و قال تعالى في الإنسان خاصة ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا** ﴾ [الشمس/٧ـ٨].

مقرراً هذا الإلهام الفطري للنفس كي تعي ما ينبغي أنْ تفعله وما لا ينبغي وهي كما سبق العلوم العملية التي لا واقع لها خارج النفس الإنسانية ولعل أضافتها إلى النفس في الآية الكريمة إشارة إلى ذلك.

و قال تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت/٦٤].

فاللعب خيال في الحقيقة وكذا الدنيا (من جاه ومال وتقدم وتأخر ورئاسة ومرؤوسية وغير ذلك إنما هي أمور خيالية وجودها ذهني والموجود حقيقة هو الحركات الطبيعية التي يؤثر بها الإنسان في المراد بلا فرق بين أفراد الإنسان وأحواله).

ففي مثل (الإنسان الرئيس) الموجود واقعاً هو الإنسان، أما الرئاسة فهي اعتبار وخيال مثل الثوب المملوك، الموجود منه هو الثوب وأما أنه مملوك فذلك أمر خيالي لا يتجاوز حد الذهن وهكذا باقي الأمثلة.

عنصر الاستخدام:

و قد تبين أنَّ الأفكار العملية هي التي تشكل نوعية ارتباط الإنسان بالمادة ومن جملة هذه الأفكار (فكرة الاستخدام) وتعني أنَّ الإنسان حينما يطمح إلى التكامل فإنّه يرى نفسه محتاجاً لعوامل مساعدة تشكّل أرضية ذلك الكمال ومهيئاته ولذا فهو مدفوع طبيعياً لاستثمارها في هذا السبيل لإبقاء وجوده حياً متطوراً متكاملاً وهذا الاستثمار والاستخدام يبدأ في المادة من الأنواع البسيطة منه كاستخدام السكين والإبرة والإناء إلى الأنماط المعقدة من أنواع الصنائع والفنون وهكذا قل عن النبات في استثماره في الغذاء واللباس والسكن ثم يصل الأمر إلى استخدام الحيوان في هذا المجال للانتفاع باللحم والدم والجلد والشعر والوبر.... ويصل الأمر في النهاية إلى استخدام الإنسان لأبناء نوعه بما أمكنه وكل هذا مما لا ريب في كونه أمراً طبيعياً.

مدني بالطبع:

و وجود عنصر الاستخدام يتمثل في كل الأفراد فكل منها طالب ومطلوب في آن واحد ومن هنا كان عليه لتمشية أموره أن يقر موازين معينة تنظم التعامل الاجتماعي والتعادل بين النسب والروابط بما اسماه بـ (العدالة الاجتماعية) في إطار مجتمع متمدن نسبياً، إذن فهو قد اضطر إلى أن يحكم بلزوم صياغة المجتمع ومن ثم لزوم العدالة الاجتماعية. ولولا الحاجة ما دعاه داع لذلك... ومن هنا نجد أنّه متى ما اختل ميزان القوى بين الشخصين تقلصت في نفس القوى دوافع العدل وهذا ما نشاهده واقعاً في التاريخ والحاضر رغم ادعائه بأنه عصر الحضارة والحرية وهو الذي يستفاد من قوله تعالى.

﴿ **إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا** ﴾ [الاحزاب/٧٢] وقوله تعالى ﴿ **إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا** ﴾ [المعارج/١٩] وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ** ﴾ [ابراهيم/٣٤]. وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى** ﴾ [العلق/٦-٧]

فليس العدل من مقتضيات الطبع الأولي للإنسان، وإلا لكان العدل والتعاون هو الظاهرة العامة في المجتمعات وهو خلاف الواقع.

حدوث الاختلاف الاجتماعي:

فبالنظام هذه الحقيقة وهي احتياج الانسان الى (عنصر الاستخدام) الى الحقيقة الأخرى وهي (الاختلاف الطبيعي للأفراد من حيث الصفات الجسمية والمؤهلات العقلية ومناطق السكن وغير ذلك الذي ينتج في النهاية الاختلاف بينهم من حيث الضعف والقوة) بانضمام هذه إلى تلك يكون الاختلاف الاجتماعي أيضاً أمراً لا مفر منه فينحرف الانسان حينذاك عن جادة العدالة الاجتماعية ويختل ميزان الإفادة والاستفادة إذْ حل عنصر الغلبة محل عنصر التوازن في

الاحتياج وببروز هذا الاختلاف فالفوضى متوقعة واستثمار جهود الآخرين يقابله تحين لفرصة الانتقام وقد ينقلب الميزان ويكون الهرج والتناحر والهلاك في النهاية وبطلان السعادة.

و إلى هذا يشير قوله تعالى ﴿**وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا**﴾ [يونس/١٩] وقوله تعالى ﴿**وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ**﴾ وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة التي نبحث فيها ﴿**لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا**﴾

ومن هنا نقول: إنَّ هذا الاختلاف الطبيعي بما فيه من نتائج هو الذي استدعى أنْ تشرع السماء للأرض كما تقر العدالة وترجع التوازن بفرض القوانين العامة المبنية على أسس واقعية.

و الأسلوب المتبع اليوم لحمل المجتمع على قبول الانضواء تحت لواء القانون والتقيد بأحكامه له شكلان:

أ- القوة الحاكمة التي تفرض على الناس أن يراعوا موازين العدالة وتقوم بتوزيع الثروة توزيعاً عادلا وتفرض المساواة في الحقوق والواجبات كل ذلك بغض النظر عن أي جانب معنوي من (ايمان واخلاق) بمعني عدم الاعتماد على العنصر العقائدي من جهة وبناء الأخلاق على أساس من المنفعة المتطورة من مجتمع إلى مجتمع وحال إلى حال من جهة أخرى.

ب- القوة التي تقوم بإنزال القانون إلى المجتمع عن طريق إيجاد نوع من التربية الخلقية مع النظر للجانب العقائدي وعدم الاعتراف بآثارة الاجتماعية، وكلا الشكلين اللذين يشكلان أساس وحدة الأمة، مبنيان على أساس الجهل وينجران بالإنسانية إلى الزوال والفناء ذلك أنهما نظرا إلى الانسان منعزلاً في هذا

الكون الرهيب عن مبدأه وعن منتهاه وغايته فالانسان موجود يتعلق وجوده بصانعه العظيم كما تفرض ذلك فطرته النقية، بدأ منه وسيعود إليه في حياة خالدة تتلو هذه الحياة الدنيا التي هي مرحلة من مراحل التكامل، وتلك الحياة تتشكل بنوعية السلوك في هذه الحياة ومقدار الوعي فيها.

فالإنسان بلا عقيدة وجود منفصل عن جذوره الأصلية لن يقوى على الصمود والبقاء، إن مثل المجتمع في هذه الحالات مثل قافلة سلكت طريقاً إلى بلدنا وحملت معها ما يكفيها من زاد ولوازم أخرى ولكنها ما إن حلت في منزل معين حتى بدأ الصراع والخلاف وتطور إلى القتل والفتك وحين اجتمعت للتشاور وتنظيم الأمور طرح في البين حلان.

الأول: أنْ يشترك المجتمع بالانتفاع بالزاد واللوازم وذلك حسب ما لكل من الوزن الاجتماعي، على أن تقوم قوة مشكلة مبهمة ملاحظة تطبيق هذه المقررات ومعاقبة المتخلفين.

الثاني: أنْ يعي المجتمع واجباتهم ويلاحظوا مصالحهم ويدركوا بعض المعاني الخلقية التي تعود عليهم جميعاً بالنفع ثم يقوموا على أساس من ذلك بتطبيق بعض القرارات التي تضمن العدالة وامكان البقاء والمتخلف تأخذه القوة، وكلتا الأطروحتين مخطئتان إذا قصدنا نظرهما على هذه المرحلة من السفر فقط وجهدت على أن تحل مشاكلها فيها فقط إذ أن القافلة تحتاج بوضوح لأن تدرك مسيرتها وغايتها واحتياجات الوصول الى هذه الغابة ومحاولة توفيرها باقتصاد وتخطيط، وإن لم تفعل ذلك ورفعت الخلاف بينها في خصوص المرحلة الواحدة بغض النظر عما أمامها فقد عرضت نفسها للهلاك والدمار لذا فالعقلاء في القافلة هم الذين يخططون لمرحلتهم الحاضرة ومستقبلهم الآتي ويلائمون بين نواحي الخطيط.

الدين هو الحل:

و لذلك فقد رأينا ان السماء برحمتها الواسعة خططت للبشرية نظاماً شاملا عاماً يحل لها كل مشاكلها على أساس من مقاييس واقعية وحلول على نفس المستوى باعتبار أن المشرع هو الاعلم بالمصالح والمفاسد وهو ارحم الراحمين، وكانت قاعدة هذا التشريع العقيدة الفطرية التي تحدد للانسان نقطة انطلاقه وموقفه من الكون ككل وتعين تعامله مع كل جزء منه مركزة على أنَّ الحياة الدنيا حياة تتلوها حياة خالدة باقية واعياً لان كل هذه الاسس تحتاج الى عملية تعليم وتدريب بأنماط مختلفة لتشترك الفطرة والعقل في عملية وعي التشريع الإلهي وتطبيقه، وأنَّ الجهل هو سبب كل الانحرافات.

قال تعالى: ﴿**إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [التوبة/٤٠] وقال ﴿**فَبَعَثَ اللَّهُ...**﴾ ليقرن بين التعبد والإنذار ﴿**وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ**﴾ [الجاثية/٢٠].

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾ [الانفال/٢٤].

و هذه الحياة هي التي يشير إليها قوله ﴿**أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا**﴾ [الأنعام/١٢٢].

فالعلم والدين هما الضمان للانطلاق في مسيرة صحيحة ويكفي أنْ يسمّي عصر ما قبل الإسلام عصر الجاهلية.

و من هنا نعرف بعد قول من قال: إنَّ الدين يعني الجمود الفكري إذ أن هؤلاء بعد أن بهرتهم العلوم التجريبية ولم يستطيعوا أن يجعلوا أساساً يثبتون به عالم ماوراء الطبيعة وذلك لقصور في التجربة نفسها لذا فقد حكموا بأن تعاليم الدين أمور تنافي العقل وساعدهم في ذلك سلوك بعض من استنسبوا الى الدين ورفعوا شعاراته

وهو منهم برىء إذ هو أرفع من أن يدعو إلى تقليد أو جهل أو عمل لا علم معه أو قول بغير هدى ولا كتاب منير ﴿ **فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ...** ﴾

الاختلاف في نفس الدين:

و على ما سبق فقد عرفنا أنَّ الحل الوحيد الذي يمكنه أن يضمن السعادة الاجتماعية والمشي المتزن على طريقها هو الدين بكل ما فيه من تعاليم وأساليب كما يعرف أنَّ ما لدى البشرية اليوم من حلول فهي قائمة على أساس الدين إن كانت نافعة وإلا فهي غير واقية ولن تستطيع تحقيق ما تصبو إليه الانسانية.

و بعد أن تحدّث القرآن عن رحمة السماء برفع الاختلاف عن طريق الدين والتشريع الإلهي انتقل ليصف ظلم الإنسان وجوره وبغيه فلم يحمل الدين بعد أن حمله وأعطي العلم، وكانت نقطة الخلاف من نفس اولئك الذين أوتوا العلم وعرفوا بكتاب الله بعد أن غلبتهم شهوتهم ومصالحهم.

قال تعالى: ﴿ **شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ (١٣) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ** ﴾ [الشورى/١٣ـ١٤] وقال تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** ﴾ [يونس/١٩] والكمة المشار إليها في الآيتين هو قوله تعالى: ﴿ **وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ** ﴾.

الإنسان بعد الدنيا:

ومن خلال عرض القرآن الكريم لمسيرة الإنسان الصاعدة أصلا ينتقل إلى الحياة التي تعقب الحياة الدنيا أو التي سماها بـ(الآخرة) فيعطي هذه الحياة صفة كبرى تتميز

بها عن الدنيا أنها حياة انفرادية ونقصد بهذا التعبير أن الإنسان ـ كما سبق - اعتمد في حياته الاولى وشؤونها على أساس التعاون والأواصر الاجتماعية التي تشكل قوتها قوة الإنسان الفرد وضعفها وتفككها نذر الفناء للفرد في حد نفسه فضلا عن المجتمع، فالإنسان إذن في حياته الدنيا يعيش الالتحام الاجتماعي في حين انه كما يصفه القرآن الكريم يجب أن يمشي طريق الآخرة بمفرده لا يستضيء إلا بضوء ينبعث إليه من حياته الأولى مختلف باختلاف درجات سلوكه في تلك الحياة فلا تأثر بالغد سواء في اولى مراحل الآخرة وهي البرزخ أو ما بعدها من مشاهد فهو إذن يمشي لوحده بلا تأثر بغيره.

ذلك الإنسان خلف النظام المادي الطبيعي وراء ظهره وبدأ يشهد عوالم أخرى بصره فيها حديد بعد أن انكشف غطاء المادة عنه وذابت كل تلك العلوم العملية التي بنى على أساس منها مراحل حياته الاولى فلا مجال في قاموس حياته الثانية لا مثال الاستخدام والتصرف والمدنية والمجتمع المتعاون ولا سائر ما يلازم ذلك مما كان ضرورياً لبناء انسان اجتماعي خير... كلا فليس له قرين في مسيرته الانفرادية إلا العمل بكل ما فيه من نتائج، العمل الذي قدمه من قبل يجده الآن بين يديه يعكس روحه: لخيرة أو الشريرة... فتبدو له حسناته وسيئاته وتظهر له حقيقة أمره وبتمثل له النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون.

مع مقاطع الآية المباركة:

قوله تعالى: ﴿ **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً** ﴾، الناس معروف وهم الافراد المجتمعون من الإنسان، والأمة هي الجماعة من الناس، وربما يطلق على واحد كما في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ** ﴾ [النحل/١٢٠]. وربما يطلق على زمان معتد به كقوله تعالى: ﴿ **وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ** ﴾ [يوسف/٤٥]، اي بعد سنين وقوله تعالى: ﴿ **وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ** ﴾ [هود/٨]، وربما يطلق على الملة والدين كما قال بعضهم في قوله

تعالى: ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون/٥٣]، وفي قوله تعالى ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ [الانبياء/٩٢]، وأصل الكلمة من أمَّ يأمُّ إذا قصد، فأطلق لذلك على الجماعة لكن لا على كل جماعة، بل على جماعة كانت ذات مقصد واحد وبغية واحدة هي رابطة الوحدة بينها، وهو المصحح لإطلاقها على الواحد وعلى سائر معانيها اذا أطلقت.

و على أي فان في الآية ظهوراً يدل أنَّ البشرية مرت بفترة انسجام ووحدة تقوم على أساس بسيط ساذج لا تمزقها الأهواء والميول والأطماع المادية وبتعقد الحياة شيئاً ما نشأ الاختلاف الذي دعى الرحمة الالهية لأنْ تقوم بإرسال النبيين مبشرين ومنذرين ولكن بعض حملة الكتاب بغوا واعتدوا فنشأ اختلاف آخر في الدين وهذا الظهور في الآية يمكننا أن نعتبره وفقاً لطبيعة الأمر والواقع بعد التحليل.

فنحن نشاهد هذا الرقي المادي المتدرج الإنسان فترة بعد فترة وجيلا بعد جيل محاولا بذلك أنْ يرسي أسس مجتمع رصين يؤمن له العلم ما يحتاجه من الطبيعة من جهة ويدفع عنه عادياتها من جهة أخرى ويشقق له الطريق بكل سرعة نحو امتلاك الأرض بأزمتها وتسخيرها تسخيراً مركزاً لمصالحه... هذا هو هدف الإنسان على الأقل وإن كان أخطا في اجتهادة بسلوك الطرق التي تؤدي إلى تحطيم نفسه.

منى ما حاولنا الرجوع إلى أعماق التأريخ الإنساني فإننا كلما غرنا فيها بعداً نجد الحياة تتحول إلى أبسط قدر ممكن لا تفترض معه نظريات فكرية مبرمجة ولو بشكل بسيط وإنما يفترض سير الإنسان آنذاك وفق البديهيات التي لم تخل منها حياته بما تستتبعه من نزر قليل من المعرفة بشؤون الحياة وحدود العيش، كالتغذي بالنبات أو شيء من الصيد، وسكنى الكهوف الطبيعية والدفاع عن النفس بالحجارة والأخشاب ومن الواضح أنَّ مثل هذه الحياة البسيطة جدّاً لا معنى

لظهور الاختلاف فيها بشكل يعتد به أنّه حينذاك أشبه إلى القطيع لا همَّ لأفراده إلا الاستناد إلى الأفراد الأخرى ومحاولة الوصول لما وصلوا إليه والتجمع في المسكن والمعلف والمشرب.

ولكن الحياة الإنسانية بالطاقات المودعة فيها بدأت تسير نحو الاكمل والأعقد وبدأت تظهر الاختلافات الطبيعية من حيث الاستعداد والقوى المؤهلة لبعض الأفراد لأن يستموا مركزاً أكبر من غيرهم خصوصاً مع ملاحظة ما اشرنا إليه من غريزة الاستخدام حيث تدفع الإنسان المؤهل لاستخدام كل ما لدية للاستئثار بالمقدار الأوفر من النصيب العام بعد أن تنفتح أمامه سبل لم تنفتح لغيره وبعد أن تنبه إلى مزايا جديدة غفل عنها الآخرون ومن هنا ينشأ التنافس والإضرار والاختلاف ولئن كان هذا الاختلاف أمراً طبيعياً في حد نفسه فإنَّ أساسه وهو غريزة الاستخدام بعينها هي التي دعت من قبل إلى الاجتماع والتعاون.

و لا ضير في كون حكمين فكريين متزاحمين إذا افترضنا حكماً ثالثاً بإمكانه أن يزيح من الاثنين معاً كل سلبياتها ويعدل أمرهما ويصلح شأنها وذلك كالإنسان تتنافس قواه في متطلباتها ويؤدي ذلك إلى التزاحم فحاجته إلى الغذاء وتلذذه به يدفعه للأكل إلى درجة يتعب معها الجهاز الهضمي ولكن العقل هو الذي يعدل بينهما ويفرض التوازن ويقضي لكل بما يناسبه.

و التنافي بين حكمين فطريين فيما نحن فيه من هذا القبيل فنفس كون الفطرة الانسانية دافعة الى التعاون والاستخدام ثم توقها الى التفوق والاستئثار كلاهما أمران طبيعيان ومتزاحمان ولكن الله يرفع التنافي بالتشريع السماوي الواقعي والذي يبشر الأنبياء به وينذرون من خالفه حاملين معهم الكتاب الحاكم بين الناس فيما اختلفوا فيه.

نتائج البحث:

و من البيان السابق يظهر لنا فساد الأقوال التالية:

أ ـ ذكره البعض من أنَّ الناس كانوا أمة واحدة من حيث كونهم مهتدين جميعاً، وأنَّ الاختلاف أنما نشأ من حملة الكتاب الذي أنزل عليهم، إذ يرد هذا البعض:

١ـ إنّه غفل عن الآية تثبت اختلافين لا اختلافاً واحداً.

٢ـ لو كانت الأمة متحدة على الهدى فما معنى بعث الأنبياء وانزال الكتاب وحمل الناس على الاختلاف، وتحريك غرائز السيطرة والشهوة لتشيع بعد ذلك مفاسد الأخلاق.

ب ـ ما ذكره البعض من أنَّ الناس كانوا أمّة واحدة من حيث كونهم ضالين ويرد هذا البعض أن الله تعالى نسب الضلال الذي أشار إليه بقوله ﴿ **فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ** ﴾ إلى سوء سريرة حملة الكتاب فمن كون الناس جميعاً قبل البعث ضالين لا معنى لنسبة الضلال إلى هذه الطبقة بالخصوص.

ج- ما قاله البعض من أنَّ المراد هم بنو إسرائيل بدليل أنَّ القرآن يذكر إنّهم اختلفوا في الكتاب بغياً بينهم إذ يقول في الجاثية ـ ١٦ ﴿ **فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ** ﴾ وهذا تفسير بلا دليل، فاتصاف بني اسرائيل بذلك لا يوجب تفسير الآية بهم.

د- ما قاله من أنَّ المراد بـ (الناس) هو آدم عليه السلام الذي كان على الهدي ثم اختلف ذريته فبعث الله النبيين.

و هذا القول بعيد جداً عن الحق والآية غير مطابقة حتى لبعضه.

هـ - ما ذكره العض من أنَّ (كان) في الآية منسلخة عن الزمان كما في قوله تعالى ﴿ **وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا** ﴾ فهي إنما تثبت هذه الصفة فقط وعند ذلك يكون المعنى:

إنَّ الناس أمة واحدة من حيث كونهم مدنيين بالطبع فلا يمكن أن تسير حياتهم إلا بالتجمع والتعاون بين الأفراد وتبادل الأدوار واستثمار الجهود الشراكة. وهذا ثابت بالشواهد التاريخية القديمة جداً بل هو أمر فطري لا يمكن أن يفلت منه.... وإذا ثبت هذا فإنّه بنفسه يؤدي للاختلاف وحينذاك فقد شرع الله سبحانه بلطفه وعنايته الشرائع لرفع هذا الاختلاف فالناس أمة مدنية بالطبع لا غنى لها عن التجمع الذي يوجب بدوره الاختلاف والذي يقتضي بعث الأنبياء لرفعه بمقتضي اللطف الإلهي.

و يرد على هذا القول:

أوّلاً: إنّه جعل ميل الإنسان للمدينة أمرا غريزياً مما يدفع بالضرورة التجمع والتعاون، وقد توضح خلاف ذلك فعرفنا أنّه أمر اضطر إليه الإنسان وقد دل القرآن على خلاف كونه أمراً طبيعياً أولياً.

ثانيا ـ ما قلناه سابقاً من أنَّ الآية تذكر اختلافين احدهما بين الناس وهو الأول، والثاني بين علماء الكتاب وحملته عن بغى وعلم.

مع الأنبياء

﴿ **فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ** ﴾

هكذا كانت حالة الإنسان الأول... يلفها السكون والخمول لا يتطلب

الإنسان منها إلا النصيب الذي يقيم به حياته.... وحينما بدأ الاختلاف بدأ اختلافا ساذجاً ولم يكن هذا ليؤجج فيهم حركية بل يعكر صفوهم الأولى مما استدعى لأن يبعث الله الأنبياء مبشرين ومنذرين، وكان التعبير بالبعث دون الإرسال لهذه النكتة، وهي أنَّ بعث الأنبياء كان يستهدف بعث الحركة في أوصال المجتمع وبث الروح المعنوية فيه، ولعله لنفس النكتة أسمى المبعوثين هؤلاء بالنبيين دون المرسلين، فالبعث وإنزال الكتاب يهدفان إلى بيان الحق للناس وتنبيههم إلى حقيقة وجودهم وحياتهم وهدايتهم إلى أنهم مخلوقون لربهم الذي لا اله إلا هو وأنهم سالكون طريق الحياة كادحون فيها إلى ربهم كدحاً فملاقوه في يوم عظيم، وأنهم يمرون في هذه الحياة على أساس أنها مزرعة لحياة أعظم فهي منزل من منازل الطريق إلى تلك الحياة وأنَّ مهيئات الغرور فيها كثيرة حتى عادت لا حقيقة لها إلا الغرور فعليهم الوعي والتفكير والتأمل فيدركوا من أين أتوا؟، وفي أي طريق هم؟، وإلى أين هم سالكون؟، وهذا المعنى انسب إلى لفظ النبي منه الرسول باعتبار أنَّ النبي هو الذي استقر عنده النبأ دون الرسول.

كما أنَّ في إسناد بعث النبيين إلى الله سبحانه دلالة على عصمة الأنبياء في تلقيهم الوحي وتبليغهم الرسالة الى الناس وأما التبشير والإنذار فهما أحسن مراتب الدعوة بحال الإنسان العادي وإن كان بعض الصالحين من عباده وأوليائه تتعلق نفوسهم بالله تعالى حباً فيه لا طمعاً وخوفاً.

و قد تبين من الآية أمور:

أوّلاً: حقيقة الدين وأنّه مجموعة من القوانين العملية التي تبتني على أساس عقائدي يؤدي تطبيقها إلى صلاح الدنيا والآخرة.

ثانياً: إن ظهور الدين إنما كان لرفع الاختلاف الناشيء عن الفطرة ثم قام

بوظيفة رفع الاختلاف الفطري وغيره.

ثالثاً: إنَّ الدين تدرج في العطاء حتى استوعبت قوانينه كل حياة الإنسان وعندها تختتم مسيرته، وبالتالي فإنَّ الدين الخاتم يكون الدين المستوعب.

رابعاً: وعليه فكل شريعة لاحقه تعتبر أكمل من سابقتها.

خامساً: إنَّ الإنسان في نفس الوقت الذي يجد نفسه فيه ميالاً للاجتماع تدفعه غرائزه للاستئثار والتفرد، ولما كانت الفطرة هي سبب هذا الاختلاف فلن نضمن أنها تستطيع رفع هذا الاختلاف فكانت النبوة هي الوسيلة التي أنعم الله بها على الإنسان لتقويم حياته وإشباع متطلبات غرائزة إشباعاً متوازناً للوصول به إلى الكمال الواقعي موازناً بين كماله التشريعي والتكويني.

بمعنى أن الإصلاح يجب أنْ يكون من مستوى أعلى من الأسباب التي أدت إلى الاختلاف وهذا بالضبط ما يقوم به الوحي ومن هنا بالضبط يتوضح الدليل الأصيل على وجوب بعثة الأنبياء بصورة عامة وتتوضح لك مراحل هذا الدليل إذا ما راجعت الموضوع مره ثانية بدقة.

أمّا البحث عن قدرة النبوة على تحقيق هذه المهمة فهو بحث يحتاج إلى ملاحظة مصدر الوحي واطلاعه وشمول علمه لكل الجزئيات والكليات ومقارنة التعاليم جاء بها الأنبياء إلى باقي التعاليم، وملاحظة ما أنتجته التجربة الإسلامية الحية من عطاء في سني تطبيقها الأولى حتى أنّه يمكن أن نرجع كل عوامل في مختلف مجالات الحياة الإنسانية إلى الأنبياء وهذا بحث له محله.

سادساً: إنَّ الكمال الإنساني المعنوي الذي يحققه آخر الأديان هو أقصى كمال متصور له وهذا ما نجده واضحاً من خلال هذه القرون المتمادية، فإنَّ الإنسانية مهما ارتقت في معارفها فإنها لم تستطيع أنْ تجد كمالاً وتعاليم تؤدّي إلى مرتبة أعلى

من ذلك ومن هنا فلا مجال للمعترضين على خلود الإسلام بأن ذلك يتنافى والتطور المادي للإنسان فقط إذ فات هؤلاء إنَّ الدين لم ينظر إلى الكمال المادي للإنسان فقط بل إلى كمال الوجود الإنساني.

و نحن نحيل هؤلاء لأنْ يفترضوا مجتمعاً تمسك بكل التعاليم الدينية الأصيلة اليوم ليلاحظوا بدقة مدى الرقي المعنوي ومدى الطاقات الدافعة منه للرقي المادي أيضاً.

سابعاً: عصمة الأنبياء عن الخطأ.

المجتمع والتاريخ

❐ الأستاذ الشهيد مرتضى المطهري

كتب هذا البحث الشهيد مطهـري فـي حياتـه ولـم يكتمل حسب ما ذكره بعض المختصين في آثـار الشـهيد مطهـري، وقررنـا إعـادة نشـره توخيـاً للفائدة خصوصاً أنه بيد الاستاذ المعلم.

بين يدي الكتاب

يعالج الشهيد مطهري رضوان الله عليه من خلال هذا الكتاب عدداً من المسائل المتعلقة بالمجتمع والتاريخ مستعرضاً فيها الأصول والقوانين الكبرى التي تتحكم في بناء المجتمعات البشريّة وفي مسيرة تاريخ البشر، بوصف ذلك جانباً مهما من الثقافة الإنسانية بشكل عام ومن الثقافة الإسلامية بنحو خاص، استدعى الحرص على بحثه وإيضاحه حرصاً على تعميق المستوي الثقافي للإنسان المسلم وعلى تثبيت علاقته بالأيديولوجية الإسلامية.

و رفع مستوي التصدي للأفكار المعادية للإسلام، ولن يكون عرض هذا الكتاب من باب الترف الفكري في هذه المرحلة من الهجمة العسكرية والسياسية على البلدان الإسلامية بعد فشل الهجمة الفكرية الحادة قبل هذه المرحلة، وما ذلك إلا لأن الفكر يبقى دائما سلاحاً مهماً في كل معركة لا أقل من أجل تثبيت الذين آمنوا وزيادة بصيرتهم، ووضع الحجة أمام الدين لا تزال تستهويهم الطروحات الفكرية المنمقة للمدارس الفكرية الأجنبية.

و نحن إذ نختار كتاباً للشهيد مطهري فلأنه علم من أعلام الفكر الإسلامي ومنار من مناراته أثرى المكتبة الإسلامية ببحوثه الموسعة العميقة، وكوّن جيلاً إسلامياً جيد الثقافة، وكان نضاله الفكري قبل الثورة الإسلامية حاجزاً كبيراً أمام اندفاعه الأفكار الأجنبية وتمكنها في عقول الشباب المسلمين، كما كان بعد الثورة عاملاً مهماً من عوامل تثبيتها والدفاع عنها، لذا نأمل أن ننتفع ببحوثه القيمة على طريق إقامة دولة الإسلام العادلة بتوفيق الله تعالى.

المدخل

ليس للدين الإسلامي نظرية خاصة في علم الاجتماع ولا في فلسفة التاريخ، لذا فان ما ورد في القرآن الكريم من بحث اجتماعي أو تاريخي لم يرد في إطار المصطلحات الخاصة لعلمي الاجتماع والتاريخ.

و قد جمعنا في هذا الكتاب بين المباحث المتعلقة بالمجتمع والأخرى المتعلقة بالتاريخ بسبب ترابطها، هادفين إلى استعراض النظرة الإسلامية حولها لما لهذه المسائل من موقع هام ومن دلالة على غاية عمق الفكر الإسلامي.

القسم الأول: في المجتمع

المسائل المطروحة على مائدة البحث كما يلي:

١ـ ما هو المجتمع.

٢ـ هل الإنسان اجتماعي بالطبع.

٣ـ هل الأصل هو الفرد أم أن الأصل هو المجتمع أو أن هناك فرضاً ثالثاً.

٤ـ المجتمع والقانون.

٥ـ الجبر والاختيار الاجتماعيين وموقع الفرد منها.

٦ـ الطبقات الأولية التي ينقسم إليها المجتمع.

٧ـ هل المجتمعات البشرية نوع واحد أو أنواع مختلفة من خلال الظروف المناخية والثقافية التي تعيش فيها، فتحتاج- حينئذٍ- إلى نظام واحد أو إلى أنظمة متعددة.

٨ـ هل المجتمع البشري يسير إلى التلاحم والوحدة في مجتمع عالمي واحد، أو أنه محكوم بالاختلاف إلى الأبد.

و فيما يلي بحثاً مختصراً حول كل منها حسب الترتيب المذكور:

١ـ ما هو المجتمع

المجتمع هو كل مجموعة بشرية يحصل بين أفرادها الترابط في الأنظمة والتقاليد والآداب، يعيشون في منطقة واحدة ويستفيدون من بيئة واحدة.

فالحوائج المشتركة والروابط الحيوية توحد الحياة البشرية وتكون منها مجتمعاً يجعل أفراده كالسائرين في قافلة واحدة لهم مصير واحد وظروف واحدة.

٢ـ هل الإنسان اجتماعي بالطبع:

إن الذي دفع الإنسان ليكون فرداً في مجتمع ليس التعاهد، فهو يميل، بطبعه إلى رفض القيود التي تستلزمها الحياة المشتركة ليشعر بالاضطرار لإشباع حاجاته إلى العيش في مجتمع والتعاهد مع أفراده على قضاء هذه الحاجات بنحو تكون الحياة الاجتماعية غاية ثانوية للإنسان، كذلك لم يكن الدافع هو التعاقد على الاشتراك في حياة واحدة لكونها أثر فائدة بنحو يكون الهدف من الحياة الاجتماعية شبيهاً بالغرض التجاري؛ بل إن الحياة الاجتماعية مطلب فطري للإنسان مركوز في جبلته لا يتحقق تكامله ولا سعادته إلا من الآيات الكريمة، قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ وقال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا**﴾ وقال تعالى: ﴿**أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ**﴾.

٣ـ هل المجتمع الأصيل في وجوده أم لا:

من الواضح أن المجتمع لا يتكون إلا من الأفراد، ولكن ما هي طبيعة هذا التركب... ولأيها ينسب الوجود الأصيل كي يكون هو محط النظر والاهتمام، فهنا

يمكن إبراز عدة نظريات:

الأولى: تعتبر أن الوجود الحقيقي والأصيل إنما هو للأفراد... والمجتمع ليس إلا عنواناً اعتباريا واسما لارتباط هؤلاء الأفراد ببعضهم، وليس تركب المجتمع من أفراد من قبيل تركب الماء من عنصري الأوكسجين والهيدروجين، لأن المركب الطبيعي يستدعي ذوبان الأجزاء في الكل ليصير الكل ماهية جديدة، والأفراد لا يذوبون في المجتمع ليكون المجتمع مركباً طبيعياً كالماء. وهذه النظرية تذهب إلى أصالة الفرد.

و ثمة وجه آخر لهذه النظرية يعتبر أن الأفراد للمجتمع كالأجزاء للسيارة، فإن كل قطعة من القطع لا تؤثر منفصلة عن غيرها... وهي في نفس الوقت لا تذوب في الكل وتنعدم، بل من أجل أن تحقق السيارة غرضها لابد أن تتساعد الأجزاء مجتمعه بما لكل جزء فيها من علاقة بالجزء الآخر، وهكذا المجتمع فالأفراد لا بد أن يكونوا مجتمعين ليحققوا المجتمع... بعد أن يأخذ كل فرد موقعه ودوره في آلة المجتمع، فتركب المجتمع هنا من أفراد إنما هو على نحو المركب الصناعي، فهذا الوجه لنظرية أصالة الفرد يعتبر أن الوجود الأصيل إنما هو للفرد لا باستقلاله كالوجه الأول وإنما هو له ملاحظة ارتباطه بالأفراد الآخرين... على نحو ارتباط أجزاء الآلة ببعضها.

الثانية: تقول إن تركيب المجتمع تركيب حقيقي فوق التركيبات الطبيعية، فإن الإنسان قبل الاندراج في سلك المجتمع ليست له هوية إنسانية بل هو مشروع إنسان بما يملك من قابلية التلبس بالروح الجماعية، وذلك لأن كل مميزات الإنسان من أحاسيس وميول وأفكار وعقائد وعواطف إنما تبرز تحت إشعاع الروح الجماعية، والتفاعل والتأثير الروحي والثقافي بين الأفراد إنما يتم بسببها بنحو لا

تتحقق قبلها، حيث يكون الوجود الاجتماعي للإنسان شرط أساسي لتكون الشؤون النفسية للفرد وإمكان دراستها. وهذه هي نظرية أصالة المجتمع.

الثالثة: إن المجتمع مركب حقيقي طبيعي مثل مركب الماء، ولكنه مركب من نفسيات الأفراد وميولهم وأفكارهم، فهم يدخلون في نطاق المجتمع وهم يحملون مواهبهم وتجاربهم ثم يدمجون مع بعض بنفوسهم ونفسياتهم فتتحقق نفس جديدة يعبر عنها بالروح الجماعية، فكما للفرد أصالته ووجوده كذلك للمجتمع أصالته، حيث إن للأفراد تميز على صعيده كفرد، كذلك هو يكتسب شيئاً جديداً عندما يصبح في مجتمع... فتحدث ظاهرة جديدة واقعية ليكونوا مجتمعاً تسري في أفراده روح جماعية زائدة على ما عند الأفراد مستقلين، وهذه هي نظرية..

أصالة الفرد والمجتمع معاً

و القرآن الكريم يؤيد هذه النظرية حيث يرى للأمم مصيراً مشتركاً وإدراكاً وشعوراً وعملاً وإطاعة وعصياناً وهذا يعني وجود نوع من الحياة للمجتمع ليست هي مجرد استعارة بلاغية بل حقيقة واقعية كما يعني في نفس الوقت وجود موت اجتماعي، قال تعالى: ﴿ **وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ** ﴾ و﴿ **كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا** ﴾ و﴿ **زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ** ﴾ و﴿ **وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ... فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ** ﴾.

وكذا نلاحظ النظرية في الآيات التي تعرضت لمؤاخذة الأمة بذنب الفرد عند موافقتها عليه كما في قصة عاقر ناقة صالح، وكذلك مؤاخذة الأمم والأقوام التي ألجأتها التعصبات المذهبية أو القومية للتفكر والسير على هدى روح اجتماعية واحدة.... مثل الآيات المتعلقة باليهود والأعراب ونحوهم من الأمم السالفة.

٤ـ القوانين التي تتحكم بالمجتمع:

الواقع أن ـ بناءاً على النظرية الثالثة ـ الإنسان يعيش بحياتين: حياة فردية فطرية ناشئة من الحركة الجوهرية في الطبيعة وحياة اجتماعية ناشئة من التمدن والعيش ضمن المجتمع.. وهي في نفس الوقت حالة في الحية الفردية، فالإنسان حينئذ محكوم لقوانين علم النفس ومحكوم لقوانين علم الاجتماع، لذا لا بد من القول بوجود قوانين وسنن تتحكم بالظاهرة الاجتماعية وتضبط مسيرتها حيث يكون المعول عليها في دراسة مشاكل المجتمع وشؤونه لوضع العلاج المناسب، ولعل أول من صرح بذلك من علماء المسلمين عبد الرحمن ابن خلدون ومن علماء الغرب الفيلسوف الفرنسي مونتسكيو.

و في القرآن الكريم تصريح بأن الأمم والمجتمعات لها سنن وقوانين تخصها تكون هي العلة في سقوط المجتمعات ونهوضها، ولولا ذلك لم يكن للأفراد مصير واحد مشترك، ويظهر هذا في الآية الكريمة: ﴿ **وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا (٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (٦) إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (٧) عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا** ﴾.

فقوله تعالى ﴿ **وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا** ﴾ بلحاظ خطابة القوم والأمة دون الأفراد يدل على أنه قانون وسنة عامة للمجتمعات.

٥ـ الجبر والاختيار الإجتماعيين:

و هذا البحث يرتكز علي تحديد مدي حرية الفرد وجبره أمام مقتضيات المجتمع وقوانينه، والذي يظهر أنه عند القول بأصالة الفرد لابد من القول باختيار الفرد وحريته على نحو الإطلاق.... لأن وجود المجتمع ليس إلا اعتباريا عديم القيمة والأثر، وبناءاً على أصالة المجتمع والتي تعني ذوبان الفرد تماماً في المجتمع فإنه لا بد من القول بالجبر الفردي ما دام الفرد مسيراً وخاضعاً للبيئة الاجتماعية، وما ذلك إلا لوقوع القائلين بأصالة المجتمع في إشكال التركب الحقيقي الواقعي للمجتمع من أفراد لذا فإن ما سوف يسري على الجميع فإنه لابدَّ أن يسري على الأفراد ما دام سريانه في الجميع يحتم سريانه في الأفراد والأجزاء، وهذا القول له بديل هو النظرية الثالثة التي غفل عنها أمثال هؤلاء والتي تعتبر لكل من الأفراد والمجتمع وجود مستقل وفي نفس الوقت واقعي وحقيقي، وذلك لأن الإنسان يتمتع بالعقل والإرادة في وجوده الفردي والطبيعي قبل وجوده الاجتماعي وحيث إن الاستقلال النسبي للأجزاء في المراتب الراقية من الطبيعة (مثل الإنسان) محفوظ. لذا فإن روح الإنسان الفردية ليست مجبرة أمام الروح الاجتماعية، والجبر الذي يقول به (دوركايم)، صاحب النظرية الثانية (أصالة المجتمع) إنما يقوله غفلة عن أصالة الفطرة في الإنسان الناشئة من تكامل الإنسان بجوهره في الطبيعة والتي تمنحه نوعاً من الحرية أمام مقتضيات المجتمع.

والقرآن الكريم يقول باستقلال المجتمع ووجود قوانين خاصة به وفي نفس الوقت يصرح بقدرة الفرد على عصيان هذه القوانين واختراقها، ومن الآيات قوله تعالي: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ**﴾ وقوله تعالى: ﴿**أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن**

﴿بَعْدِهِمْ﴾. مضافاً إلى أن التعاليم القرآنية كلها مبنية على مسؤولية الانسان عن نفسه وعن مجتمعه، وليس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... ووقائع قصص الأنبياء في دعوة أممهم... ليس ذلك إلا من باب ثورة الفرد على فساد المجتمع وطغيانه ومحاولة إصلاحه وتغييره.

٦ـ الطبقات الاجتماعية:

المجتمع مع انه يتمتع بنوع من الوحدة ينقسم في نفسه إلى طوائف وطبقات وأصناف مختلفة وقد تكون متضادة وهذه مسألة متفق عليها بين المفكرين، ولكن وقع الخلاف في نوعية هذه الطبقات وطبيعتها وفي منشأها وفي عددها وفي ذلك نذكر نظريتين:

الأولى: النظرية المادية القائمة على الديالكتيك والتي تحصر المجتمع غير الشيوعي في طبقتين الحاكمين المستغلين لأدوات الإنتاج وما يتبعها من أفكار وفلسفة وأخلاق ودين وطبقة المحكومين المستغلين، فالعامل الاقتصادي هو الذي سبب هذا الانقسام وانعكس على جملة ما في المجتمع الشيوعي لا وجود إلا لنوع واحد هو كل المجتمع من دون طبقات، وقد فسر بعض المتأثرين بالماركسية وأفكارها المادية الرأي الإسلامي في هذه المسألة على هذا الأساس واعتبر أن القرآن يقسم طبقات المجتمع على أساس العامل الاقتصادي من خلال اعتباره مظاهر الانحراف والظلم تابعة للترف والإسراف والغنى الذي تمثله فئة معينة هاجمها القرآن باستمرار في الوقت الذي عطف على المستضعفين وأعطاهم صفات الإيمان والاستقامة. غير إن هذا الرأي ليس صحيحاً وسوف نتعرض له بالتفصيل ولهذه المسألة عامة في مباحث التاريخ اللاحقة إن شاء الله تعالى.

الثانية: النظرية التي تقول: إن وحدة الطبقة وتكثرها في المجتمع لا يتبع

الملكية الفردية فحسب بل هناك عدة عوامل يمكن أن تؤثر في ذلك كالعامل الثقافي والاجتماعي والعنصري أو العقائدي، وبالخصوص العامل العقائدي والثقافي فإن له تأثير كبيراً في تقسيم المجتمع لا إلى طبقتين فحسب بل إلى طبقات متضادة.

و سوف يأتي تفصيل لهذا الأمر في بحث المادية التاريخية المتعلقة ببحوث التاريخ.

٧-٨ وحدة وماهية المجتمع ومستقبل المجتمعات

وحدة المجتمعات من المسائل المهمة التي ينبغي بحثها عند كل مدرسة اجتماعية. وحتى يستثنيان مكان افتراض ايديولوجية واحدة لجميع المجتمات البشرية ومن ثم الاستبشار بمستقبل زاهر للجميع العالمي تسوده العدالة والرخاء.

إن بحوث علم الاجتماع بإمكانها إبداء الرأي حول وحدة المجتمعات من خلال البحث في اشتراكها في مجموعة من الخواص الذاتية، وأن ليس الاختلاف بينها إلا في أمور ظاهرية معلولة لما هو خارج عن ذات المجتمع وطبيعته، وهذا وقد قلنا ـ فيما سلف- إن الإنسان اجتماعي بفطرته بحيث ينبع تقبله للروح الاجتماعية من خصوصيّته الذاتية والنوعية، هذه الفطرة التي تجعله ميالا للتمدن والوصول إلى الكمال المناسب، وإذا ثبت هذا وسرى في جميع أفراد البشر فهو لابد أن يثبت وحدة المجتمع الذي يتشكل من هؤلاء الأفراد ما دامت الروح الجماعية تعتمد على الروح الفردية والفطرة الإنسانية، وعندما تنحرف الأفراد ويصبح الانحراف فاشياً وظاهره اجتماعية فان ذلك يعني مجافاة الفطرة والخروج على قوانينها ويوجد عند ذلك المجتمع الصالح والمنحرف مثلما يوجد الفرد الصالح والمنحرف من دون أن يطعن ذلك في وحدة الماهية الاجتماعية في قوانينها العامة... في جانبيها المظلم والمضيء.

و التعاليم الإسلامية تذهب إلى وحدة الدين مطلقاً وأن اختلاف الشرائع من قبيل الاختلاف في الفروع لا الماهية وحيث إن الدين نظام لتكامل الأفراد والمجتمعات فهو يعني أن تعاليمه تبتني على وحدة النوعية للمجتمعات، إذ لو كانت متعددة النوعية أدى ذلك إلى اختلاف الدين وتعدده، وقد قال تعالى: ﴿ **شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ** ﴾.

و على هذا فهل تسير البشرية نحو حضارة وثقافة موحدة ومجتمع موحد؟

الجواب بالإيجاب هو النتيجة الطبيعية للأبحاث السابقة ما دامت القوانين التي تحكم مسيرة المجتمعات واحدة، وأن مستقبل المجتمعات البشرية هو المجتمع العالمي الموحد الذي يصل فيه الإنسان إلى كماله الحقيقي وسعادته الواقعية، إذ أن القرآن الكريم يرى أن الحكومة النهائية للحق وأن الباطل سوف يفنى تماماً والعاقبة للمتقين.

القسم الثاني: في التاريخ

ما هو التاريخ:

للتاريخ ثلاثة علوم مترابطة

١ـ العلم بالواقع: وهو مجرد نقل الأحداث التي وقعت في زمن مضى، وهو من العلوم الجزئية العائدة إلى العلم بمجموعة من الأمور الشخصية والفردية. ويصطلح عليه بـ(التاريخ النقلي).

٢ـ العلم بالقواعد والسنن المهيمنة على حياة الماضين حسبما يستفاد من النظر والتحقيق في الوقائع الماضية، وموضوع البحث فيه وأن كان الحوادث الماضية إلا انه يمكن تعميم ها يستنبط منها على الحاضر والمستقبل، وهو من العلوم الكلية وفصل من الفصول علم الاجتماع لكونه دراسة للمجتمعات السابقة والقوانين التي حكمتها ويسمي (التاريخ العلمي).

٣ـ فلسفة التاريخ: وهو العلم بحركة المجتمعات وتحولها من مرحلة إلى أخرى والقواعد الحاكمة على هذه التطورات. ففي التاريخ العلمي تدرس عدة أحداث في ظرف معين لتحليلها والاعتبار بها فهو دراسة ما كان وعلمه علم الأكوان. وفي فلسفة التاريخ يدرس انتقال المجتمع من مرحلة إلى مرحلة وتطوره إليها ضمن ما أنجزه التاريخ العلمي من تحليل لجملة الوقائع التي كونت المرحلة فهو علم التطورات، وهو يتلازم مع التاريخ العلمي بدرجة كبيرة، وإنما سمي تاريخاً ـ مع

خلوه من الوقائع ـ فلأنه يبدأ دراسة المراحل من الماضي إلى الحاضر والمستقبل وعلم التاريخ مفيد بجميع معانيه الثلاثة، إذ الإنسان كما سيستفيد من المعاصرين له فهو يستفيد من الماضين بنفس القدر، وقد الفت القرآن الكريم إلى ذلك عدما شجع على قراءة قصص الماضين والاعتبار بها.

و المسائل التي نبحث عنها هنا بالتاريخ العلمي وفلسفة التاريخ. لأن هذين هما المؤثران في الفكرة العامة عن الكون وموقع الإنسان فيه، كذلك لابد من التذكير بالارتباط بين هذه المباحث وبين ما سبق بحثه في قسم المجتمع إذ أن قوام هذين النوعين من علم التاريخ على مسألة أصالة المجتمع والاعتقاد بأن وجود خاضع لقوانين واقعية وإلا لم يمكن استخلاص قواعد كلية لفلسفة التاريخ والتاريخ العلمي.

و هنا ثلاثة مسائل تتعلق بالتاريخ العلمي سوف يتم بحثها حيث تعتبر بمثابة الأساس لنهوض هذا العلم، اذ انه لا بد من التحقيق اولا في مدى الاعتماد على التاريخ النقلي الذي يشكل المادة الخام للتاريخ العلمي، كذلك لا بد من الاعتقاد بصحة قانون العلية فلسفياً كي يستثني استعماله في استنباط القواعد الكلية بعد التسليم بوجود التأثير والتأثر للأحداث ببعضها، كذلك لابد من حسم مسألة العامل المؤثر في التاريخ انه هل هو مادي محض أو معنوي محض أو مزدوج مركب منها، وهذا ما سوف يبحث ضمن العناوين التالية:

ا ـ اعتبار التاريخ النقلي:

ثم من يبالغ في إساءة الظن بالتاريخ، فيعتقد أن جميع ما ينقل فيه من مجعولات الناقلين الذين حرفوا الحوادث ووضعوا الأكاذيب على أساس الأغراض الشخصية والعصبية والمذهبية، وهناك من لا يسيء الظن ولكنه فضل اعتماد

الشك منهجاً في دراسة أحداث التاريخ (بسبب عدم وجود حقيقة تاريخية عينية نظراً لتدخل الأشخاص والعقائد الخاصة في الاستنتاجات التاريخية)

لكن الصحيح انه وإن لم يمكن الاعتماد على ما ينقل بنحو مطلق إلا انه ثمة معلومات قطعية تعد من نوع البديهيات. حيث من الممكن إجراء التحقيق العلمي بالنسبة إليها، مضافا إلى انه يمكن الاعتماد على الاجتهاد في تحقيق غير القطعيات والصول إلى نتائج ذات قيمة.

٢ـ العلية في التاريخ:

ظن قوم أن الالتزام بقانون العلية في الأحداث التاريخية وتعميمها يستدعي القول بالجبر وخضوع التاريخ في قوانينه للحتم والجبر حتى يصلح تعميمه، وأن الالتزام بعدم الجبر يستدعى إنكار قانون العلية وعدم تعميم قواعد التاريخ، لذا فان معظم علماء الاجتماع جزموا بعدم إمكان الجمع بين قانون العلية والحرية .... فاختاروا العلية وأنكروا الاختيار.

إن هيجل يذهب إلى أن الضرورة عمياء إلا إذا فهمت وأدركت، والحرية ليست هي الاستقلال المتبنى تجاه قوانين الطبيعة بل الحرية هي معرفة هذه القوانين والتمكن من استخدامها حسب الأصول لتحقيق الأهداف المعينة. وأن الإنسان في ظل الأوضاع التاريخية الخاصة وعند سيره باتجاه مسيرة التاريخ يمكنه مباشرة أعماله ويكون مستقرا في مسيرته، وعند السير في عكس وجهه التاريخ يعرض نفسه للفناء والبعثرة.

غير إن هذا لا يحل المشكلة عند القائلين بالجبر، لأن المبحوث عنه هنا هو ما قبل الوقوع في مسيرة التاريخ... فهل هو حر في هذا الوقوع أو عدمه أو انه ليس كذلك، وإلا فإنّه بعد الوقوع تصبح ضرورة مسايرتها بديهية والبديل هو الفناء،

وهو يشبه الواقع من شاهق فانه قبل الوقوع هل هو مخير في أن يرمي نفسه أو ليس مخيراً وإلا فإنه بعد الوقوع لا شك في انه مجبر على الاستمرار في السقوط بمقتضى قانون الثقل.

و حينئذ فماذا تفيده المعرفة... وما هو معنى أن الحرية هي في معرفة مسار التاريخ، فإنَّ العالم بأنه سوف يسقط إذا رمى نفسه من شاهق هل يعني ذلك انه حر في استمراره في السقوط.

و الحقيقة أن حرية الإنسان تكمن في فطرته واحتوائه على البعد الوجودي الذي يمنح الإنسان شخصيته الإنسانية المميزة ويحكمه على التاريخ فيكون هو الذي يعين مسيرة التاريخ ليقع مختاراً وعندها لا تنافي بين الحرية بهذا المعنى وبين قانون العلية وعمومية قوانين التاريخ... ما دام التاريخ سوف يسير ضمن إرادة الإنسان ونوع اختياره لطريقة حياته، وإن كان لن يتمكن من الخروج عن هذه القوانين ما دامت ناتجة عن الأسباب التي صنعها.

و عندما تقع حادثة جزئية وتغير قانوناً تاريخياً... مثل موت الاسكندر بعضة قرد وهزيمة جيشه وتبدل أوضاع كثيرة.... إن حدوث مثل ذلك لن يسلب التاريخ سننه التي يسير عليها ليصبح محكوماً لأحداث جزئية تقع بطريقة الصدفة، بل إن السر في ذلك أن مجري الأحداث حينئذ لا يكون سائراً من الأساس على وفق القانون التاريخي ويكون خاضعاً في تكوينه لأمر جزئي... لذا فنحن نعتقد أن للتاريخ طبيعة وشخصية مستقلة وأنها تحصلان نتيجة التركيب الخاص في الشخصيات الإنسانية التي تطلب التكامل بالفطرة... ومعه لن تضر الحوادث الاتفاقية بعمومية التاريخ وضروراته.

٣ـ هل التاريخ بطبيعة مادي..

يعتبر التساؤل عن طبيعة التاريخ الأصلية وأنها هل هي مادية أم معنوية أم ذو طبيعة مزدوجة من أهم مسائل التاريخ، مع ملاحظة أن الجميع يقرون باشتراك عناصر مختلفة من شتى الأمور المادية والمعنوية في التأثير في حركة التاريخ ومسيرته... غير إن البحث تركز على ما له الأولوية والتقدم في ذلك التأثير بنحو يكون واحدا منها موجها ومفسرا لسائر العوامل.

و قد برزت في عصرنا نظرية جديدة جذبت نحوها كثيراً من الأنظار واشتهرت بالمادية التاريخية والتي تذهب إلى أن الأساس الحركات والنشاطات والمظاهر والتجليات التاريخية في كل مجتمع هو النظام الاقتصادي لذلك المجتمع، وهي تقوم على نظرية الديالكتيك المشهورة التي تفسر وجود التاريخ، وهذا يعني أن المادية التاريخية تتضمن أمرين احدهما: إن هوية تاريخ وطبيعته مادية وثانيهما أن وجوده وحركاته ديالكتيكية جدلية.

و المادية التاريخية لها أصول فلسفية ونفسية واجتماعية، وترتبت عليها نتائج هامة، وترانا ملزمين ببحث هذه الأمور سيما بعد تأثر جملة من المثقفين المسلمين بها وذهابهم إلى إيمان الإسلام بها وإن لم يؤمن بالفلسفة المادية.

أ ـ أصول المادية التاريخية:

الأصل الأول: أولوية المادة وفاعليتها:

فان الأمور النفسية ليست أصيلة بل هي مجرد مجموعة من انعكاسات خارجية على الدماغ والأعصاب، وليس لها دور إلا ربط القوى المادية الداخلية بالعالم الخارجي، ولكنها لا تعد أبدا قوة في قبال القوى المادية المتحكمة بوجود الإنسان، إذا الأمور النفسية مثل مصباح السيارة لا تسير السيارة في الليل بدونه وهو في نفس

الوقت متولد منها، وأن مثل الفكر والإيمان والعقيدة تساعد التاريخ في حركته ولكنها لا توجد ـ بنفسها- حركة فيه، وليس في الإنسان قوى غير القوى المادية.

الأصل الثاني : أولوية الحاجات المادية :

تذهب الفلسفة المادية إلى أن الحاجات المادية اولى وأهم من الحاجات المعنوية، وليس معنى ذلك أن الانسان يحاول اشباع الحاجات المادية اولا ثم ينصرف لاشباع الحاجات المعنوية، بل ان الحاجات المادية اساس الحاجات المعنوية ومنبعها، اذ ان الانسان قد خلق اساساً بحاجاته المادية لتصبح الحاجات المعنوية اداة لرفع الحاجات المادية وتحسينها، والانسان في كل مرحلة من مراحل تطور وسائل الانتاج تتغير حاجاته المادية لتتغير معها حاجاته المعنوية تبعاً لها.

الأصل الثالث : تقدم العمل على الفكر :

تبتني المادية التاريخية على اصالة العمل وتقدمه على الفكر، حيث تري ان العمل مفتاح الفكر ومقياسه وان جوهر الانسان عمله الانتاجي وأساس المعرفة عنده، اذ ان الانسان منذ بدء الخليقة قد تغلب على عوارض الطبيعة بالعمل الشاق بدل مواجهتها بفكره.

الأصل الرابع : تقدم الوجود الاجتماعي :

حيث ان الانسان عندما خلق كان فاقداً لكل شيء ثم بدأ يكسب بعده الفكري والفلسفي والعلمي والأخلاقي من مجموعة التجارب والتعاليم التي عايشها، وهذه بأجمعها معلولة في وجودها لعوامل اجتماعية، اذ ان صانع شخصية الانسان والذي يخرجه من حالة الشيئية إلى حالة الشخصية هي العوامل الاجتماعية الخارجية، وليس في ذات الفرد شيء ابدا له استقلالية في التأثير على الحياة الانسان.

الأصل الخامس : تقدم الأصل المادي للمجتمع

كما ان الفكر البشري على صعيد الأفراد محكوم لقوى الانتاج فكذلك المجتمع محكوم للعامل الاقتصادي من خلال قوى الانتاج، فكل ما في المجتمع من مؤسسات وجميع ما له من نشاطات تابع في كل مرحلة من مراحله لتطور أدوات الانتاج، وان كيفية الانتاج ما دام هو مظهر نشاط الانسان امام الطبيعة فإنه في الوقت ذاته الضمان الفوري لمستقبل انتاجه الحيوي، وبعد ذلك هي مظهر الوضع الاجتماعي والمفاهيم الفكرية التي تنشأ فيه، وان الروابط القضائية والأشكال المختلفة للدولة لا توجد بنفسها ولا من التحول العام للفكر البشري بل تستمد جذورها من الأوضاع المادية الموجودة.

و العامل الاقتصادي الذي يحكم المجتمع يشتمل على أمرين: وسائل الانتاج التي هي محصول علاقة الانسان بالطبيعة وعلاقات الانتاج على صعيد توزيع الثروة وعلاقات الانتاج هي انعكاس لدرجة نمو وسائل الانتاج، ومع هذا الترابط القائم بينهما فان علاقات الانتاج تعتبر سداً ومانعاً امام حركة وسائل الانتاج، حيث يتحقق التناقض بينهما لتتغير علاقات الانتاج إلى علاقات جديدة متناسبة مع الوسائل الجديدة... ومعه تنقلب جميع ابنية المجتمع من حقوق وفلسفة وأخلاق ودين.

و يولي ماركس أهمية كبيرة للعمل الاجتماعي، ويعتبر أساس فلسفته القائمة على قاعدة (انا اعمل فأنا موجود)، حيث يبرز من خلال هذا جوهر الانسانية وواقعيتها الوجودية، وهو يختلف عن غيره من الماديين، فهم يقولون: إن جوهر الإنسان الواقعي ليس إلا تركيبه البيولوجي المادي، بينما يرى ماركس ان جوهر الانسان ليس في الطبيعة بل في المجتمع، والذي يتشكل في الطبيعة هو الانسان بالقوة لا الانسان بالفعل.

ب - النتائج:

و قد ترتب على المادية التاريخية نتائج عديدة:

النتيجة الأولى: ترتبط بمعرفة التاريخ والمجتمع

اذ تعتبر المادية التاريخية ـ بعد التسليم بها ـ احسن الطرق وأقربها إلى الواقع في تحليل الحوادث التاريخية والاجتماعية من خلال درس الأسس الاقتصادية التي تؤثر فيها، لأن المفروض ان جميع الحوادث الاجتماعية اقتصادية في ماهيتها وان كانت بحسب الصورة ذات ماهية مستقلة ثقافية او دينية او اخلاقية ومن ثم فهي انعكاسات عن الوضع الاقتصادي للمجتمع.

النتيجة التالية: جبرية القوانين التاريخية

بمعني ان وسائل الانتاج تستمر في تطورها وفقاً لسلسلة من القوانين الطبيعية، ولدي وصولها إلى كل مرحلة تغير جميع الشؤون الاجتماعية قهراً، فهي قبل وصولها لمرحلة خاصة من نموها لا يمكن حدوث تطور في البناء العلوي للمجتمع.

و ان كشف القوانين الاجتماعية وفلسفة التاريخ والتعرف عليها لا يغيران شيئاً من المجتمع، الا ان لها قيمة عالية من حيث امكان التنبوء بواسطتها لمعرفة المرحلة المقبلة التي سوف يولدها التطور، وذلك من اجل المساهمة في انجاح عملية الانتقال... كما تساهم القابلة في انجاح المرأة على خروج ولدها.

النتيجه الثالثة: اختلاف المراحل:

فإن كل مرحلة يتطور اليها المجتمع تختلف عن المرحلة السابقة في الماهية والنوعية، وأن كل مرحلة تتحكم فيها سلسلة من القوانين مختلفة تماماً عن القوانين التي حكمت المرحة السابقة، ومن هنا فانه بناءاً على المادية التاريخية كل قانون يدعى الأبدية مرفوض...

ما دامت وسائل الانتاج في تطور، وهذا مناف لما تقول به الأديان عموماً والإسلام خصوصاً.

النتيجة الرابعة : تفسير نشوء الطبقات :

إذ أن تطور وسائل الإنتاج كان السبب في حصول الملكية الخاصة التي أدت إلى انقسام المجتمع إلى طبقتين: الطبقة الحاكمة المستثمرة والطبقة المحكومة المستثمرة، وهذا الانقسام كما يسري على الهيكل الاجتماعي يسري على الوجدان الاجتماعي ويقسمه بدوره إلى وجدان مستثمر (بالكسر) وإلى وجدان كادح لتكون لكل طبقة نظامها الخلقي والفلسفي، والطبقة الحاكمة ذات فكر رجعي محافظ يؤمن بالتقاليد وينظر إلى الماضي، أما الطبقة المحكومة فذات فكر ثوري هادم وتقدمي.

النتيجة الخامسة : الوصول إلى الحالة الثورية :

إن الثقافة وطلب الإصلاح والروح الثورية لها منشأ ذاتي من خلال الحرمان الطبقي الذي يلهم هذه الصفات دون العوامل الخارجية من تربية وتعليم، والدور الذي يمكن أن يؤديه التوجيه الثوري هو إشعار الطبقة المحرومة بالتناقض الطبقي وأنها في موقع المحروم والمستثمر، اما التبدل الذي سوف يتم فتحكم الطبقة العاملة فيه فانه سوف يتم بنحو حتمي وضروري من دون حاجة لتهيئة الناس له، وما ذلك إلا بسبب عدم إمكان فرض شعور طبقة على طبقة أخرى مناقضه لها وانعدام وجود إيديولوجية عامة مشتركة بينهما.

و من هنا فان القادة الثوريين والتقدميين لا بد أن يكون من الطبقة الكادحة نفسها، لأن هذه الصفات لا توجد إلا في أفراد الطبقة الكادحة دون غيرها، ومن الضروري أن يشعر القائد بآلام طبقته حتى يقودها نحو خيرها.

و عندما يشرح ماركس وانجلز كيف وصلا إلى هذه الأفكار الثورية وأصبحا قائدين للطبقة الكادحة مع انهما ليسا منها يقولان: انها من الطبقة البرجوازية ولكن هبطوا إلى الطبقة العاملة وأتيا بمعلومات كثيرة لتعليم البروليتاريا وتربيتهم.... !! ؟

ج - النقد

بعد أن انتهينا من عرض مبادىء نظرية المادية التارخية... يأتي الان دور النقد والتحقيق فيها، وسوف نقتصر على نقدها وحدها دون باقي أفكار ماركس لأنها ليست موضعاً للبحث الآن ولا هي داخلة في غرض الكتاب، ونوجه هذه النقود على النحو التالي:

اولاً: (ان هذه النظرية لا تعدو أن تكون فرضية من دون دليل، لأن كل نظرية فلسفية تاريخية لا بد لها من الاعتماد على التجارب التاريخية المعاصرة والأحداث الماضية لإنتزاع قوانين كلية منها، أو إعتمادها على الاستدلال المنطقي أو الشواهد العلمية، وقد قال إنجلز انه لم يستطع هو وماركس تطبيق نظرياتهما على عصرهما لأنه اصطدم بالواقع المخالف لتلك النظريات)، واذا عزت المطابقة في الحاضر فهي في الماضي اكثر صعوبة وغموضاً (كذلك فان هذه النظرية ليست نشاطاً مادياً بارزاً لتخضع للتجربة العلمية كما تخضع اى مادة، وهي تتوافق مع الأصول الفلسفية المسلمة لتكون هي الأساس لصحتها)[1].

ثانياً: إختراق هذه النظرية والخروج عليها لدى ماركس وغيره من أقطاب هذه النظرية، ففي مسألة كون العامل الاقتصادي هو المؤثر الأوحد في المجتمع نجد تصريحات تخالف ذلك في كتابات ماركس وانجلز، فقد قال انجلز: انه يحتمل وماركس مسؤولية جعل الشباب يعتقدون بأوحدية العامل الاقتصادي،

بسبب إضطرارهما إلى ذلك أثناء مناقشة المخالفين لهم، الأمر الذي منعهم من التصريح بحق سائر العوامل التي هي شريكة بدورها في التأثير، وفي هذه المسائل نفسها يصرح (ماو) بوجود التأثير المقابل للعامل الاقتصادي وغيره في تكوين مراحل تطور المجتمع- مثل ماركس تماماً- ويقول: (إن كلاً من القوي المنتجة والتجربة والعامل الاقتصادي... وكذا علاقات الانتاج وغيرها من البناء العلوي قد يكون لها دور هام ومصيري).

كذلك في مسألة إنتقال المجتمع من مرحلة تاريخية سابقة إلى مرحلة لاحقة لا يمكن أن يتم الا ضمن الانتقال التدريجي فالمجتمع الاقطاعي لا يصبح إشتراكياً الا اذا مر بالمرحلة الرأسمالية ووصل إلى قمة التطور الصناعي، ففي هذه المسألة حصل في الصين إنتقال من المجتمع الإقطاعي إلى المرحلة الاشتراكية فوراً من دون المرور بالمرحلة الرأسمالية، وقد قاد الفلاحون هذه الثورة في الوقت الذي يعتبرهم ماركس طبقة حقيرة ورجعيين بالذات لا يمكن ان يحققوا إنجازاً ثورياً.

ثالثا: نقض التطابق الضروري بين الأساس والبناء العلوي أي بين العامل الاقتصادي وبين تفسير المراحل الاجتماعية فبينما تؤكد المادية التاريخية على التطابق بينهما نجد أن عدداً من المجتمعات الرأسمالية قد وصلت إلى قمة تطورها ولم تحدث فيها ثورات اشتراكية كما توقع ماركس، كذلك نجد دولاً متفقة في المرحلة الاقتصادية مثل أمريكا واليابان ولكنهما مختلفة في الدين والفن والتقاليد والنظام السياسي الذي ينبغي أن يكون متشابهاً تماماً في رأي الماركسية لأنه تابع للمرحلة الاقتصادية، وهناك دول بعكس ذلك متشابهة في الدين والنظام السياسي ولكنه مختلفة في الوضع الاقتصادي، وهكذا هناك أمثلة كثيرة على انعدام هذا التطابق الضروري المدعي.

رابعاً: انتفاض التطابق بين المرحلة والفكرة حيث إن من أهم أفكار المادية التاريخية أن كل مرحلة لها فكرها الخاص بها، مع أن الملاحظ أن كثيراً من الأفكار والأديان قد سبقت عصرها والمرحلة التي وجدت فيها، وقد قال ماركس: قد نرى في بعض الأحيان أن المعلومات تسبق العلاقات التجريبية المعاصرة، بحيث يمكن الاستناد والاعتماد على فرضيات العلماء السابقين كحجة في نضال العصر المتأخر عليهم.

خامساً: تقول المادية التاريخية إن الأفكار والعلوم لا يمكن أن تتطور وتتكامل إلا من خلال العامل الاقتصادي. وهذا غير صحيح لأن وسائل الإنتاج من دون تأثير العامل البشري لا تتطور في نفسها بل تتكامل وتنمو من خلال تكامل الإنسان وتقدمه في التجارب والعلوم، وهما في التطور متواكبان مع كون العامل البشري هو الأسبق في التطور ذلك لأن عملية النمو في الانسان تحصل فيه على نحو الحقيقة، وهي في وسائل الانتاج على نحو المجاز... لأنه يعني بها تطور الوضع الاقتصادي نفسه على نحو ينعدم فيه الفرد الناقص ويوجد فرد أخر كامل إلا أن الفرد الناقص مما كما ينمو الانسان مع الإحتفاظ بذاته، وبذلك كلما تطور حقيقي وتطور مجازي فالحقيقي هو الأصل دون المجازي.

سادساً: إن المادية التاريخية تنقض نفسها عندما تقول إن كل فكرة ليست صحيحة مطلقاً بل هي حقيقة نسبية، لأنها خاضعة للزمن والمرحلة التي قيلت فيها. فالمادية التاريخية بما أنها فريضة أو نظرية فلسفية وكجزء من البناء العلوي إما أنها تشمل غيرها وتصدق عليه ولا تشمل نفسها فهذا يعني أنها اخترقت قانونها وخرجت على ذاتها، وإما أنها تشمل نفسها وغيرها وهنا نلاحظ أنها وضعت في مرحلة معينة وقد إنقضت هذه المرحلة وزالت فينبغي أن تزول هذه النظرية معها

لأنها من نتاجها.

و هناك مناقشات أخرى أعرضنا عنها... ونكتفي بهذا القدر في هذا المقام.

د ـ الإسلام والمادية التاريخية:

هناك من يظن أن المادية التاريخية كانت أساسا لتفسير التاريخ وتحليله في القرآن المحمدي قبل ماركس بأكثر من ألف سنة، ولعل أول من أثار هذه المسألة الدكتور علي الوردي العراقي في عدد من كتبه منها (مهزلة العقل البشري). وقد سرت هذه الفكرة وشاعت في أوساط بعض المثقفين من المسلمين، وبما أن مثل هذا التفكير خاطئ ويشكل خطراً عظيماً على الثقافة والمعارف الإسلامية رأينا من اللازم علينا بحث هذه المسائل والرد عليها.

و نحن سوف نذكر مواضع استشهادهم والتي على نحوها ضمن الأمور التالية:

أولاً: لقد ورد في القرآن الكريم تقسيم المجتمع إلى طبقتين على أساس اقتصادي، عبر عن طبقة الحاكمين المستثمرين بالمستكبرين والمسرفين والمترفين، وعن الطبقة المحكومة بالمستضعفين والناس والذرية والأراذل، واعتبر أن الكفر والفساد والطغيان في الطبقة الأولى والأنبياء والمؤمنين والمصلحين من الطبقة الثانية، وهذا يعني تبعية الفكر للموقع الإقتصادي.

ثانياً: إن القرآن يوجه الخطاب إلى الناس.. أي الجماهير والشعب المحروم، وهذا يدل على أن القرآن يقر بالوجدان الطبقي، ويرى هذه الطبقة المحرومة الوحيدة الصالحة لقبول الدعوة الإسلامية.

ثالثاً: لقد صرح القرآن الكريم بأن القادة والمصلحين والمجاهدين والأنبياء

إنما يبعثون من بين السواد الأعظم لا من بين الطبقة المتنعمة المترفة، وهذا يدل على ضرورة التطابق بين الموقع القيادي والموقع الاقتصادي والطبقي وهذا لا معني له إلا على القول بالمادية التاريخية.

رابعاً: إن ماهية حركة الأنبياء هي إيجاد العدل والمساواة بين الناس ورفع الفواصل الطبقية، حيث يأتي بالدرجة الثانية تقويم الأخلاق والعقيدة ونحوها، وقد ورد في الحديث: (اللهم بارك لنا في الخبز لولا الخبز ما تصدقنا ولا صلينا). حيث يدل ذلك على تعلق المعنويات بالماديات.

و ما هو سائد من أن هدف الأنبياء هو إصلاح عقائد وأخلاق الناس أولاً لتصلح أمور معاشهم، ثانياً... ليس إلا من حيل رجال الدين والمترفين ليربطوا الناس بهم.

خامساً: يظهر من القرآن الكريم أن منطق المخالفين للأنبياء من المترفين كان دائماً منطق المحافظة على الوضع الموجود والاعتقاد بالتقاليد والإيمان بالماضي، بينما كان منطق الأنبياء على الاعتقاد بالتجديد ونفي التقاليد والتطلع إلى المستقبل الذي هو منطق المستضعفين والمجرمين، ولذا كانت الطبقة الأولى تدعو إلى الجبر والإيمان بالقدر لتبرير الواقع القائم وعدم الخروج عليه، بينما يؤمن المستضعفون بالتفكير العلمي والحوار والخروج على الواقع والقدرة على تغييره والثورة عليه.

سادساً: موقف القرآن من الصراع بين المستكبرين والمستضعفين... حيث يرى النصر النهائي للمستضعفين، وهو نفس منطق الديالكتيك الحاكم بأن التاريخ يسير بنحو جبري إلى انتصار الطبقة الجديدة على الطبقة الحاكمة.

هذه هي جملة من آرائهم في هذه المسألة، ونقدها يتم ضمن الأمور التالية:

أولاً: ليس صحيحاً أن الإسلام يقسم المجتمع إلى طبقتين. على أساس العامل

الاقتصادي، ولا هو يربط الموقع الإيديولوجي والانتماء الفكري بالموقع الاقتصادي، لأن كثيراً من الذين آمنوا بالأنبياء كانوا من غير المستضعفين مثل مؤمن آل فرعون وزوجة فرعون وموسى نفسه الذي تربي في حجر فرعون وسحرة فرعون ثم النبي محمد ﷺ الذي عاش حياة مرفهة بعد زواجه من خديجة وخديجة نفسها وعم النبي أبوطالب وعدد من أصحاب النبي محمد ﷺ، وإذا كان أغلب أتباع الأنبياء من عامة الناس ومستضعفيهم فلأن فطرتهم أقل تلوناً ويجدون في الدين آمالهم، ومن هنا فإن الإسلام وعامة الأديان تخاطب المستكبرين كما تخاطب المستضعفين وتطلب منهم الايمان وخلال فطرتهم وإمكان هدايتهم لا من خلال موقعهم الاقتصادي، ولو كان المستكبرون لا يمكن أن يؤمنوا لما خاطبهم القرآن ولا الأنبياء أبداً، وإن الأصل في القرآن ليس بل الروح والأمور المعنوية وهي التي يركز عليها الإسلام ولها يحمل المسؤولية من دون فرق بين طبقة وأخرى، والقرآن يرى للإيديولوجية والتفكير دوراً غير محدود...

خلافاً للمادية والماركسية التي تحصر دور التوجيه بمجرد وعي الطبقة لنفسها... من دون أن يكون لها أثر في إحداث الثورة الاجتماعية المقصودة.

و ما قيل من أن القرآن عندما يخاطب الناس فهو يعني الطبقة المحرومة غير صحيح لأن المقصود بالناس هم عامة البشر في أي مستوى كانوا، وليس في لغة العرب ما يدل على ذلك المعنى أبداً.

و أما مسألة بعثة الأنبياء من جماهير الناس المستضعفة.... فليس في القرآن تصريح بذلك، وآية ﴿ **بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ** ﴾ ليس المراد بها جماهير المحرومين، بل يراد بها من لا يقرأون ولا يكتبون، مشتق من (الأم) لا من (الأمة)، وحتى لو أريد بها (الأمة) فإن معناها المجتمع بجميع طوائفه لا صنف خاص منه.

ثانياً: ما قيل من أن هدف الأنبياء هو إلغاء الفوارق الاجتماعية بالدرجة الأولى ثم تركيز الأمور القانونية والأخلاقية ونحوها بعد ذلك... إن هذا غير صحيح أيضاً لأن أساس دعوة الأنبياء هي الإيمان بالله وبكل ما يترتب عليه من أفكار وشرائع ليس مقصوراً بجانب واحد أبداً، وهم كانوا يبدأون من الفكر والعقيدة لأنها مدخل لغيرها. وكذلك ما قيل من إرتباط مخالفي الأنبياء بالماضي والتقاليد مقابل ارتباط الأنبياء بالتغيير والمستقبل.... فإن هذا صحيح ولكنه ليس الدافع لذلك هو الموقع الطبيعي، فإن المترفين إنما يندفعون وراء مصالحهم ويدافعون عنها بقدر ما يهددها الدين الجديد، والأنبياء لم يتأثروا بحرمانهم بقدر كونهم وصلوا إلى مستوى من الرشد والكمال جعلهم ثوريين يتحمسون لتغيير المجتمع ضمن أمر الله وإرادته، ولذا فإن بعض أفكار الماضي وتقاليده لم تلغ في الإسلام... بسبب أن المقياس ليس الزمن بل الحق... فم كان موافقاً لمصالح الناس يبقى حتى لو كان من الماضي وما يخالف يرفض ولو كان حديث الزمن.

ثالثاً: ما قيل مت أن الطبقة المحرومة هي التي تنتصر في آخر الأمر منطق الحتمية القاضي بانتصار هذه الطبقة في المادية التاريخية، وهذا صحيح أيضاً لكنه من الواضح أن هذه الطبقة لا تنتصر على أساس مادي من دون فكر ولا جهاد بل لا بد من وجود مجاهدين في سبيلها، فالانتصار أخيراً للمتقين المؤمنين الذين قدموا التضحيات.... لا لمجرد المستضعفين المظلومين الذين سينتصرون بسلاح الحتمية التاريخية.... وآية ﴿ **وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ** ﴾ المقصود به موسى وقومه الذين يحملون دينا يرفع عنهم الظلم والاستضعاف ويرفعهم إلى مرتبة العزة والقوة فيجعلهم أئمة وسادة ويزيل فرعون من الوجود، وهذا التوجه في القرآن واضح وصريح... فإن الانتصار الكامل لن يكون من دون تقوى أبداً، إذ (العاقبة للمتقين).

هـ - المقاييس:

ثمة مجموعة من الملامح تستنتج من عدد من الخطوط الكبرى في الفكر الذي يراد استنباط نظرية له في التاريخ وتكون هذه الملامح بمثابة الصورة العامة لهذه النظرية، لذا فسوف نرسم بعض هذه الملامح التي تلقي ضوءاً نظرية الإسلام التاريخية وهذا ما خطر منها بالبال:

إستراتيجية الدعوة

كل مدرسة لابد لها من اتخاذ طريقة خاصة لها ترتبط من جانب بأهدافها الرئيسية ومن جانب آخر بتفسيرها الخاص لماهية الحركات التاريخية، فالدعوة هي نوع توعية الجماهير وضغط على دوافع الحركة فيهم.

فبينما ترى المسيحية القائمة اليوم أن طريق الدعوة لا تكون إلا بالسلم، ويرى (نيتشه) أنها لا تكون إلا بالقوة، ويرى (كونت) أنها بالتركيز على التربية العملية، وتراها الماركسية بوعي الموقع الطبقي... يرى الإسلام الدعوة مرة بالسلم والحوار ومرة بالقتال والسيف حسب الحاجة وحسب الظروف، وأن القتال مبرر أخلاقياً كما الدعوة السلمية ما دام الهدف منها هو الوصول إلى الحق أو الدفاع عنه، والإسلام يتوجه في الأساس إلى الجانب الفكري والشعوري من الإنسان ويأمر أولاً باستعمال البرهان لتركيز العقيدة والموعظة الحسنة والتذكير بنعم الله وعقابه للإقناع النفسي وربط الإنسان بالله سبحانه، والتأكيد أولاً على مسألة المبدأ والمعاد وما يتفرع من مسائل العقيدة ثم على إنسانية الإنسان وعزته وكرامته ودوره في الحياة ثم على جانب الحقوق والواجبات، ومن هنا يتبين أن الإسلام يركز على الجانب المعنوي في الإنسان يهذبه ويربيه بهدوء وقوة من دون أن يتعرض للجانب المادي إلا بقدر ما هو حاجة لا بد من إشباعها ولكن بنحو إنساني وأخلاقي وروحي، وهذه النظرة كما تنعكس على الإنسان الفرد فهي منعكسة عليها مجتمعاً وتاريخياً.

وبسبب هذه النظرة الروحية إلى الإنسان فإن الإسلام يعتبر أن ثمة مقومات وشروطاً لقبول الدعوة إلى الإسلام ليس منها الموقع الطبقي التي تحرص الماركسية على خلقه عند انعدامه مثلما قال ماركس: (... ونتساءل كيف يمكن تحرير الشعب الألماني؟ والجواب أنه لا بد من تشكيل طبقة مكبلة بالقيود تماماً)، بل الإسلام يعتبر طهارة الإنسان الذاتية ونقاء فطرته أساساً لقبول الدعوة والتأثر بها بينما الفساد الروحي والخلقي وعمي القلب وتقليد الأباء والتأثر بالمنحرفين موانع من قبول الدعوة، ويرى الشباب أقرب إليها من الكهول والفقراء أقرب من الأغنياء بسبب وجود شرائط فيهما بنحو أقوى من غيرهما وأغلب، وليس من الضروري في الإسلام المساهمة في تردي الوضع لخلق حالة غليان ثوري... بل يكفي مجانبة الحق للمطالبة به والثورة لأجله.

عنوان المدرسة:

إن العنوان الذي يتسمي به أتباع مذهب معين يعني طبيعة ذلك المذهب أو المدرسة ويلقي ضوءاً على محتواها، فمثلاً عنوان (البيض) عنوان له هوية عنصرية، و(الأسيوي) له هوية جغرافية، و(المسيحي) بما هو انتساب لفرد يلقي ضوءاً على هويته الفردية، والإسلام لم يرض لأتباعه أي عنوان عنصري أو طبقي أو مكاني أو فردي، بل هو مأخوذ من التسليم لله والانقياد له، والأمة المسلمة هي أمة أسلمت نفسها لله وسلمت للحقيقة، وهذا العنوان هو ضمان وحدة المسلمين مهما تعددت فرقهم وطوائفهم وهو يلقي ضوءاً على هوية الإسلام الإلهية وحرصه على إرجاع الأمور كلها الله سبحانه وتعالى.

العلو والانحطاط في المجتمعات:

عندما تضع المدرسة أسباب العلو والانحطاط للمجتمع فإن ذلك يعكس

طبيعة نظرتها إليه فإذا ركزن على الجوانب المادية والاقتصادية فهي مادية في نظرتها وإلا فهي معنوية روحية، وأهم ألأسباب التي عرضها القرآن الكريم لذلك أربعة:

الأول: الظلم والعدل فإن وجود أحدهما سبب في الرقي أو التخلف، وذلك كما في الآية الكريمة: (إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين).

و **الثاني**: إنعدام الوحدة في المجتمع أو وجودها، وذلك في قوله تعالى: (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم).

و **الثالث**: دوام التناصح والتواصي بالحق وعدمه من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعدمهما، وذلك في قوله تعالى: ﴿ **كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** ﴾.... تعليلاً لفساد بني إسرائيل.

و **الرابع**: الانحراف والفساد الخلقي... وفي القرآن الكريم عدد كبير منها إعتبرت ذلك سبباً لهلاك المجتمع وانهياره.

و هذه الأمور وغيرها تدور حول الأمور المعنوية في معظمها حيث تؤكد على الهوية الروحية للتاريخ والمجتمع.

تطور التاريخ وتكامله:

إن ما مر كان بحثاً في ماهية التاريخ وأنها هل هي مادية أولا، والموضوع المهم الآخر هو تكامل التاريخ بمعني أن المجتمعات البشر هل تسير نحو الأفضل ونحو الكمال أو أنها ليست كذلك، ونحن نسلم كأصل موضوعي أن الحياة الاجتماعية للبشر بنحو عام تسير نحو الأفضل وإن كان هناك من يقول بأن حركة التاريخ وتطوره تتم بنحو دائري لتعود من حيث بدأت من تحضر إلى تخلف ومنه إلى تحضر وهكذا، والمسألة المبحوث عنها أنه ما هي عوامل هذا التطور، وللجواب عن هذا التساؤل ثمة عدد من النظريات:

الأولى: النظرية العنصرية: وهي التي تقول أن الشعوب تختلف في مستواها الفكري ثمة شعوب راقية تصلح لبناء الحضارات وثمة شعوب ليس لها قابليات عالية فيبقوا عبيداً وفي مستوى اجتماعي متخلف، وقد ذهب لهذا الرأي أرسطو وغيره من المفكرين.

و **الثانية: النظرية الجغرافية**: التي تجعل للبيئة المعتدلة تأثيراً في المزاج وفي القوى الفكرية فتنشأ فيها الحضارات والانجازات الراقية... بينما الشعوب التي تعيش في بيئة جافة قاسية لا تنشأ فيها حضارات.

والثالثة: النظرية الالهية:

التي ترى أن الله تعالى هو المؤثر في كل شيء فهو الذي يطور المجتمعات ويوصلها إلى الرقي وهو الذي يهدمها إن شاء، وذهب إلى ذلك (بوسوئه) الأسقف الفرنسي.

و ثمة أشكال مشترك على هذه النظريات الثلاث ـ بعيداً عن كونها في ذاتها صحيحة أو لا ـ هي أنها ليست إجابة عن المشكلة المطروحة، فإن الله إذا كان هو المطور للتاريخ أو كان شعباً معيناً أو ذا بيئة معينة... فما هو القانون الذي على أساسه تم ذلك التطور... إذ هذا هو السؤال المطروح... فضلاً عن عدم موافقة الإسلام عليها من الأصل... ولا تثبت للنقد العلمي... وهذا أمر واضح إلى حد ما.

الرابعة: النظرية الاقتصادية: وهي النظرية الماركسية التي سبق مناقشتها.

الخامسة: النظرية البطولية: التي تقول إن النوابغ هم الذين يطورون الحياة الاجتماعية ويدفعون بتاريخها قدماً نحو الأمام من خلال انجازاتهم العلمية أو قيادتهم السياسية الحكيمة، وهذه النظرية من الناحية الفنية تجيب عن التساؤل المطروح.

السادسة: النظرية الفطرية: أي إن الإنسان بتكوينه مزدود بقابلية الكمال والنمو وهو في نمو وكماله يدفع المجتمع والتاريخ نحو نمو مطرد، فهو يتمتع بقابلية الابتكار التي تمكنه من الخلق والإبداع وهو أيضاً مزود بقابلية التعلم وقابلية حفظ التجارب وجمعها، وهذه هي النظرية التي نتبناها ونوافق عليها، والنظرية البطولية غير صحيحة لقصرها التطوير على النوابغ، وذلك لأن جميع أفراد البشر يملكون قابلية متفاوتة على الاختراع والابتكار ولو كانوا بدرجة أقل من النبوغ»[٢].

و الحمد لله رب العالمين

الهوامش

(١)هذه الأضافة من الملخص ليكتمل المعنى لنقصانه عند المؤلف.

(٢)يقول المترجم إن المؤلف الشهيد لم يكمل هذا الكتاب وقد وجد من الأوراق هذا القدر .